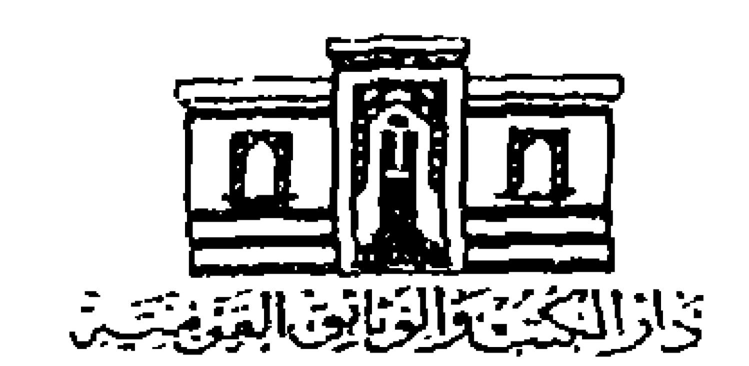


المثقفون وثورة يوليو
الشهادات الأخيرة
أبو سيف يوسف
الشيخ محمد الغزالي
أحمد بهاء الدين
محمود أمين العالم
فتحي رضوان
أحمد أبو الفتح
إحسان عبد القدوس
إبراهيم بيومي مدكور
محمد سيد أحمد
خالد محمد خالد
عبد المنعم الشرقاوي
اسماعيل صبري عبدالله
لويس عوض
أحمد حمروش
مصطفى أمين
لطفي الخولي
أحمد سعيد
أمين هويدي
وحيد رأفت
UAR
العيد الثالث عشر للثورة
٢٣ يوليه
١٩٥٢
١٩٦٥
بريد
POSTAGE
100
١٥ مارس ١٩٦٥
الشعب ينتخب
جمال عبد الناصر
رئيساً للجمهورية
بنسبة ٩٩,٩٩٩٪ من الأصوات
PAR AVION
د. مصطفى عبد الغني
مركز الأهرام
للنشر والترجمة والتوزيع

الشهادات الأخيرة

المثقفون وثورة يوليو

د. مصطفى عبد الغني



دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد الغنى، مصطفى
المثقفون.. وثورة ١٩٥٢ (الشهادات الأخيرة)/ مصطفى عبد الغنى.- ط ١.-
القاهرة: مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع، ٢٠١٠.
عدد الصفحات: ١٩٢ صفحة.
المقاس: ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٢٢٠١٥٣٦
١- مصر - تاريخ - العصر الحديث - ثورة ١٩٥٢
٢ - المثقفون المصريون
أ - العنوان

٩٦٢/٠٦

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

الناشر: مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ - ٢٥٧٨١١٠٣
البريد الالكترونى: actp@ahram.org.eg

تصميم الغلاف: أحمد سليمان

المحتويات

تقديم

ما زالت قضية العلاقة بين ثورة ١٩٥٢ والمثقفين الذين اختلفت اتجاهاتهم إزاءها تثير جدلا لأن الكثير من الأسئلة المتعلقة بها لم تجد إجابات شافية بعد. ولا غرابة فى ذلك. فلم تحظ حركة سياسية أو اجتماعية فى تاريخ مصر الحديث بمثل الاهتمام الذى لقيته ثورة ١٩٥٢. ولم يكن هذا الاهتمام مقصورا على مصر، بل امتد خارجها إقليميا ودوليا.

ولا يعود ذلك إلى أهمية هذه الثورة فقط. فقد عرفت مصر تطورات سياسية واجتماعية مهمة أثرت فى محيطها وأحدثت أصداء عالية بدرجات متفاوتة منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولكن طابع المرحلة التى قامت فيها ثورة ١٩٥٢ أتاح لها ما لم يتوفر قبلها. فكانت هذه مرحلة انتقال فى العالم العربى والشرق الأوسط، كما فى جنوب العالم الذى كان معروفا باسم «العالم الثالث»، من السيطرة الاستعمارية إلى التحرر الوطنى. وكان العالم، حين قامت ثورة ١٩٥٢، قد انقسم إلى معسكرين كبيرين. ونظرا لأهمية موقع مصر فى إقليمها، كان ضروريا أن يؤدى حدوث تحول سياسى كبير فيها إلى آثار لم يترتب مثلها على تطورات لا تقل أهمية حدثت فيها من قبل مثل تأسيس أول مجلس نيابى فى المنطقة عام ١٨٦٦ ونشوب أول ثورة شعبية وطنية ديمقراطية عام ١٩١٩.

غير أنه ربما كان أهم ما تميزت به ثورة ١٩٥٢ هو عنصر الجذب ا قوى الذى تمثل فى شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر (الكاريزماتية) وقدرته الفائقة على التأثير.

وإذا كان هذا هو حجم ثورة ١٩٥٢، فمن الطبيعى أن يكون الخلاف عليها كبيرا والتباعد فى المواقف تجاهها واسعا. ولأنها أحدثت تغييرا جذريا فى المجتمع، فمن الضروى أن يكون قسم من ذلك الخلاف عميقاً، وأن يتسم جزء غير قليل من التباين بشأنها بالحدية، أى أن يكون المرء معها بالكامل أو ضدها على طول الخط.

فقد أضفى بعض أنصارها عليها شيئا من القداسة ورفضوا الإقرار بأى أخطاء لها أو سلبيات فيها، بينما أنزلق بعض خصومها إلى عدم الاعتراف بأى إنجاز لها.

وكان بعض المثقفين جزءاً من هذا الانقسام، وشارك عدد منهم فى تعميقه. ولكن بعضهم الأخر كان أكثر موضوعية بدرجة أو بدرجات. كما اختلفت اتجاهات عدد منهم تجاهها من مرحلة إلى أخرى، سواء فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر أو بعده، فى إطار مراجعات قاموا بها.

ولكن ما قد تنفرد به قضية العلاقة بين ثورة ١٩٥٢ والمثقفين هو أن بعض هؤلاء اختلفت مواقفهم السياسية إزاء سياسات تبنتها عن اتجاهاتهم الفكرية. فهناك من أيد بعض سياساتها بالرغم من معارضته لها من حيث المبدأ.

فقصة المثقفين مع ثورة ١٩٥٢ كبيرة ومعقدة. والكثير من أسئلتها ما زال مفتوحا. ولذلك فقد أحسن الصديق الدكتور مصطفى عبد الغنى عندما رأى ضرورة إعادة طرح موضوعها الذى أهتم به طويلاً، بل تخصص فيه منذ أن أعد رسالته لنيل درجة الدكتوراه. ولعل خير طريقة لإعادة طرح هذا الموضوع هى تقديم شهادات ١٦ من أبرز وأهم المثقفين الذين تفاعلوا مع ثورة ١٩٥٢. وهم يغطون ألوان الطيف المصرى كلها اليسارية والليبرالية والقومية والإسلامية. وكان لكل منهم إسهاماته واجتهاداته وأدواره المقَّدرة. وقد أعد هذه الشهادات للنشر بطريقة راعى فيها أن يترك الحوار دون تدخل تحريرى كبير من جانبه أو من المركز للحفاظ على تلقائيته. وهذه طريقة قد لا يتفق عليها الجميع. غير أن الهدف هو أن تكون هذه الشهادات فرصة لنقاش عام جديد أكثر هدوءاً وأوفر موضوعية حول ثورة ١٩٥٢ بمنأى عن التخندق والاستقطاب والترصد والتربص، وبأفق التطلع إلى المستقبل على أساس أن أحداً لا يمتلك الحقيقة المطلقة، وانطلاقا من أن التاريخ السياسى - الاجتماعى للمجتمعات الإنسانية حلقات متصلة تسلم كل منها للأخرى، فى حركة متدفقة يرتبط فيها الحاضر بالماضى ويمهد للمستقبل.

ولأن ثورة ١٩٥٢ لم تكن استثناء من ذلك، فقد كانت هذه الثورة حلقة رئيسية من حلقات النضال التحررى الوطنى الديمقراطى الذى بدأته ثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ المعروفة باسم «ثورة عرابى»، وخطت به ثورة ١٩١٩ خطوة كبيرة إلى الأمام وفتحت الباب لتعميقه، عبر إضافة البعد الاجتماعى الذى قامت ثورة ١٩٥٢ بأكبر دور فى تأكيده، وفضلا عن دورها الريادى فى ربط التحرر الوطنى بالعروبة.

ولذلك ربما يكون أهم ما فى النقاش الذى نأمل أن يعيد هذا الكتاب فتحه هو التطلع إلى المستقبل. فإذا كانت ثورة ١٩٥٢ هى حلقة فى تاريخ نضال شعبنا، فأكثر ما ينبغى أن نستلهمه من مختلف حلقات هذا النضال هو حاجتنا إلى برنامج وطنى ديمقراطى اجتماعى جديد: برنامج يستنهض همة المصريين ويثير حماسهم لإكمال أهدافهم الوطنية والديمقراطية والاجتماعية.

مقدمة

ترددت طويلا وأنا أهم بتسجيل هذه الشهادات..

كان مبعث ترددى أننى تراجعت عما كنت عقدت العزم عليه: وهو الكتابة حول - وعن - هذه الشهادات.. وكان مبعث الحيرة الشديدة، أنه إذا كنت استطعت الحصول على هذه الشهادات، فقد استفدت بها طويلا فى أثناء عملى فى العديد من الدراسات المهمة حول علاقة المثقف بالثورة، خاصة أن موضوع أطروحة الدكتوراه التى تقدمت بها كان حول «علاقة المثقفين بثورة يوليو»..

وكان مبعث الحيرة يعود إلى أمور شتى.

فأنا – أولا – استفدت بهذه الشهادات إبان عملى لسنوات فى هذه العلاقة الشائكة بين المثقف والسلطة، كما أننى - ثانيا – عشت هذه الفترة المهمة والحاسمة من تاريخنا فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. بل إننى بدأت دراساتى حول هذه القضية الصعبة منذ منتصف الأربعينيات من القرن الماضى، ومن ثم، فإننى بشكل أو بآخر، كنت شاهدا، وبالتبعية، فإن صاحب هذه الشهادة يصبح ذا شهادة «مجروحة» على تلك الشهادة أو الشهادات..

ثم إننى – ثالثا – عملت بكد وجهد شديدين، فلم أكن لألتقى بأى من هؤلاء المثقفين إلا بعد أن اقرأ كل شىء عنه – ثم أعود إلى صاحب الشهادة بأسئلة محيرة، وفى الوقت نفسه محصنا بوعى شديد لهذا العصر..

وقد يكون من المهم هنا أن أذكر، إننى لم أكن أجلس إلى أى من هؤلاء إلا بعد أن أهيئ نفسى تماما «لمحضر نقاش» مدروس، ثم إننى كنت أضع بين يدى صاحب الشهادة «جهاز التسجيل» فأسجل كل شىء، وحين أعود إلى الشاهد مرة أخرى أكون قد قمت «بتفريغ» الشريط على الورق، وطرح العديد من التساؤلات المتوالية عن الدلالات الغامضة المحيرة لهذه الفترة ولهذه العلاقة؛ وأحصل بذلك على مراجعة الشاهد الشخصية «بالقلم» على هذا المحضر..

وقد يكون من المهم أن أرصد وأسجل أنه، بعد ذلك، أبدى الكثير من المثقفين الذين عاصروا فترة الإعداد للدراسة العلمية وفترة مناقشتها، ارتياحهم الفائق لهذا الأسلوب، ولم يتدخل أحد فى النتائج الأخيرة للبحث العلمى. فإلى جانب معاصرتهم للموضوع ومناقشته، فإن بعضهم كان قريبا إلى درجة كبيرة من الباحث؛ ويذكر صاحب هذه السطور كيف أنه توجه إلى أحمد بهاء الدين للإسهام فى «مناقشة» الأطروحة الجانبية.. ولبى على الفور، وهو يؤيد موقفه الفعلى بالأسانيد والشهادات المتوالية فى هذا..

الأكثر من هذا، أن العديد من هذه الدراسات نشر فى حياة أصحابها، فى حين أن بعضها الآخر نشر بعد رحيل البعض. وفى الحالتين، كانت قضية «المعاصرة» يمكن أن تنال من صاحب الشهادة أو الباحث، لولا أن العلاقة بين المثقف والسلطة كانت علاقة معلقة دائما.. وهو ما استطعت أن أرصد الكثير منه فى «أطروحة» الدكتوراه، بل أضيف فى طبعة تالية «مزيدة منقحة» بعض هذه الشهادات..

كما أننى – وهذا أمر تال – حرصت على أن أدون هنا شهادات المثقفين فى الأطروحة أو فى النشر فى الدوريات المعاصرة..

أسارع بالقول هنا أيضا إننى انشغلت طويلا فى أثناء عملى على أطروحة جامعية بتسجيل شهادات العديد ممن جمعوا بين صفتى المثقف ورجل السلطة الحاكمة. وعلى الرغم من ذلك فقد جهدت أن أترك هنا بين يدى المتلقى شهادات المثقفين، كأن الذى يعنينى فى المقام الأول هو رمز المثقف وإن لم أنف دور الأمير، فالعلاقة جدلية دائما بين المثقف والأمير، غير أننى فى شهادتى – فى السياق الأخير – شهادة الباحث والشاهد – آثرت التوقف لا الانحياز عند المثقف.

لقد كان بين يدى العديد من الشهادات التى تعكس موقف الأمير، وهى مهمة، بل على جانب كبير من الأهمية، غير أننى آثرت أن أسجل شهادة المثقف هنا، مع الوعى التام بطبيعة هذه العلاقة العضوية بين المثقف والأمير.

لقد مضى أكثر من نصف قرن على ثورة يوليو.. ولأن الشهادة بعد نصف قرن تخلو من الشوائب أو التحيز، فإن إيرادها هنا يعد من الأهمية القصوى فى زمن أصبح الحديث

فيه عن أول ثورة قومية عربية فى العصر الحديث نوعا من المخاطرة، ولونا من ألوان الانحياز أو الخصومة بين الثورة وأبنائها.. وبدون تدخل علاجى لإحداث علامة صحية فى الجسد المصرى، فإننا نورد بعضا من اعترافات الشهود، نخبة الثورة وأبنائها هنا.. وبمراجعة هذه الشهادات التى تعرفنا عليها فى أثناء عمل أطروحة جامعية، نلاحظ توافقا عاما على ما قاله أحمد حمروش عن أن عبد الناصر كان مؤمنا بقيمة المثقفين، بل إنه أصبح مثقفا كبيرا بحكم اطلاعه وتجاربه، وهو ما يفسر كيف كانت علاقاته مع النخبة الثقافية واعية، بل كان حريصا على أن يمنح الثورة هذا الوجه الثقافى المضىء، وكان أول المتحمسين لإنشاء أول وزارة للثقافة بمصر، وكان دائم الدفاع عنهم دون أن يلتقى بهم بالفعل (مثلا دفاعه عن توفيق الحكيم أثناء هجوم رشدى صالح عليه..).

وحين نعود إلى الخلفيات الأولى فى العلاقة بين المثقف والسلطة فى تلك الدولة، نلاحظ أنه كان هناك الكثير من التوجهات إزاء الثورة، فقد كان هناك اتجاه يؤيد مجلس قيادة الثورة وآخر كان يتوجه إلى محمد نجيب والإخوان. بل إننا فى حوار طويل مع أحمد سعيد - المسئول عن صوت العرب فى هذه الفترة بمعاركها العربية الصاخبة - ذكر أنه حين ذهب صلاح سالم إليه يدعوه إلى مطالبة المثقفين بتأييد عبد الناصر فى خلافاته مع بقية العرب المؤيدين للخط الغربى، وطلب منه أن يأتى بالمثقفين ليدافعوا عن أفكار الثورة، سأله أحمد سعيد، هل هذه رغبة عبد الناصر، فنفى وأكد له أنها رغبته الشخصية، فأوضح له أحمد سعيد أنه لا يستطيع أن يفرض موقفا على المثقفين، وأنه لا مانع لديه أن يدعوهم فى لقاءات (تعليق يومى) لتأييد وجهة النظر الرسمية أو رفضها، فصمت صلاح سالم.

الأكثر من هذا أن أحمد سعيد، رغم كل الصخب الذى أحدثه فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى لم يستطع دعوة أحد من المثقفين الكبار لتأييد فكر الثورة إلا بعد أن يقتنع بذلك. وهو ما فعله طه حسين فى أحاديثه المتوالية. وردى على المسئول عن صوت العرب أن كل هؤلاء المثقفين كانوا يتعاونون بغير تردد ولا - حتى سؤال - مع قيم الثورة ومواقفها. ولكن هذا يختلف عن أن تقول لهم إن هناك اشتراكية فدافعوا عنها.. إنهم كانوا ضد التصنيف أو فرض الوصاية، بل - وقال هذا أكثر من مرة وكرره - لا أحد من المثقفين عارض الثورة فى شىء، أى

شيء.. خاصة فى الخمسينيات من القرن الماضى، فى هذا العقد الذى كانت فيه أفكار الثورة تتعمق وتتحول فى اتجاه إيجابى.. ولا يذكر أحمد سعيد أنه صدرت له أى تعليمات لتحريم أفكار بعض المثقفين أو تأييد البعض الآخر، فقد كانت هناك أفكار ماركسية فى صوت العرب، كما كان فيها بصمة أفكار إخوانية، بل إنه بعد اعتقال بعض الموظفين فى الإذاعة حينئذ لم يتعرض أحد قط لأفكارهم..

وتكفى شهادة محمود أمين العالم، حين جاء إليه البعض يشكو ماذا يفعلون مع عبد الناصر بعد قرارات يوليو الاشتراكية، أجاب بسؤال آخر: لقد حرث لكم عبد الناصر الأرض، ألا يكفى هذا لتأييده؟ الأكثر من هذا أن عبد الناصر كان قارئا نهما لهؤلاء المثقفين، وهنا يقول إحسان عبد القدوس:

كان جمال عبد الناصر يقرأ لى، كان معجبا بالذى أكتبه، وأذكر أنه كانت لى قصة بعنوان (علبة من الصفيح الصدئ) وهى قصة سياسية أمر بتحويلها إلى سيناريو.

وأضاف أن عبد الناصر كان فى اجتماع سياسى أنهاه بقوله لمن معه: عن إذنكم، فاليوم سوف تعرض قصة لإحسان عبد القدوس، وعلى فكرة - أضاف عبد الناصر - أنا الذى طلبت عرضها فأتركونى أراها: لقد فض عبد الناصر الاجتماع ليرى هذه القصة التى تتعرض للنظام القائم.

الأكثر من هذا، أن عبد الناصر كان حريصا على المثقف أكثر من غيره، ويروى سامى شرف فى كتابه الأخير (سنوات وأيام مع عبد الناصر) أن الرئيس الراحل سأله فجأة:

- إنت تعرف يوسف إدريس؟

فقلت له:

- أعرفه كأديب وكاتب، لكنى لم أقابله شخصيا.

فقال عبد الناصر:

- طيب اتصل به وقابله وأبلغه على لسانى الرسالة التالية: «إنه حرصا من عبد الناصر على شخص يوسف إدريس الذى يحترمه ويحبه ويقدره ولا يحب أن ينال منه شخص أو اتجاه مريب، فإن مجلة حوار اللبنانية لا تليق لاسم هذا الإنسان النظيف الشريف يوسف إدريس. وأن جمال عبد الناصر على أتم استعداد لأن يقف بجانبه مهما كانت الظروف.

وأضاف شرف أن يوسف إدريس استفسر منه عن السبب فى رغبة الرئيس فى عدم الكتابة فى هذه المجلة بالذات.

فقلت له: إن هذه المجلة لها ارتباطات وثيقة بالمخابرات المركزية الأمريكية. وللحقيقة - إن يوسف إدريس لم يكن يعلم فعلا بهذه الصلة المريبة بين المجلة والمخابرات الأمريكية، وهو الشىء الذى كنا نحن متأكدين منه.

وعلى هذا النحو، كانت شهادة المثقفين، كما كانت شهادة المعاصرين فى المرحلة الناصرية واعية لهذه الحقيقة، حقيقة أن الثورة سعت لتأكيد القيم العربية الإيجابية، ومن ثم، لابد من - تأييدها، وهو ما قابلته القيادة السياسية بالفهم، وهو ما يفسر الكثير من القضايا المشابهة فى كثير من العلاقات مع النخبة المثقفة: أحمد بهاء الدين وكمال الدين الحناوى وكمال الدين رفعت ومصطفى بهجت بدوى وفتحى غانم وحسين فهمى وكامل الشناوى ولطفى واكد وجلال الـ ـين الحمامصى.. وغيرهم.

ولدينا فى كتابات ثروت عكاشة وسامى شرف وأوراق ووثائق كثيرة نشرت لصاحب هذه السطور ما يؤكد صدور عدد كبير من القرارات الإيجابية بتعليمات عبد الناصر وإشاراته المتوالية (بخط اليد) احتفاء بالثقافة والمثقفين..

بقى أن نشير إلى أن صاحب هذا التوثيق العلمى آثر أن تدون شهادته هنا لتكون أولى الشهادات. وقد شغل صاحب هذه السطور بعديد من الدراسات التى عمل فيها فى التاريخ المعاصر بدأب شديد ونشرها فى عديد من الدراسات الأكاديمية والبحثية المهمة فى سياقها

الزمنى المعاصر(*)؛ بل إن أغلب هذه الشهادات هنا نشرت فى أثناء حياة أصحابها حين أسرع د. محمد السيد سعيد بتوثيقها ونشرها فى حياة أصحابها – الشهود – فى جريدة «البديل» قبل أن يرحل هو والصحيفة اليسارية اليتيمة بعدها..

بقى أن نزيح ستار التاريخ ونتمهل عند الشهادة أو الشهادات الأخيرة على ثورة يوليو ١٩٥٢.

والحمد لله من قبل ومن بعد،،

مصطفى عبد الغنى

---

* من ذلك على سبيل المثال:

- المفكر والأمير، العلاقة بين طه حسين والسلطة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- المثقفون وعبد الناصر، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠.
- مثقفون وجواسيس – دراسة فى أزمة الخليج. دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٧.
- وثائق ومذكرات ثورة يوليو، دار أطلس، القاهرة، ٢٠٠٥.

قبل الشهادات:

المثقفون وعبد الناصر

فى البدء كان التباين والخلاف بين عبد الناصر والمثقفين، أو بدا أنه التباين بين الطرفين، الأول بحكم ما امتلكه من سلطة ثورية والآخر بما تمسك به من سلطة ثقافية. ومن هنا، ارتبطت العلاقة بين الطرفين بمسألة الولاء. فقط كانت واو العطف هنا فى علاقة الثورة (و) المثقف بدهية، المثقف هنا اسم معطوف على عبد الناصر ومن ثم فهما شئ واحد فيصبح طرفا المعادلة متساويين.

بيد أن العلاقة بين الطرفين – فى الممارسة العملية – لم تكن متساوية.

فعبد الناصر كان رمز (السلطة الثورية) أى صاحب القوة الذى يتعرض لمعارضة قوى كثيرة فى الداخل والخارج، ويسعى لمواجهتها بجبهة واحدة. والآخر – المثقف – كان يعتقد أنه رمز (السلطة الثقافية) أى صاحب كلمة، وإن تكن مجردة من أسباب القوة العملية فإنها تسعى لتأكيد سلطة الكلمة وأهميتها دون التنبه لخطورة الغرب ضدنا حينئذ. ولما كانت القوة أكثر فاعلية، ولما كان صاحب الثقافة أقل فاعلية، فإن العلاقة بين متساويين لم تكن لتشير إلى متعادلين قط، اللهم إلا فى الحجج التى يسوقها كل منهما، وهى أيضا تخضع كغيرها – لقانون القوة: ومن ثم نشأ الصراع.

كان الصراع هو عنوان العلاقة بين السلطتين.

وكان هذا الصراع مرهونا باقتناع كل طرف وآليات تطوره فى الواقع العربى فى نصف القرن الأخير من القرن العشرين.

المثقف: المفهوم والدور

ترتبط صورة المثقف عند عبد الناصر بالنظام، أو تحدد من خلال منظوره العام، فما هو مفهوم المثقف عند عبد الناصر؟

من الملاحظ أن عبد الناصر منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، أو قبل ذلك بقليل، حين يقدم للجماهير حكومة الثورة ويربط بينها وبين الدولة، فإنه يرى أنها تمثل رمزا عاما لكل الفئات العاملة فى ذلك الوقت المبكر فهى تسمى حكومة المثقفين[1] والطلاب وأهل الرأى.. إذ كانت حلم هؤلاء المثقفين، كتبوا لها وخطبوا من أجلها وهى مشغولة البال بأداة الحكم. وفى

منتصف الستينيات من القرن الماضى كان يرى أن (طليعة المثقفين) هم الذين يقودون العمل والإنتاج والكفاح[٢] فى إطار الدولة القائمة.

وبمراجعة خطب الرئيس عبد الناصر وتصريحاته فى فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تأكد أكثر أن مفهومه للمثقفين لم يكن ليزيد على أنهم فئة فاعلة تضيف إلى قوة الدولة وقودا، وهو ما يفسر تعريفه للمثقف خاصة فى الفترة المبكرة من قيام ثورة ١٩٥٢.

وهنا تحدد مفهوم عبد الناصر للمثقفين.

كان المثقف عنده هو كل من يكدح ذهنيا ويعطى للمجتمع نتاج عقله وفكره سواء كان مهندسا فى الصحراء أو عالما فى الذرة أو عاملا نقابيا أو كاتبا أو طبيبا أو باحثا أو فنانا أو أستاذا أو طالبا. فهذه العناصر الكثيرة رغم الرابطة الوحيدة التى يمثلها وصف المثقف لا تمثل مظلة واحدة، لأن المثقفين - ضمن تحالف قوى الشعب العاملة - ليسوا طبقة وإنما هم على وجه الدقة قوة[٣].

وفى هذا الإطار، المثقفون هم القوة التابعة، نستطيع أن نتمهل عند كثير من صفات المثقفين. فالمثقف عنده ليس هو المتعلم، وإنما هو الأكثر وعيا وفاعلية بجانب الدولة. هو (المثقف الاجتماعى)[٤] و(المثقف الثورى) و (المثقف الملتزم) و (المثقف الطليعة) و (المثقف المحلل).[٥] ويتبلور المعنى أكثر فيضيف إلى المثقف والمتعلم ثنائية السلفى والتغريبى وثنائية البيروقراطى والثورى، ثم تتسع الدائرة أكثر لديه حين يشير فى أكثر من موضع إلى (المثقف الملتزم)، فيضيف إلى الوعى بقضايا المجتمع وعيا آخر على المستوى القومى والدولى.

ويتبلور المفهوم والدور أكثر فى الستينيات من القرن الماضى. فيراه قوة فى التحالف الشعبى، وفى نفس الوقت قوة فى فهم أصول السيادة الوطنية وتحقيق الوحدة العربية. ومن هنا فإن المثقف المتكامل عند عبد الناصر هو الذى يدرك حقائق الوحدة القومية والتطور الدولى بقدر إدراكه وفهمه لقضايا التنمية وإدارة المجتمع وطريقة مواجهة تناقضات مرحلة التحول[٦].

كان يقول إن المثقفين يمكن أن يتفرقوا فى مواقف ذاتية وطبقية، لكنه يستدرك دائما فى أكثر من مناسبة - إنه (يجمعهم دور طليعى فعال)[٧].

إنهم ليسوا طبقة خارج المجتمع أو متميزة فيه، وإنما هم ضمن تحالف قوى الشعب العاملة، إنهم ليسوا طبقة وإنما على وجه الدقة قوة.

ولنا أن نتوقف هنا طويلا لنتأمل فى لفظة (ضمن)، أى داخل تيار التغيير الثورى، وليس خارجه بأية حال. إن المثقف - بوضوح شديد - قوة (ضمن) قوى أخرى كبيرة يمثل حاصلها نموذج الدولة التى تحارب على جبهات شتى داخلية وخارجية. معنى هذا كله أن عبد الناصر انطلق فى موقفه من المثقفين من عدة ملاحظات:

- إن المثقفين يمثلون (قوة) ضمن التنظيم الشعبى (الوطنى) وليس خارجا عنه أو متخذا منه موقف المعارضة.
- إن المثقف هو الذى يدرك الوعى الاجتماعى وليس عبر (تنظيم) اجتماعى معاد.
- إن المثقفين هم أقرب إلى الوعى العربى الواسع منهم إلى الوعى الشعبى الضيق.
- إن المثقف لا ينتمى بالولاء لفرد وإنما لأطر الدولة وتنظيماتها.
- إن المثقف لا يقود الجماهير ضد القيادة وإنما هو (المثقف الثورى) أى الوسيط بين القيادة الحاكمة والجماهير الشعبية.
- إنه أقرب إلى المثقف (العضوى) - كما نعرفه عند «جرامشى» منه إلى المثقف (التقليدى).

ويجب أن نشدد هنا على القول إن عبد الناصر كان يؤثر أن يكون المثقفون (من شتى ألوان الطيف) كادرا واحدا داخل منظومة الكفاح الداخلى والخارجى، ومن ثم، فإن الطابع العملى لديهم كان يوجهه - من الناحية الأخرى - شيئا من التوجه المغاير بحكم تكوين المثقف ووعيه فى هذه الفترة.

كان المطلوب من المثقف فى هذه الفترة (الولاء) حين كانت قيادة عبد الناصر تحشد جميع القوى ضد الأخطار الداخلية والخارجية.

وكانت مواقف المثقفين من الفترة الليبرالية تتعدد بين عديد من المواقف والأنماط.

فى بداية الثورة بدا أن (التأييد) المطلق للمثقفين هو السائد فى العلاقة بين الثورة والمثقف، ولكن مع أزمة ١٩٥٤ تعددت المواقف، فأضيف إلى المثقف المؤيد - الذى بدا العديد من رموزه تتراجع - المثقف المتمرس والمتردد والموقف الصامت.

ومع توالى الأحداث وقرب النخبة السياسية من النخبة العسكرية، بدأت كثير من المواقف تتراجع وتتحول إلى أنماط مغايرة فى وقت كان النظام يحرص - لتأمين نظمه - على قيمة الولاء فى المقام الأول.

ولأن موقف الثورة توافق مع البعض فإنه تعارض مع البعض الآخر من المثقفين. ومن هنا كان علينا أن تشهد فترات متباينة فى التاريخ فى علاقة عبد الناصر مع المثقفين.

وهى فترات أخذت صور العلاقة بينهما شكل الصراع لضمان قيمة (الولاء) فى فترة توالى المخاطر على النظام المصرى ومحاولة النيل منه.

المشهد الأول: قضية الولاء

لا يمكن أن نتحدث عن علاقة عبد الناصر بالمثقفين دون أن نعثر - خاصة منذ بداية الخمسينيات من القرن الماضى - على نخبتين: العسكرية والثقافية.

الأولى نخبة قيادية والأخرى (تابعة) لها.

وقد كانت علاقة التبعية بينهما تستمد قيمتها من عنصر (الولاء) و (الأمن) السياسى.

ولأن الثورة كانت تريد تأمين نفسها فى السنوات الأولى، فقد كانت قضية الولاء - كما أسلفنا هى أهم القضايا التى أنجبت قضايا أخرى أهمها ما يسمى بأهل الثقة وأهل الخبرة[٨]. وبدهى أن التفضيل لأهل الثقة يعنى التضحية بأهل الكفاءة. ومن البدهى هنا أن الولاء كان يعنى مصطلحات كثيرة ترددت فى هذه الفترة، مثل (التعاون) أو (أهل الثقة) وهو ما يفهم معه أن النخبة من ذوى التوجه الفكرى مثلت قسما تابعا تم تجنيده من بيروقراطية الدولة على أساس مهنى وتمثيلى، وليس على أساس انتماء سياسى مستقل (أى انتماء حزبى مستقل). وعلاقته بالنخبة السياسية أو مؤهلاته الأولى كانت (الولاء). والذى يراجع هذه الفترة يلحظ

أنه فى حين بدا (التعاون) مرهونا ببدايات قيام الثورة لإبداء حسن النية، بدا أكثر صعوبة بعد أزمة ١٩٥٤ بوجه خاص ووصلت إلى قمتها مع حرب السويس فى ١٩٥٦، وهى الفترة التى تمخضت عن سمتين مهمتين:

- نهاية الفترة الليبرالية.
- تحول النظام إلى شرعية خاصة بعد انتهاء الحرب.

ومع تشديد يد السلطة العسكرية على النظام، بدا التشديد أكثر على قيمة (الولاء) وتفضيله، خاصة أن عبد الناصر وجد نفسه - على الأقل عقب أزمة ٥٤ - فى وسط معاد أو محافظ بالنسبة لخط العهد الجديد، وهو ما زاد الهوة بين العسكريين والمدنيين:

بين عبد الناصر - الذى أصبح الآن رئيسا متوجا بانتصاره فى حرب السويس - والمثقفين المعاديين للثورة فى جملتهم، خاصة أن الصراع من الناحية الأيديولوجية كان قد وصل إلى مناطق خطيرة مع عدد كبير من الليبراليين... الإخوان واليسار الماركسى. وهو ما انعكس فى إيثار العسكريين أكثر من المثقفين، وإيثار فئة التكنوقراط والكوادر الفنية أكثر من ذوى الاتجاه الإنسانى والسياسى.

وعبورا فوق مظاهر كثيرة لقيمة (الولاء) وأثرها سوف نتمهل عند بعض النماذج من المؤسسات لنرى إلى أين اتجه عبد الناصر فى تعامله مع المثقفين لحماية النظام. ويمكن تأكيد هذا العامل (الولاء) عبر إنجازه فى عدة نقاط دالة كالتالى:

- كان الولاء - كما أشرنا - الباعث الرئيسى، فباختيار المثقفين خاصة فى تشكيل الوزارات - وهو ما تأكد منذ أول تشكيل وزارى للثورة - يلاحظ أنه فى وزارة ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ثم تشكيلها من عدد سبق إنتماء بعضهم إلى الحزب الوطنى الجديد.

وكان الباعث الرئيسى أن هذا الحزب لم يشارك فى أى تنظيم سياسى قبل الثورة، كما لم يكن له أنصار تخيف الحكام الجدد. وكان يرأسه فتحى رضوان المثقف الذى تربطه بعبد الناصر علاقات وثيقة فضلا عن أنه شارك فيه إثنان من الإخوان المسلمين ممن كانا قد رشحا من المرشد العام دون العودة إلى مكتب الإرشاد.

- مع اختفاء المثقفين الذين ارتبطوا بأحزاب شعبية وأفكار يمكن أن تعادى النظام الجديد، يلاحظ أن معظم من تولوا الوزارة فى الخمسينيات من القرن الماضى (كما نلاحظ من الجدول) كانوا من المتخصصين وليسوا من السياسيين بأية حال أو ممن لم يمارسوا العمل السياسى قبل الثورة.

- وهنا يمكن أن نلاحظ أثر الاطراد المستمر فى التخصصات القانونية والإنسانية منذ عام ١٩٥٢ وكذلك الاطراد المستمر فى التخصصات التكنولوجية والعلوم. ويلاحظ دزكجميان هنا أن نسبة المثقفين من ذوى التخصصات الإنسانية انكمشت، فبعد أن كانت ١٨ر٨٪ فى سبتمبر انخفضت إلى حد التلاشى تماما عام ١٩٦٤(٩).

- كان هذا يعنى أن اختيار المثقفين فى المناصب الرسمية يخضع لتدقيق شديد. وعلى سبيل المثال، نجد أنه ممن تولى وزارة الثقافة والإرشاد القومى اثنين من المثقفين هما: فتحى رضوان وحسنين هيكل، وكانا ينتميان إلى النظام بصلة تعاطف بل وعلاقات وثيقة وحميمة مع عبد الناصر نفسه.

معنى هذا أن تأمين النظام كان أهم ما يهم جمال عبد الناصر فى تلك المرحلة لمواجهة أية مشاكل خارجية أو داخلية..

إنهم يقومون بدورهم، كما كان تصور عبد الناصر داخل التنظيم الرسمى، وليس ضده..

داخل التنظيم وليس ضده بأية حال؟؟

هذا يفسر إذن ابتعاد عبد الناصر عن المثقفين ممن لهم خلفية سياسية أو ممن كانوا يعملون فى المجال السياسى. ومن هنا، ظل الاعتماد على أولئك المثقفين من أصحاب الفكر المستقل والنخبة المدنية ممن لا يشكلون قاعدة عريضة مستقلة عن السلطة المركزية.

لقد بدا أن العلاقة بين عبد الناصر والتكنوقراط أكثر منها بين عبد الناصر والمثقفين الذين لا يرضوا عن قيم الانتماء للنظام والعمل فى ركابه.

وعلى هذا النحو، بدا الاعتماد أكثر على العسكريين إلى جانب استبداله بالمثقفين التقليديين نوعا آخر من التكنوقراط ممن يضمن ولاءهم فى المقام الأول - على الأقل - بالتحييد أو عدم

العمل بالسياسة التى تتعارض مع توجهات النظام، مما بدا معه أن وجود العسكريين فاق وجود المدنيين فى التشكيلات الوزارية بوجه خاص.

وهذا يعنى، فى السياق الأخير، ما سبق أن رددناه كثيرا فى الكتابات السابقة حول ذلك، من أن المعيار الوحيد – للوزراء – على سبيل المثال - كان يخضع فى المقام الأول لقيمة «الولاء السياسى»..

ومن هنا، كان من الطبيعى أن نلاحظ أن العدد الحقيقى للوزراء من المدنيين كان قليلا جدا؛ بل أقل من عددهم المثبت فى الجدول الخاص بالوزراء ومما جاء فى الإحصاءات الرسمية[١٠]. وهو ما وجدناه أيضا فى كثير من مؤسسات الدولة كالتنظيمات والجهاز التشريعى والنشاطات الاقتصادية ومجلس الوزراء والوزراء، بل وفى الصحافة أيضا.

ومع أن هذه النسبة تراجعت قليلا بعد هزيمة ١٩٦٧.. فإن النسبة التابعة للنظام المدينة بالولاء، التى لا تنتمى لأى تيار سياسى مستقل أو تتبع «تنظيما» سياسيا، مهما يكن تعاطفه مع النظام، وهو ما سنلتقى به أكثر حين نلتقى بعبد الناصر الذى دعا المثقفين – بوضوح وصراحة شديدين - إلى أن يبتعدوا عن أى تنظيم أو أى ولاء مغاير ليلعبوا دورا ايجابيا فى المقام الأول..

ويمكن أن نضيف هنا أنه فى التعامل مع المثقفين استخدم معهم أكثر من وسيلة:

إما رفض أى تنظيم معارض.

وإما محاولة استقطابهم بشرط الولاء أو السيطرة على مؤسساته ومجالسه النيابية لحمايتها من المعارضين..

وسوف نتوقف عند الجانب الأول: رفض أى تنظيم معارض وتطويعه..

لقد دعاهم – فى الغالب – كما سنرى من الشهادات التالية – ليقوموا بدور تبشيرى لتأكيد أفكارهم؛ خاصة التيار اليسارى.

المشهد الثانى: سان بيترز

كانت خشية عبد الناصر من أصحاب التنظيمات خارج «الإطار الرسمى» للدولة أكثر ما يجسد خوفه من العقائديين، وهو ما ظل يردده مرة بعد مرة.

وما كان يردده بالنسبة لجماعات الإخوان والمنتمين لهم ظل يردده بالنسبة للشيوعيين، إما بزجهم فى السجون أو إزاحتهم عن كافة المناصب. ومن شهادة لطاهر عبد الحكيم نجد أن عبد الناصر سعى إلى «إزاحة هؤلاء الشيوعيين، من كافة التشكيلات والتنظيمات والمؤسسات ذات الطابع الجماهيرى، فمن فصل ما يقرب من مائة من الصحفيين والشيوعيين والديموقراطيين من جريدة الجمهورية والمجلات التى تصدر عنها، إلى فصل الطلبة الشيوعيين والديموقراطيين من الجامعة إلى تحريم الوظائف العامة على الشيوعيين»[١١].

كانت سياسة الولاء لا تفيد فى التعامل مع الماركسيين كتنظيم أو إطار مؤسسى - على سبيل المثال - ومن ثم، فقد استخدم معهم سياسة عنيفة لأنهم كانوا عقائديين يسعون - فى رأيه - إلى النظام وليس إلى تغيير بعض الأفكار أو العمل تحت إمرة (الحكومة المصرية) فى هذا الوقت. وقد سجلت الفترة بين عامى ١٩٥٨-١٩٦٤ موقفا عنيفا من عبد الناصر ضد هذه الكوادر فى محاولة استمالتها إلى سياسة الولاء.

كانت هذه هى الفترة التى التقى فيها أنور السادات - بناء على تعليمات جمال عبد الناصر - عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٥٨ لإرغامه على حل الحزب الشيوعى المصرى. فى هذا اللقاء بين مندوب عبد الناصر بمندوب الشيوعيين المصريين قال أنور السادات لمحمود العالم بصراحة شديدة:

- عاملين تنظيم ليه؟

تنظيم يعنى سلطة، إحنا عملنا تنظيم الضباط الأحرار وأخدنا السلطة، أنتم تصرون على أن تبقوا بالحزب الشيوعى ليه وهو تنظيم، يعنى عايزين سلطة يا محمود.

وحين أبدى الأستاذ العالم رغبة شديدة فى التعاون مع النظام «محتفظين بمنبرنا المستقل»، رفض هذا النظام وتم القبض على جميع الكوادر السياسية.. الشيوعية والإخوان الذى تمت

محاولة قريبة الشبه بتلك فى فترة مبكرة من إنشاء هيئة التحرير، قد ظل النظام لسنوات بعدها - كما يقول طاهر عبد الحكيم - معاديا لفكرة وجود تنظيم سياسى مستقل عنه، ومن هنا، كان الضغط المستمر والمتصاعد من أجل حل الحزب الشيوعى المصرى(١٢).

كان من الواضح أن عبد الناصر حريص أشد الحرص على أن يكون المعارضون (تابعين) «للتنظيم الرسمى»، وأنه لا مجال هناك للصراع بين التنظيم الرسمى وأى تنظيم آخر - يسارى أو إسلامى - لقد اتخذ موقفا عنيفا من اليسار لأنه رفض حل الحزب والانضمام للاتحاد الاشتراكى واتخذ موقفا عنيفا من الإخوان لأنهم رفضوا - قبل ذلك - الانضمام لهيئة التحرير. لقد كان المثقفون فرادى - مهما عارضوا - غير خطيرين، أما حين يقومون بدور مناقض من داخل التنظيمات فهنا الخطر الذى يخشى منه عبد الناصر.

كان يدعو إلى الولاء ليتعامل مع المثقفين.

وهنا ثمة مفارقة تؤكد هذا، فكثير من المقبوض عليهم داخل السجون كانوا يعلنوا (الولاء) لعبد الناصر، لكنهم مع ذلك لم يفرج عنهم، أو - حتى - تحسن معاملتهم - يفسر هذا محمد سيد أحمد مندهشا:

- لأننا لم نكن ندين «بالولاء» لتنظيم عبد الناصر الرسمى أو لنظامه.

لقد كان عبد الناصر يريد منا - بوضوح شديد - حل التنظيم، الخطر المنظم المخيف كما كان يراه..)(١٣).

والغريب - حتى - بعد أن تم حل الحزب وخرجوا من السجن كانت الخشية منهم قائمة، كان عبد الناصر يؤثر أن يظلوا بعيدا عن العمل السياسى بأية حال، وهو ما ترجمه موقفه منهم بعد خروجهم حين لم يعمل منهم الكثير، كما لم ينضم منهم للتنظيم الرسمى الكثير.

كان الأمر لا يخلو من تخوف لدى النظام القائم.

وقد كان اللقاء الأخير الذى تم بين عبد الناصر والمثقفين فى عام ١٩٦٩ دافعا لتبرير هذا الموقف وداعيا إليه.

لقد استبدل عبد الناصر بمفهوم الولاء مفهوما مرادفا له فى المعنى مؤكدا له فى القيمة. ففى حين اشتكى فيه المثقفون اليساريون بأنه يجرى تمييز عنيف ضدهم فى الاتحاد الاشتراكى ليسقطوهم حين طلب منهم أن يظلوا بعيدا عن التأثير السياسى، ففى هذا اللقاء طلب عبد الناصر منهم الابتعاد عن العمل السياسى إلى التبشير بأفكارهم الاشتراكية وإن كان على طريقة القديس سان بيترز.

والمعروف أن سان بيترز قضى الجزء الأخير من حياته مبشرا بالمسيحية، مكتفيا بالتبشير دون اللجوء إلى التنظيم العقدى أو العنف بأية حال[١٤]، وربما كان عبد الناصر يرى أن دور سانت بيترز اقتصر على الصلب، ولما كان هو مؤسس الكنيسة الكاثوليكية الذى صلب فى روما بالفعل، فيبدو أن عبد الناصر - كما لاحظ لويس عوض طلب من الشيوعيين أن يلاقوا مصير هذا القديس الذى طلب منهم الصلب من أجل آلامهم[١٥].

ويضيف أحد الحاضرين حينئذ عبارة عبد الناصر بشكل أوضح من هذا، يقول أبو سيف يوسف إن عبد الناصر قال لهم:

- يجب أن تكونوا مثل سان بيترز، أى بشروا بالاشتراكية أى - بمعنى أدق - ابعدوا عن السلطة[١٦].

ويبدو أن عبد الناصر كان يريد تحقيق الاشتراكية بدءا من أول الستينيات من القرن العشرين، ولكن لم يكن ليريد أن يشاركه معه أولئك الذين يمكن أن يمثلوا خطرا على النظام. فحاول أن يحقق اشتراكية (بدون اشتراكيين)، أولئك الذين كانوا فى السجون إبان محاولات عبد الناصر الدءوب لتحقيق العدل الاجتماعى وتأكيد قيمة المثقف، ولكن داخل النظام لا خارجه.

إنه الولاء الذى يطالب به ثانية من أجل التفرغ، لم يكن يريد للتناقضات الداخلية أن تستنفد جهوده للمعارك الخارجية بأى ثمن.. وهناك سؤال طرح فى هذا اللقاء يحمل معنى دالا، فقد كان أول ما سأل عبد الناصر عنه فى هذا اللقاء، هذا السؤال:

- من تقدم للانتخابات النيابية هذه الفترة؟

استمع عبد الناصر طويلا لمن قال: نعم، غير أن أبو سيف يوسف قال وحده: لا، لم أتقدم للانتخابات.

فقال عبد الناصر بما يجب تسجيله لأهميته هنا:

- اللى اتقدموا غلطانين وأبو سيف صح..

- من حقكم أن تبشروا بالاشتراكية مثل القديس بطرس، لكن غير مسموح لكم أن تتقدموا أو تستندوا للجماهير ضدى.

ومهما يكن من درجة الاختلاف حول موقف عبد الناصر، فإن إيثاره لقيمة (الولاء) أو دعوته (للتبشير) هنا إنما كان وراءها مفهوم آخر، لا يمكن فهمه إلا فى عصر جمال عبد الناصر، وهو أن المعارك التى دخلتها مصر بقيادة عبد الناصر فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى كانت تحتاج إلى وحدة فى القصد، لم يكن هناك مكان - أى مكان - لإفرازات عقدية أو أيديولوجية - ولم يكن هناك وسيلة للتحدث عن الديمقراطية فى وقت كان ينبغى توحيد الجهود لمعركة شاملة.

التنوع أو الاختلاف هنا لن يفيد أمام عدو متحد لا يوزع الولاء فيه فى أكثر من مكان فى الجهة الرئيسية، ويبدو أن الاشتراكيين أنفسهم أدركوا هذا فى الفترة الأخيرة لوجود عبد الناصر بيننا.

وبقى أن نتنبه نحن - الآن - لهذا الدرس فى الصراع الدائر الذى يجب ألا يكون بيننا، ولكن بيننا وبين الغرب. وبعد، بقيت عدة إشارات لابد من العودة إليها:

- لم يكن عبد الناصر ليترك المثقفين المعادين له لتهديد النظام، وكما اتخذ مواقف عنيفة من بعض المثقفين الذين كانوا مستقلين، ولكن من ذوى الاتجاه السياسى المعارض (مثل إحسان عبد القدوس)، فإن موقفه كان أشد قسوة من أولئك الذين انتموا إلى تنظيمات عقدية أو اشتراكية وبوجه خاص من الماركسيين المنظمين..

كان عبد الناصر يرى أن النظام الجديد هو الذين يمثل (المثقف)، وعلى المثقف الواعى - وقد وضع تعريفات كثيرة له كما رأينا - أن ينضم إلى الحكومة القائمة التى يمكن أن تسمى حكومة

الثورة أو الحكومة المثقفة، وكثيرا ما ردد فى خطبه هذه العبارة الدالة «إن حكومة الثورة هى حكومة الأمة بطبقاتها جمعيا.

وهذا هو ما شكل (المرجعية) الفعلية لعبد الناصر فى تعامله مع المثقفين.

كان (الولاء) أهم ما يحرص عليه فى التعامل مع أولئك المثقفين..

- إن استخدام (الولاء) فى السنوات الأولى كان - بوجه خاص - لحماية النظام، وإن تداخلت معه عوامل أخرى فيما بعد، غير أن الحرص على النظام كان العامل الأول لحمايته من أعداء كثيرين، كانوا - فى أغلبهم، ينتمون إلى قوى منظمة فى الداخل والخارج.

كان يرى أن المعركة مع العملاء الداخليين أو الخارجيين إنما تستلزم التوحيد، وأيا كانت المسميات من إفرازات أيديولوجية أو معارضة، فإن العدو المتربص بنا يستوجب منا الحيطة، فلا نتوزع هنا وهناك بمسميات أو تيارات مختلفة، ومن ثم يكون (الاستقطاب) لمواجهة عدو شرس خطر أمامنا.

- إن عبد الناصر لم يكن ليعادى أحد على المستوى الفردى. وإنما كان يعادى أى مثقف ينتمى إلى مؤسسة (كالجامعة) أو تنظيمات (التنظيمات الإخوانية أو الماركسية) ممن يمكن أن يمثلوا خطرا على النظام.

ولدينا أمثلة لمثقفين عبروا عن آرائهم ضد النظام لم يتخذ ضدهم عبد الناصر أى إجراء. وعلى سبيل المثال كان العقاد يهاجم عبد الناصر فى بيته وجلساته الخاصة، وكان الحكيم قد كتب أكثر من مسرحية تهاجم النظام وهو ما فعله بشكل أكثر قسوة نجيب محفوظ.. إلخ.

- يرتبط بهذا أن النظام كان حريصا على ألا يستعين بمثقفين من ذوى الماضى السياسى المغاير أو السياسى المختلف لحماية النظام، والدليل على هذا أن التشكيلات الوزارية لم تضم غير كفاءات إدارية وتنفيذية عالية، من المثقفين الذين لا يحملون أى ماضٍ سياسى أو فكرى مستقل، وعدا كل من حلمى مراد وعبد العزيز كامل نلتقى بأسماء مثل عزيز صدقى وسيد مرعى وعبد العزيز حجازى وحين أخرج حلمى مراد من الوزارة جاء بدلا منه محمد حسنين هيكل.

وهو ما يبدو معه غلبة فئة التكنوقراط أكثر من المثقفين (المسيسين) أو من الشيوعيين أو أى من أعضاء التنظيمات السياسية المعادية سابقا رغم خروجهم من السجون.

كان (الولاء) فى بداية الخمسينيات من القرن الماضى هو أكثر ما حرص عليه عبد الناصر فى معركته فى الداخل والخارج، وهو ما يمكن أن نفسر به كثيرا من معاركه مع المثقفين بشكل فردى أو جماعى، سواء أطلقنا كلمة (الولاء) أو (التعاون) أو (التبشير).

كان الهدف الرئيسى مجابهة العدو بجبهة قوية متراصة.

هو الدرس الذى لم يستفد منه المثقفون الآن، حيث تتعدد مواقف المثقفين بين أنماط شتى ومن مرجعيات شتى حيث تحول عصر العولمة إلى مصطلحات وتوجهات شتى حيث نتعرف على مصطلحات جديدة مدمرة: كأن نتحدث عن مثقف السلام أو التطبيع أو ضرورة التمويل أو البحث عن حقوق الأقليات.. إلى غير ذلك(××).

وأمامنا الآن فى الوطن العربى. كما فى الغرب كله - نماذج حادة شتى لهذا التصنيف والتنميط الغادر المخيف.

هــوامش

(١) انظر مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، وهى ستة أجزاء صدرت عن وزارة الإرشاد القومى - الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة بدءا من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وإلى يناير ١٩٦٧ ثم استكمل مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام خطب عبد الناصر وأحاديثه وتصريحاته فى مجلدين تاليين بعنوان (وثائق عبد الناصر) تبدأ من يناير ١٩٦٧ حتى رحيله.

(٢) خطب الرئيس، القسم الأول من خطاب ألقى بالجامع الأزهر فى ٢٢ يوليو ١٩٥٤، ص ١٧٨ (٢) السابق، القسم الخامس خطاب ألقى فى وفد الجامعات العراقية فى ١٤ فبراير ١٩٥٦ ص ١٢٧ السابق ص ١٢٧.

(٣) وثائق عبد الناصر مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٦٨ انظر ص ص ٤٢١ - ٤٢٢، وهما مجلدان سنطلق على الأول منهما المجلد الأول والآخر المجلد الثانى.

(٤) فى أكثر من مكان راح عبد الناصر يفرق بين المثقف والمتعلم. فالمتعلم يمكن أن يكون أستاذا كبيرا فى أى فرع لكن لا أستطيع أن أطلق عليه لقب مثقف، فإن الفاصل الأول هنا هو أن يكون مثقفا اجتماعيا (.. لكن إذا أطلقنا تعبير المثقفين على كل المتعلمين يبقى تعبيرا بالنسبة لهذه العملية غلط).

انظر: الاجتماع الخامس لمباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا فى ٩ إبريل ١٩٦٣، القاهرة، الأهرام، أيضا يوجد تفصيل أكثر فى الخطاب الذى ألقاه بجامعة القاهرة لشرح بيان ٣٠ مارس فى ٢٥ إبريل ١٩٦٨.

(٥) وثائق عبد الناصر، المجلد الأول السابق ص ٤٢٢ وما بعده.

(٦) انظر فى هذا قاموس الناصرية دار المستقبل العربى ١٩٥٨ إعداد صلاح زكى.

(٧) ويضيف هنا (.. ولكنهم ليسوا طبقة تجمعهم مصلحة واحدة) ٢٧١ ليؤكد أن دورهم يفوق الطبقة إلى المجتمع كله، والملاحظ أن عبد الناصر كرر هذا فى كثير من خطبه التى عارض فيها المثقفين.

إنهم ليسوا طبقة بأية حال (كيلا يحدث الصراع بين طبقات) وليسوا (جماعة) خارج السرب (كيلا يزعموا أن مبادئهم اقبل أو أن رسالتهم أبعد) ثم إنهم ضمن تحالف قوى الشعب (كى يتميزوا ويتعالوا على الكفاح الدائب فى هذا الوقت).

(٨) انظر المزيد فى كتابنا: المثقفون وعبد الناصر دار غريب القاهرة الطبعة الثانية ٢٠٠٠ خاصة فصل (أهل الثقة وأهل الخبرة) من ص ٢٢٩.

(٩) Deckmejian. R. Egypt under Naser. New York University press 1971

PP.١٨٠ - ١٨٤.

(١٠) المثقفون وعبد الناصر، السابق ص ٢٥١ وللمزيد عن الصحفيين يمكن العود إلى ص ٢٥٢ المرجع السابق.

(١١) طاهر عبد الحكيم، الأقدام العارية، دار ابن خلدون بيروت، بدون ص ٣٧.

(١٢) يلاحظ أن ذلك كان ينطبق على كل التنظيمات - وليس الحزب الشيوعى فقط - فقط كان طاهر عبد الحكيم ينتمى إلى حزب آخر غير الحزب الذى انتمى إليه العالم.

(١٣) محض نقاش مع محمد سيد أحمد فى ١٩٨٦/٤/١٦.

(١٤) سان بيترز هو بطرس السول أو (سمعان بطرس) الذى كان من تلامذة السيد المسيح وأقربهم إليه، وتوجد الإشارات إليه فى الأناجيل الأربعة، وفى الإصحاحات الخمسة عشر الأولى من سفر الأعمال وفى الإصحاحين الأول والثانى من الرسالة إلى غلاطية، وفى رسالتى بطرس الأولى والثانية.

والذى يهمنا هنا أن بطرس الرسول بدا هادئا مبشرا فى الجزء الثانى من حياته بعد صباح يوم القيامة (دائرة المعارف الكتابية) دار الثقافة ج ٢ القاهرة من ص ١٥٢.

(١٥) المثقفون وعبد الناصر، المصدر السابق ص ٢٧٣.

أيضا انظر محضر نقاش مع د. لويس عوض ١١٤.

(١٦) محضر نقاش مع أبو سيف يوسف بمكتبه بالأهرام فى ١٩٨٧/١٠/١٦ (وقد يكون من المهم هنا أن عبد الناصر لم تكن لديه حساسية من الاشتراكية، فقد كان فى هذا الوقت قد بلور فكره إلى العدالة الاجتماعية بشكل أدهش الاشتراكيين أنفسهم بل إنه قال ردا على البعض بما يؤكد ذلك قائلا ليس عندى أية حساسية من الماركسيين، بينى وبينهم فقط العقيدة الدينية).

(١٧) للمزيد يمكن العودة إلى كتابنا (المثقف العربى والعولمة)، الهيئة العامة للكتاب، مهرجان القاهرة ٢٠٠٠، خاصة فصل (المثقفون العرب/ من نظام الدولة إلى عصر العولمة) حيث نتعرف فيه على أنماط كثيرة للمثقف بشكل بقرى الوعى لذاهب أن يكون فيه هذا المثقف فى عصر العولمة، ويثير الفارق بين المثقف فى عصر (الامبريالية) و (عصر العولمة).

وهذا هو الدرس الذى يجب أن ينتبه إليه المثقف العربى فى بداية القرن الحادى والعشرين.

الشهادات

الأخيرة ...

١

أبو سيف يوسف

منذ البداية يكشف أبو سيف يوسف تفاصيل العلاقة الملتبسة بين نظام يوليو، واليسار المصرى، وكيف كان عبد الناصر يريد من الاشتراكيين أن يلعبوا دورا محددا فى التبشير بالاشتراكية، شريطة عدم السعى للسلطة أو شغل أى مراكز مهمة فيها..

أبو سيف يوسف: عبد الناصر قال للمثقفين اليساريين «بشروا بالاشتراكية وابعدوا عن السلطة»:

«فشل الديمقراطيون فى صراعهم ضد مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٤ لعدم امتلاكهم صيغة ديمقراطية تخدم التغيير الاجتماعى».

وافقنا على حل التنظيمات الشيوعية من أجل توحيد القوى الاشتراكية ضد الرجعية والاستعمار. يرى المفكر والقيادى الماركسى أبو سيف يوسف، أن جمال عبد الناصر كان على معرفة عميقة بالاشتراكية، ولكنه كان يريد من الاشتراكيين أن يلعبوا دورا محددا لا يحيدون عنه، وهو أن يبشروا بالاشتراكية بدون أن يحاولوا السعى للسلطة أو شغل المراكز المهمة فيها.

ويرى أن العلاقة الملتبسة بين نظام يوليو واليسار كانت بسبب مشكلة الديمقراطية، واعترف بفشل المطالبين بالديمقراطية ذلك الوقت فى التوصل لصيغة

تربطها بالتغيير الاجتماعى، وهو ما أدى لقرار التنظيمات الشيوعية بحل نفسها والانخراط فى مؤسسات الثورة.

هذه مقتطفات من حوار معه تكشف جانبا من تاريخ اليسار المصرى وعلاقته بنظام ثورة يوليو.

من هو أبو سيف يوسف؟

- نشأت فى محافظة قنا من عائلة صعيدية تنتمى إلى الطبقة الوسطى، ولها أقارب فقراء من ناحية وكبار ملاك من ناحية أخرى. الدور الحاسم فى تكوينى لعبته دراستى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، فنما لدى الحس النقدى فى التعامل مع الأفكار والمعتقدات والموروثات، وهو ما أثر على انتمائى السياسى والاجتماعى فيما بعد.

كانت الحرب العالمية قد نشبت وأنا فى «التوجيهية» على أبواب الجامعة، وطرحت الحرب بقوة قضية الانتماء الأيديولوجى، وكانت هناك اختيارات رئيسية مثل الليبرالية والفاشية والاشتراكية، وكانت الاشتراكية هى الظاهرة الصاعدة. وساعد على ذلك أن خطوط التمايز الاجتماعى كانت حادة للغاية بين من يملكون ومن لا يملكون، وهو ما طرح القضية الاجتماعية بقوة.

كنت أول دفعتى، ومع ذلك لم أجد عملا، أعطيت دروسا للغة الفرنسية لأعيش، ثم عملت مدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الأورمان، وبعد عام عملت مصححا بإحدى الجرائد، ثم عملت بعد ذلك فى مجلة «الفجر الجديد».

فى أى الأماكن عملت بعد التخرج، وما هى أنشطتك فى تلك الفترة؟

- كنت سكرتيرا لتحرير مجلة «الفجر الجديد» وفى الوقت نفسه محررا لباب «مع العمال فى نضالهم». وكانت مجلة الفجر الجديد ودار القرن العشرين مؤسستين من المؤسسات العلنية لمنظمة سرية هى «الطبقة الشعبية للتحرر» التى عرفت بأسماء أخرى مثل «طبقة العمال» و«العمال والفلاحون»، وكان بعض أعضاء هذه المنظمة أعضاء مشاركين ومؤسسين فى لجنة نشر الثقافة الحديثة مع منظمة سرية أخرى هى «حركة تحرير الشعب».

هل نجح المثقفون فى صراعهم مع مجلس قيادة الثورة فى أزمة ١٩٥٤؟ ولماذا؟

- لم ينجح المثقفون المطالبون بالديمقراطية فى صراعهم ضد مجلس قيادة الثورة فى أزمة ١٩٥٤ لسبب جوهرى هو أن النظام السياسى القديم بأحزابه وشعاراته وأيديولوجيته الليبرالية الهشة كان قد انتهى عمره الافتراضي. وكان لابد أن يفسح الطريق، شاء أو لم يشأ، لنظام جديد فى ذلك الوقت. وعندما احتدمت الأزمة، كان اليسار متوزعا على منظمات عديدة. ولم يكن لدى المثقفين «الديمقراطيين» على اختلاف تياراتهم مشروع يوحد أو يرفع التناقض بين قضية التغيير الاجتماعى و «الصيغة الديمقراطية» التى تخدمها ولا تصادر عليها.

- على الرغم من كل المواقف والتضحيات البطولية والشجاعة لعديد من طلائع الماركسية، فإن جهودهم كانت تؤدى إلى الانحسار والتوقف أو التراجع، لأن أفكارهم لم تمثلها أوسع القطاعات الشعبية والوطنية، وما يمكن أن يقال عن مسئولية المثقفين المصريين فى الفترة من ٤٥ - ١٩٧٠ أنهم لم ينجحوا فى إطلاق حركة تنوير تجعل من إقامة مجتمع الحريات والحقوق السياسية والمدنية «مصيدة عقلانية» إن صح هذا التعبير - وذلك كما فعل غيرهم من قادة حركات الإصلاح الدينى والتنوير فى أوروبا منذ القرن السادس عشر وحتى القرنين الثامن عشر «فى فرنسا مثلاً» والتاسع عشر فى «روسيا القيصرية».

كان فى مقدمة أسباب تحولنا عام ١٩٥٥ إلى تأييد الثورة تزايد وضوح الاتجاه المعادى للإمبريالية فى صفوف قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢. وموقف ثورة يوليو من قضية السودان خاصة عندما أسست موقفها على الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب السودانى وتبنى ثورة يوليو الحياد الإيجابى وعدم الانحياز.

هل كان لعبد الناصر شروط للتعاون مع الماركسيين؟

- كان عبد الناصر مستعدا لأن يتعاون مع الماركسيين بشرط أن يلتزموا بدور معين لا يتجاوزونه، وهو أن يكونوا دعاة ومبشرين بالاشتراكية، على أن يبتعدوا عن لعبة التواجد فى مؤسسات السلطة المختلفة. إن هذا الرأى هو ما استنتجته شخصيا عقب لقاء جمال عبد الناصر مع أسرة تحرير مجلة الأهرام عندما زار الأهرام الجديدة بعد افتتاحها. إذا سألتنى عن أسباب حل اليسار لتنظيماته والمسألة كانت متعلقة بالمرحلة.. فى هذه الأثناء كنا مقتنعين جميعا أن هذه هى الطريقة الوحيدة ولا يوجد غيرها، لم تأتنا تعليمات من الخارج

كما يقال، أنت تعرف أن النظام نفسه اتصل بنا لحل التنظيم فرفضنا مناقشة أى كلام من هذا القبيل فى أول الأمر.. مرت سنة وخرجنا.

كنت فى الإسكندرية ثم الواحات مسجونا، حين ذهبت إلى الواحات أذكر ظللنا سنة قبل قرار الحل، لم يحدث أن أخذنا القرار داخل السجن، لم يكن هذا ممكنا، وفيما أعلمه أنا وفى إطار مجموعتى «الحزب الشيوعى المصرى» لم تعط أى أوامر.

موضوع الحل كان مطروحا داخل السجن فى عام ١٩٦٣، وربما قبل هذا، وما أعلمه على وجه اليقين وتأكدت منه بالفعل أن هذا رفض، رفضت مناقشة أى اقتراحات للحل قبل أن يفرج عن الشيوعيين، كنت أعلم أن الجميع تحت ضغط السجن.. لذلك ظللنا سنة نتناقش فى أخذ القرار.. لقد كنا ضد هيئات النظام.

ما هى الدوافع وراء قرار حل التنظيمات اليسارية؟

- أعتقد أنه كان فى مقدمة الدوافع وراء قرارنا بحل التنظيمات اليسارية والالتحاق بتنظيمات الثورة التوجه الاشتراكى لقيادة النظام، وتجديده المتزايد لفكرة أن الاشتراكية واحدة، ولكن الطرق إليها تتعدد.

وحجم الإنجازات التى تحققت: التصنيع والتأميمات واستمرار عبد الناصر فى النزول بالحد الأعلى لملكية الأرض الزراعية.

بالإضافة إلى الاعتقاد الذى ساد صفوفنا بأن القضية الأساسية هى وحدة القوى الاشتراكية فى مواجهة أخطر حلف كان يتجمع لضرب الثورة من الولايات المتحدة وإسرائيل والرجعية العربية وقوى اليمين فى الداخل. وإجمالا لا يوجد سبب وحيد دفع إلى حل التنظيمات الماركسية.

هل كان يعلم عبد الناصر من تعذيب اليساريين داخل السجون؟

- بالتأكيد كان عبد الناصر يعرف بتعذيب اليساريين داخل السجون وإن كان يجب أن نسرع بالقول إنه كان لا يعرف كل تفصيلاته.

كان يعرف مثلا أن اليسارى يقطع الأحجار ويضرب فى السجون وهناك أمر هام أحب أن أوضحه.. الدولة حين تقع تحت سلطة بيروقراطية.. وتعيش فى كذبة من أكاذيبها.. تبدو كجهاز لا قلب له، كل ما تنزل الأوامر تزيد درجة «أخذا بالأحوط».. لكن، لا أعتقد أن عبد الناصر قال موتوا «شهدى عطية» مثلا.. ليس إلى هذه الدرجة.

هذا ما أؤمن به.. كان العديد من المشرفين على التعذيب مرضى نفسيين.. كان عبد الناصر يعرف السيئ والحسن لكن ليس بالشكل الذى يقال عنه.

هل تدخل الخارج فى التأثير على قرارات عبد الناصر بخصوص الماركسيين؟

- لا أعتقد أن قرارات عبد الناصر تجاه الماركسيين ارتبطت بمؤثرات الخارج.. كانت القضية تتعلق فى الأساس الأول بالداخل.. كان عبد الناصر من أكثر الزعماء قدرة على مقاومة القوة الخارجية. فقط، كان يعرف أن هناك هامشا يستطيع فيه أن تكون له علاقة طيبة بطرف ما. أتذكر جيدا، حين جاء عبد الناصر إلى الأهرام قال للمثقفين اليساريين حين اشتكوا له أنه يجرى تمييز عنيف ضدهم فى الاتحاد الاشتراكى لإسقاطهم.. قال لهم عبد الناصر: أولا لأنهم خايفين منكم.. وثانيا، يجب أن تكونوا «كسانت بيترز»، أى بشروا بالاشتراكية، أى ابعدوا عن السعى إلى السلطة.. ابعدوا عن السلطة وبشروا بالاشتراكية. أذكر أيضا أنه حين سأله بعض المثقفين التقدميين أسئلة كثيرة قال بوضوح: ليس عندى أى حساسية من الماركسيين.. بينى وبينهم فقط العقيدة الدينية.

ما مدى حب عبد الناصر للقراءة؟

- كان عبد الناصر قارئا جيدا، حين نجلس معه تحس أنه ليس مجرد قارئ عادى وإنما قارئ متمرس، يعرف جيدا الاشتراكية، اقرأ - مثلا - محاضرة فى اللجنة الوحدوية تكتشف على الفور أن لديه دراية عالية عن الاشتراكية.

كان أول ما يقرؤه صباحا مجلة «الطليعة».. وعلى فكرة، لم يكن عبد الناصر يقرأ «الطليعة» ليعرف منها اليسار، كان عبد الناصر يعرف اليسار جيدا.

٢

محمد الغزالى

حين شرعت فى البدء فى أطروحتى لنيل الدكتوراه، كان لابد أن التقى بالشيخ محمد الغزالى فقد عاصر موضوع الدراسة - فترة عبد الناصر - وكان له أدوارا كثيرة فيها، وقد تحدثت إليه كثيرا، وسجلت عنه كثيرا فيما سميته «محضر نقاش» مع أبرز أقطاب التيار الدينى فى الخمسينيات من القرن الماضى.

ويعترف الشيخ محمد الغزالى بأن سبب اختلافه الرئيسى مع الإخوان كان تأييد الهضيبى المطلق للملك بعد أن كان منضما رسميا للجماعة فى الأربعينيات من القرن الماضى وتحديدا منذ عام ١٩٣٨، بعد حصوله على الثانوية العامة.

ويقول إنه كان عضوا نشطا على المستوى الدعوى فقط. لم يسمح لأحد أن يدفع به إلى التحالفات التى غرقوا فيها لزمن غير قليل، وكلفتهم الكثير من المبادئ والرجال. ويؤكد الغزالى أن ضباط يوليو بايعوا الإخوان المسلمين، وبعد تردد يقول إن الذى أخذ البيعة منهم الشيخ سيد سابق.

والستينيات من القرن الماضى..

وقد آثرت هنا أن أدون القليل من كثير مما استمعت إليه وسجلته للشيخ. آثرت أن تكون أسئلتى قصيرة، انتهيت إليها بعد قراءات كثيرة للشيخ وعنه وسبقها لقاءات أخرى به، وقد كانت هذه الأسئلة المدونة هنا قد أجريت بمنزله بالدقى فى «١٩٨٨/٥/٢٠».

قابلنى فى بشاشة، وقال مبتسما قبل أن نبدأ الحوار، وكأنه ناظر إلى بعيد:

- نحن مهزومون فى هذا العصر؟

ثم نظر إلى وكأنه يفيق ليقول وقد تغير صوته:

- نعم يا سيدى، فماذا تريد بعد ذلك؟

- «نحن» وليس الإسلام، المسلمون..!

- أوافق المسلمون وليس الإسلام، وأزيدك، لأننا - نحن المسلمين - أغلقنا باب الاجتهاد منذ قرابة ألف عام، وتركنا غيرنا ليقوموا بدورنا، لم نفهم روح القرآن فهزمنا.

أردت أن أغير دفة الحديث، فسألته ما سبب اعتقالكم فى جبل الطور عام ١٩٤٩؟

- بعد مقتل الشيخ حسن البنا مباشرة - رحمه الله - جمعت الحكومة القائمة فى ذلك الوقت كل الإخوان، كنت منتميا إلى الإخوان فى هذا الوقت، وألقت بهم جميعا فى السجن، ومن أهم أحداث هذه الفترة إننى وأنا داخل المعتقل عنيت بإلقاء عدة محاضرات على الإخوان وقمت، فيما بعد، بعد خروجى من السجن، بنشرها فى كتاب تحت عنوان «الإسلام والاستبداد السياسى».

كنت فى الأربعينيات من القرن العشرين منضما رسميا إلى الإخوان المسلمين، وأذكر أن تاريخ الانضمام رسميا إليهم كان عام ١٩٣٨، كنت قد حصلت على الثانوية العامة، والتقيت بالشيخ الإمام حسن البنا قبل ذلك بحوالى عام أو أكثر قليلاً.

فى عام ١٩٤٦ كان لى نشاط إخوانى بالفعل، لكن ما أذكره جيدا أنه لم يكن لى صلة بالتحالفات والجبهات. كنت عضوا نشطا على المستوى الدعوى فقط ولم أسمح لأحد أن يدفع بى إلى هذه التحالفات التى أغرق فيها الإخوان لزمن غير قليل، وكلفتهم الكثير من المبادئ والرجال. كنت واعيا جدا لطبيعة انتمائى الإخوانى حرصت أن يكون أولا وأخيرا على مستوى الفكر أما الفعل، فإننى لم أتورط فيه كثيرا، أو قل لم أتورط فيه قط فى هذه الفترة الزاهرة - الأربعينيات من القرن الماضى - من تاريخنا.

فلماذا يتردد كثيرا - قلت للشيخ الغزالى - أنك كنت من المؤيدين لجمال عبد الناصر حين قامت الثورة، وكان التأييد سافرا، حتى أن هناك شهود عيان يؤكدون أنك هتفت للثورة وزعيمها فى مؤتمر «مسجد شركس» الذى عقد تحديدا فى ٢ نوفمبر ١٩٥٤.

قال الشيخ وكأنه لم يفاجأ بالسؤال:

- شوف، قبل حادثة اغتيال عبد الناصر كان الإخوان يؤيدون الثورة، وعندما قامت الثورة اعتقد الناس أن وراءها الإخوان، أو أن الذين قاموا بها عناصر إخوانية فى الجيش. وللتاريخ أذكر ذلك، وأنا أحد شهود العيان أن جمال عبد الناصر ذهب بعد قيام الثورة إلى قبر الإمام حسن البنا.

كان الضباط مبايعين للإخوان المسلمين، وأذكر أن الذى أخذ البيعة منهم إما الشيخ سيد سابق أو الشيخ صالح عشماوي.

واعتقد اعتقادا جازما - بعد صمت - أنه الشيخ سيد سابق.

ما سبب الخلاف الذى قام - منذ البداية - بين الإخوان وعبد الناصر؟

أجاب: السبب الرئيسى أن جمال عبد الناصر بدا، وكأنه يريد الانفراد بالسلطة وحده والابتعاد عن فكر الإخوان بشكل نهائى.

كان الخلاف سياسيا: الحكم من يريد أن يحكم؟

وإن كان - الواقع يؤكد - أن الخلاف الدينى والسياسى كان سواء فى هذا الوقت. وإذا أردنا الاختصار، لقلنا إن جمال عبد الناصر أراد أن يحتكر السلطة وحده وكفى.

هل معنى هذا أن الإخوان لم يريدوا احتكار السلطة أيضا؟

صمت الشيخ الغزالى، فواصلت حديثى ما سبب اختيار الباقورى وزيرا فى ذلك الوقت والمعروف أنه كان من الإخوان، بل كان من مقربى الشيخ البنا؟

- اعفنى من الإجابة لعله خلاف بين الباقورى والإخوان فى الوسيلة أو لعلة.

فما السبب الحقيقى لخلافك ،أنت وصالح عشماوى وعبد العزيز جلال، مع الإخوان؟

- كنا نرى أن سير الإخوان بعد ذلك كان سيرا أعوج.

كان هذا الطريق الجديد بسبب تأييد الهضيبى المطلق للملك بعد رحيل البنا، وقد فصلت أسباب هذا الخلاف فى كتابى «من معارك الحق/ فى كفاحنا الإسلامى الحديث» وهو كتاب من الصعب أن تجده الآن لأسباب كثيرة.

وهنا نادى الشيخ الغزالى ابنه علاء، وطلب منه نسخة من هذا الكتاب، ثم استطرد بعدها. هذا هو السبب الحقيقى الموقف المخزى للهضيبى من الملك. وقد كان الهضيبى - رحمه الله لين العريكة، فضلا عن قرابته للأسرة المالكة - كما يقولون - من ناحية ما.

رفضنا أن نمضى فى هذا السياق، وآثرنا بعد عدة اجتماعات الانسحاب واتخاذ موقف محدد، لا يضر بالجماعة ولا يحسب علينا.

أردت أن أؤكد هذا السبب فليس أسلوب الإخوان فى العنف فقط هو الذى انتهى بى إلى هذا المصير، ولكن - أيضا - وربما قبله - موقف الهضيبى المتخاذل، وكنت قبلها بقليل دائم اللوم للجماعة وفى منازعات داخلية مع من يرى أن الإخوان يكسبون من مساندة الملك بدلا من الخروج عليه.

وكانت مهانة الدخول إلى الملك، لا يحتملها ضميرى، فرفضت الاستمرار.

أشياء كثيرة ترددها الوثائق الأمريكية عن مواقفك ومواقف الباقورى أو البهى الخولى وغيركم فى العلاقة بين شيوخ الإخوان وثورة ١٩٥٢؟

قاطعنى الشيخ الغزالى قائلا:

- ما يقال فى الوثائق الأمريكية، التى يكشف عنها الآن أو التى سيكشف عنها فيما بعد، ليس أكثر من كذب صريح، الوثائق الأمريكية يمكن أن تكون كاذبة، وأنا أوقن بهذا، بل أزيدك الأمريكان فى علاقاتهم بالإخوان أو بالجناح المعتدل من الإخوان - وأسمى نفسى منهم - هم من أكذب الناس.

فما موقفك من مؤسسات الثورة فيما بعد؟

- حين كانت تتاح لى الفرصة لأعمل فى أى منها لم أكن أمانع قط. وعلى سبيل المثال كان الاتحاد الاشتراكى قد أعلن عنه كهيئة سياسية لم أتردد فى الانتماء إليه ودخلت فيه. كانت هيئة التحرير قبل ذلك قد أعلنت ودعى الإخوان للدخول إليها ورفضوا، أما الاتحاد الاشتراكى - فعلى المستوى الشخصى - لم أرفضه.

نعم، اشتركت رسميا فى الاتحاد الاشتراكى ولكن منعت من الترقى فيه. اشتركت فى المؤتمر السنوى عام ١٩٦١ فى ذلك الوقت «كان يسمى بالمؤتمر الوطنى قبل اللجنة التحضيرية» ولكن لم يسند لى دور أكثر من الحديث أما الدور الفعال والصعود والفعالية فلم يسمح لى بذلك.

ما سبب دخولك السجن فى عام ١٩٦٥؟

- هذا أمر أعجب له كثيرا، ووجه العجب إننى اعتبرت خصما للثورة كيف؟ لا أعرف، فى ذلك الوقت - وهذا وجه الغرابة الأول - لم أكن من الإخوان. ففى الوقت الذى كان فيه الإخوان فى السجون كنت أنا خارجها لسنوات طويلة، وهناك تفسير آخر هو أن الثورة لم تجدنى إلى جانبها بصراحة ووضوح، أو لأن الثورة - وهذا هو الأرجح - كانت تريد الرجل الطيع أو «الإمعة» وأنا بطبيعتى لا أحسن هذا الدور، وهو دور لم يخلق لى، كان ذنبى إننى كنت مستقلا ليس مع هذا الجانب أو ذاك، وهذا أغضب العسكر فوجدت نفسى رهن الاعتقال.

يردد أكثر من مصدر أنك كنت - لسنوات - رقيبا على ما يكتبه سيد قطب فى السجن.. هل هذا صحيح؟

- بالفعل، كنت رقيبا دينيا، على المطبوعات التى تصدر فى بر مصر بشكل ما، على إننى فى هذه الأثناء - وأذكر هذا جيدا - عرضت على كلمة وحيدة مما كان يكتب سيد قطب أو بشكل أدق، ورقة وحيدة ولم يعرض على شيء آخر فيما بعد. ظللت لأربع سنوات لم يعرض على شيء آخر لسيد قطب، ولا أعرف هل كان فى السجن فى ذلك الوقت أم لا. وإذا أردت تحديدا أو تفصيلا أكثر فسوف أقول لك، لقد عرض على شيء كان قد كتبه فاعترضت عليه - حينئذ

عرضت على ورقة مكتوب عليها بخط سيد قطب «اقتله.. اقتله».. فاعترضت على ذلك وما يقال من إننى كنت رقيبا على سيد قطب أو على ما يكتبه، فإن ذلك يبدو شيئا مضحكا. لقد كنت رقيبا بشكل عام... هذا شيء لا أنكره ومن ذلك أنه عرض على – بالفعل – كتاب طه حسين « فى مرآة الإسلام» وقرأته بعناية، ورفضت بعض ما فيه حتى حذفه طه حسين بالفعل. ونشر الكتاب بعد ذلك، لا أقول ذلك تباهيا، لكن لأقر حقيقة، كنت رقيبا عاما، ليس رقيبا خاصا على سيد قطب.

أما أن يقال إننى عينت خصيصا رقيبا على سيد قطب، فإن ذلك يبدو مضحكا أو هو – بشكل أدق – لون من ألوان الكذب.



أحمد بهاء الدين

لا تزال ذكرى (يوليو ١٩٥٢) تحتاج إلى (شهادة) المثقفين، ولا يمكن أن يأتى يوليو من كل عام إلا ونتذكر معه ثورة ١٩٥٢ فى مصر، ولا يمكن أن يأتى شهر الثورة دون أن نتذكر أحمد بهاء الدين. فهذا المثقف كان مثال المثقف النزيه، اتفق مع الثورة فأيدها فى الحقبة الناصرية، واختلف معها فأعلن هذا الخلاف وبالأخص عقب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة حين بدا أن المد النضالى للثورة ينحسر بعد صيد (الزعيم) فى شبكة المؤامرات الخارجية، وبعد إشعال نيران الغضب الداخلى مع ثورة الطلاب ومحاكمة المسئولين عن الهزيمة، والتعامل مع الصحفيين والمثقفين إلى غير ذلك.

مازالت ذكرى ثورة يوليو تأتى فى كل عام، ومازالت شهادة بهاء تؤيد وتدين وتعارض لكنها لا تخطئ أبدا.

ويسهب أحمد بهاء الدين حول اختلافه مع الثورة عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ وكيف رفض عبد الناصر اعتقاله قائلا: «هو كده.. دماغه كده»، كما يكشف كيف سعى اليمينيون للالتصاق برجال الثورة، وإبعاد كل من يسعى إلى الحرية عن الناس، ووصفهم بالشيوعيين، ويعترف بأن الرؤية التى بنى اليسار المصرى عليها بيان ٦٨ كانت قاصرة، وكان عبد الناصر على حق.

.. ساد الصمت وأنا أسجل «شهادة» أحمد بهاء الدين.. بعد أن أمطرته بعدة تساؤلات :

هل كتبت بعض خطب عبد الناصر؟

- لا، لم يحدث.

هل كان وضع (تصور المعمل الوطنى) الذى أنجب الميثاق هو نتاج تكليف من عبد الناصر؟

- كل ما أذكره فى هذه الفترة أن عبد الناصر كلف عددا من أقرب الناس إليه بأن يتصلوا بالأسماء التى تم اختيارها لهذه المهمة، واتصل بى وقتها كمال الدين حسين وكان مسئولا عن الاتحاد الاشتراكى القومى. واستدعانى، وأخبرنى بأن القيادة السياسية تعتز بانتسابنا إليها للعمل، وكان معى إحسان عبد القدوس، وكمال الحناوى، وتقابلنا نحن الثلاثة مع كمال الدين حسين أكثر من مرة، وكان يتم طرح قضايا سياسية علينا ونتناقش حولها، وكانت أول مرة أتعرف فيها على أحد السياسيين المشتغلين فى النظام بشكل مباشر.

فى بيت عبد الحكيم

تم استدعائى إلى بيت عبد الحكيم عامر، وكانت المرة الثانية التى ألتقى فيها مسئولا سياسيا كبيرا على هذا المستوى.

وجدت عددا كبيرا من الناس، أذكر منهم شقيقه حسن عامر، والسيد عباس رضوان، والسيد كمال رفعت، وكان أهم ما فعله المشير - حينئذ - أن طرح على - مع الحاضرين هذه القضية والتى تتلخص فى أنهم بصدد إعداد ميثاق، وطلب من كل منا أن يتصل بالآخر. تركنا عبد الحكيم عامر مع بعض النقاط أو الملاحظات التى عرضها علينا، ظللنا نتناقش لساعات طويلة إلى ما بعد منتصف الليل، وتكرر استدعاء عبد الحكيم عامر (آه، أتذكر، لم يكن مشيرا بعد).

كنت أحيانا أجده بمفرده، وأحيانا أجده معه شقيقه حسن عامر (كمستمع أكثر منه مشاركا). كان عبد الحكيم يعيد معى مناقشة بعض القضايا التى سبق أن طرحناها المرة السابقة، وكان أحيانا يطرح أسئلة أخرى، ليعيد النظر فيها خلال النقاش الطويل.

حكاية الـ ٥٠٪

وكنت كثير الكلام وكثير الاقتراحات، لكننى لا أستطيع أن أذكر الآن ما اقترحته ولكن (يصمت قليلا ، ليقول فجأة).

- أذكر إننى سمعت لأول مرة هناك فكرة الـ٥٠٪ من المجالس الشعبية للعمال والفلاحين، وهو موضوع استغرقت فى نقاشه فترات طويلة، لأنها كانت غريبة تماما على، اندهشت وسألت عبد الحكيم عامر: فما هى الحكمة فى تخصيص هذه النسبة الكبيرة للعمال والفلاحين؟

أجاب: لأن الثورة ها تخلص فى يوم من الأيام، وها تبقى فيه انتخابات عادية.. إلخ، فما هو الضمان - يضيف عبد الحكيم عامر - إلا أن يأتى برلمان خارج الثورة وممثليها، انتظرت أكثر لأفهم ما يريد عبد الحكيم عامر، عاد صوته إلى عاليا:

يعنى لو جرت انتخابات بالقوى الانتخابية المعروفة فى البلد التى تريد الثورة تغييرها من زمن، يستطيع إذن أن يأتى برلمان جديد، ولا يلغى الإصلاح الزراعى، لكن، مع مرور الوقت، وإذا لم تكن هذه النسبة الكبيرة للعمال والفلاحين الذين يمثلون الثورة موجودة، وهم أصحاب المصالح الحقيقية إذا لم تكن موجودة من يضمن ألا تلغى قوانين الثورة الاجتماعية.

إن الضمان للثورة وممثليها من العمال والفلاحين أن تكون هناك نسبة كبيرة منهم، فهم فقط المستفيدون من قوانين الثورة الاجتماعية.

فى هذا الوقت نستطيع الحفاظ على الثورة الاجتماعية بدون حصار.

فماذا كان موقفك من هذا الاقتراح؟

أجاب أحمد بهاء:

- بصراحة إننى عارضت هذا الاقتراح بشدة حينئذ. وهو ما أخذ منا عدة جلسات طويلة وساخنة، بصراحة أكثر، تشككت فى دوافعهم، وقلت هذا بوضوح لعبد الحكيم قلت بالحرف الواحد (لا تؤاخذنى، عندى أكثر من رد فعل مبدئى، بصراحة، إن العمال والفلاحين ليسوا

مهيئين لذلك، ليكونوا أعضاء فى المجالس التشريعية، وبصراحة أكثر، أن القابلين للرد والمناقشة، والفهم هم الذين على درجة من التعليم، ومن الثقة بالنفس، والاستقلال.. إلخ).

كرباج المثقفين

وتستطيع أى حكومة أخرى أن تأتي - ومازلت أمسك الخيط السابق لمناقشتنا - وتحشد ما تشاء من العمال والفلاحين، فإن ذلك لن يكون فى صالح الثورة، إن هؤلاء سيستخدمون ككرباج على ظهور المثقفين.

وأذكر إننى ضربت أمثلة كثيرة، منها على سبيل المثال:

كيف أرى أى واحد ديماجوجى - مع أحسن النوايا - يقف فيخطب فى مجموعة من العمال والفلاحين - وإحنا شوفنا ده لسنوات فى الاتحاد القومى قبل ذلك - فيستطيع أن يجرهم إلى مواقف صعبة.

على أى حال تجادلنا فى هذا الموضوع كثيرا ولم يشعرنى عبد الحكيم عامر أن هذا القرار نهائى وعلى المستوى الشخصى، فأنا لم أصدق أن يتحول هذا إلى حقيقة، أن يصبح للعمال والفلاحين سلطة تصل إلى نصف المقاعد (٥٠٪) لم أصدق أن هذا يمكن أن يحدث أبدا، لكن عندما ألقى الرئيس جمال عبد الناصر قراره انتهى كل شىء.

عودة إلى الميثاق

لقد اتخذ النظام قراره أن تكون هذه النسبة للعمال والفلاحين.. نعود لكتابة الميثاق، ودورك فيه!!

أتصور أن الطريقة التى كتب بها الميثاق كانت طريقة تسبقها قناعات محددة أعرف وقتها أن الرئيس طلب من أعضاء مجلس الثورة أن يتصلوا بعدد من المثقفين فى مصر، وأستطيع القول أن من أسهم فى كتابة الميثاق ومن صنع أفكار الميثاق قبل صياغته قرابة خمسمائة مثقف مصرى، كل مثقف قال رأيه كتابة أو شفاهة، فى مجلس عام أو فى مكان مغلق، فى تقرير مكتوب أو بشكل شفاهى.

وقد كانت هذه أول مرة احتك فيها بالمشير، وأشهد أن مناقشاتنا كانت تتم بصراحة شديدة، ولم أكن أتردد فى قول ما أريده بصراحة، ووضوح شديدين، غير هياب ولا وجل حتى إننى أذكر فى إحدى المرات وقد كنت خارجا من منزل عبد الحكيم عامر أنى سمعت من يقول لى - واعتقد أنه شقيقه المشير حسن عامر.

- أنت مش خايف تتحدث بهذا الشكل؟

- قلت: إنه يسألنى وأقول رأيى بصراحة، وعلى هذه الصورة كتب الميثاق، فما كان يحدث معى، كان يحدث مع غيرى. كان توجه الرئيس عبد الناصر واضحا، سؤال المثقفين والسياسيين، فتجمعت لديه أفكارا كثيرة، وكتابات كثيرة انتقى منها عبد الناصر - فيما يبدو - ما يريد، ثم دفع بها فى نهاية الأمر إلى محمد حسنين هيكل ليكتبها فى صياغتها الأخيرة.

الثورة والمثقفون

إذن اهتمت الثورة بالمثقفين من أول مجيئها، ثم تعاملت - أكثر - مع العمال والفلاحين.. فما حكاية الثورة مع المثقفين كشاهد؟

- موضوع المثقفين مع الثورة طويل، حاولت الثورة الاتصال بالمثقفين، غير أنه كان هناك ما يحول دون ذلك.

صور المثقف!!

أنا - على سبيل المثال - كنت وقت قيام الثورة كاتبا فى «روز اليوسف» تعدى عمرى العشرين، ومعارفى محدودة بالنسبة لمجموعة الضباط الأحرار فمن هؤلاء الضباط؟ وماذا يريدون؟ وكيف يفكرون؟

أسئلة كثيرة لم تكن إجاباتها لدى ولا يمكن لانسان أن يسلم قياده - بسهولة - لأناس لا يعرفهم، أو لا يعرف تاريخهم بشكل أدق. وكان الاستنتاج الأرجح - وهو استنتاج شائع فى ذلك الوقت - أنهم (كولونيلات) مثل أولئك الذين قاموا فى المنطقة ولعبوا أدوارا ما، من

أمثال حسنى الزعيم، الحناوى، الشيشكلى، إن هؤلاء الضباط يقومون فى الغالب - فى هذا الوقت - بانقلابات عسكرية.. الأكثر من هذا أن هؤلاء - كما قيل وردد فى حينه - جاءت بهم أمريكا.. إلى آخر هذه الشائعات أو الأقوال التى كانت تتردد من حين لآخر فى معرض التعرف على هؤلاء.

المهم أن هذا كله كان لا يخرج عن شكوك، وكانت هذه الشكوك فى حكم القائم والمحرك لأفكار المثقفين، فى الوقت الذى تحددت فيه صورة المثقف عند الضباط الأحرار من خلال عدد كبير من المثقفين السياسيين القدامى الوصوليين والانتهازيين واليمينيين. وكان أول من أبصر الثورة هم عنصر اليمين، وعدد من هؤلاء سعوا للالتصاق برجال الثورة والنفاق لهم وعمل ما يريدون معتقدين أنهم يستطيعون السيطرة عليهم ويستولون على أفكارهم.

رأى الضباط نفاقا، ووصولية، وتصفية حسابات واللوحة كانت قاتمة أمامهم بشكل عام كان الضباط الجدد مندهشين، يقولون ما هذا؟

هل هؤلاء هم المثقفون؟

وإذا كانوا كذلك، فماذا يفعلون؟

ولو رجعنا للسنوات الأولى للثورة قبل أن يتأكد الحديث عن الجانب الاجتماعى، سنجد أن أقطاب اليمين المصرى هم الذين كانوا يؤيدون الثورة، ونحن المثقفين، المسمين بالتقدميين على جميع ألوان الطيف فى التقدم كنا نحن الذين نطالب بالحرية، والحريات إلى آخر هذه القيم التى كنا قد تشربناها فى فترة سابقة، وكنا ننادى بها الآن كأننا نسأل أين مكان الثورة من هذه القيم؟

ولو عدنا لصحف هذه الفترة سنجد مثل هذه المطالب.

فى الجانب الآخر كان اليمين (رجال الملك، وبعض السياسيين والمثقفين والصحفيين) الذين تصوروا أن الملك فشل فى قمع الحركة الوطنية وتلجيمها، وكانوا غير معترضين على النظام القديم عقائديا، إنما معترضون عليه من ناحية فشله وضعفه، ثم جاء الحكم العسكرى ليقبض

بيد من حديد، لقد وجدوا عبد الناصر قويا ووطنيا فأيدوه بكل شدة كانوا يقدمون البلاغات ويقولون عنا إننا شيوعيون.. إلخ، أنا مثلا غير شيوعى، الأكثر من هذا أنه ليست لى أى علاقة بالشيوعية، وهؤلاء كانوا أعداء الوفد الرسميين، وهم الذين أيدوا الثورة بما يملكون من هيبة سياسية وعلم ومكانة.

تقصد السنهورى وسليمان حافظ وغيرهما!

بالطبع، كل هؤلاء، ولا أريد تحديد أسماء معينة، كل هؤلاء كانوا يتصورون أن الثورة عسكرية، وبالفعل فقد جاءت - كما رأيناها فى ذلك الوقت - لتخيف الناس خاصة بعد إعدام خميس والبكرى.

وإذن، لأكون صادقا ودقيقا، فالثورة التف حولها منذ قيامها المثقفون، وهؤلاء المثقفون هم الذين انقلبوا عندما غيرت مسارها.

متى بالضبط؟

- بالضبط، منذ باندونج وعدم الانحياز وتيتو.. إلخ، هذا هو الوقت الذى حدث فيه التحول غير أن هناك كان فريق - وأنا منهم - كانوا معارضين للثورة.

.. لنعد مرة أخرى إلى قضية تفضيل الفلاحين أكثر!!

فكرة المثقفين

إنها لم تكن عملية تفضيل، إن فكرة المثقفين هى دائما فكرة هلامية، وتعريف المثقفين يختلف دائما، التقدميون، اليمينيون.. إلخ.

فى حين أن كلمة المثقفين تشمل كل هؤلاء المثقفين الداعين للقضايا العامة، المثقف إشكاليته أنه ليس مشغولا بنفسه دائما، إنه يمكن أن يكون مشغولا دائما ببلده وقضاياه.

إن همومه تشمل أفكارا وآراء كثيرة.

وأستطيع من هنا القول إنه فى أول الثورة كانت كلمة المثقفين - أو مفهومها - هلامية جدا فيما صدمت الثورة بالطبقة الجديدة وسلوكها وأحلامها.

(لاحظ أن قائد الثورة كان عمره ٣٤ سنة فى حين كان فى السياسيين من يزيد على ٦٠ سنة) وهى لم تعقد اتفاقا دائما حتى مع الذين اتفقت معهم.

لقد وجد أصحاب الثورة أن المخرج لكى لا يسقطوا فى عدم الفهم أن يبتعدوا عن المثقفين، ولكنها اهتمت فى فترة تالية بهؤلاء المثقفين من الفنيين وأساتذة الجامعات.

قبل الثورة كان تاريخ الاشتغال بالسياسة (الوزارات) يكون من السياسيين من (كبار الملاك، وملاك الأراضى بوجه خاص، والمحامين).

لكن لأول مرة نجد وزارة كلها أساتذة جامعة وتخصصات مختلفة (القيسوني/ مصطفى خليل/ حجازى.. إلخ).

الثورة اختارت هذا النوع من المثقفين، وهم غير مسيسين، وفى الوقت نفسه تتوافر فيهم الكفاءة، والتمييز، وأيضا مستقلون، ومتقبلون للعمل مع النظام بأريحية.

على أن المهم هنا، أن الثورة، كان يقودها عبد الناصر ذو الاهتمامات الاجتماعية المبكرة، وكان يرى أن هناك من المستحقين للعدالة، وهى الفئة التى لابد أن يرفع عنها الظلم، هذه الفئة هم هؤلاء الفلاحون والعمال.

هدف المنظمات

هل كانت المنظمات السياسية تستقطب فى الأصل المثقفين؟

هذا صحيح، لكننا جميعا لم نكن نتقبل هذا الشيء بحماسة شديدة، كنت متحمسا تماما للتنظيم الشعبى فقط (لا الحزبى). وهناك فارق كبير بين هذا وذاك، فالحزب يختار أعضاءه (من خلال من له مذهب أو فكر ثم يعقد له اختبار.. إلخ). لكن حين نقول إن كل من له الحق فى أن يدخل الحزب فليدخله من المواطنين فعندئذ لا يصبح حزبا، بل تنظيم شعبى يعلن أنه يعمل لكل الناس.

وقد أعلن فى ذلك الوقت أن ٦ ملايين كتبوا استمارات للاتحاد القومى فى يوم واحد، تصور. أنا على المستوى الشخصى، قلت إن هذا غير صحيح، كيف يكون ثلث المواطنين أعضاء، وكان عدد السكان وقتها ٢٠ مليونا فطريقة التكوين غير صحيحة.

كان المثقف أمام هذا أحيانا ما يتحمس ليقوم بدوره وأحيانا يجد صوته ضائعا وسط الزحام.

المثقف اكتشف أنه لا يجب أن يتحمس بشكل شخصى، لكن أصحاب التنظيمات كانوا يحسبون أن المثقفين سوف يدخلون جميعا هذا التنظيم، رغم ما فى هذا من محاذير كثيرة.

كنت أجد عنصرا أو أكثر فى هذه الخلية أو تلك من هذا التنظيم من ذوى الأصول العسكرية، أو من تنظيم الضباط الأحرار القائمين أو الموجودين، لم أكن أغضب، كنت أجد عذرا لهؤلاء العسكريين، كنت أردد فى نفسى دائما، إن هذا رجل سياسى أسهم فى قيام الثورة غير أن الذى رأيته كان شيئا آخر تماما، إن من تعلق بالثورة أو انتمى إليها من غير أبنائها أصبحت فئة كبيرة لم يكن للكثيرين أى علاقة بالثورة، ومع ذلك كانوا يمتلكون ويتحدثون باسم الثورة كانوا من فئة أخرى مما كان يصعب التعامل معهم.

فماذا عن «استقطاب» المثقفين فى مثل هذه التنظيمات بشكل أكثر دقة؟

- الاستقطاب هنا شيء نسبى «يعنى لما أوعدك أن تكون عضوا فى لجنة من لجان الاتحاد الاشتراكى - على سبيل المثال - والله عايز تبقى أبقى.. لكن لم أفرض عليك هذا».

كان هناك من يقبل، أو يقبل الاستقطاب بمعنى أدق وكان هناك فى المقابل من كان يرفض، ولذلك فإن المثقفين مسئولون - إلى حد كبير - عن استقطابهم أو السيطرة عليهم - أو العكس، أنا على المستوى الشخصى كنت أحتج وأصطدم وأخرج وأختلف.. إلخ.

فى التنظيم الطليعى

لقد دعيت فجأة - مع غيرى - إلى أعلى مستوى وبشكل مفاجئ، بالطبع كنت ممتنا لهذه الدعوة، وخاصة أنا لم أكن أبدا فى دهاليز السلطة، وأذكر أنه بعد عدة اجتماعات تم استبعاد

ثلاثة ممن كانوا يحضرون بشكل مستمر هذه الاجتماعات، وكانوا من أكبر الشخصيات فى ذلك الوقت. وبصراحة كنت أنا منهم، سألت نفسى هل نقدى العنيف كان السبب، قيل لنا إن التنظيم سيصبح - عددياً - أصغر كثيرا مما كان، قيل لنا أن التنظيم سيأخذ شكلا أكثر أهمية. أتذكر اللقاء الأخير وكان فى مجلس الوزراء، وعرضت علينا لطرح آرائنا والحديث عنها، تكلم ثلاثة بوضوح أكثر وصراحة أكثر - كنت أنا من بينهم - (الآخران كانا: إبراهيم الشربينى وفتحى فودة، وكان هذا الأخير نقيب عمال البنوك).

وأشهد لفتحى بشجاعة منقطعة النظير، لقد قال مثل ما قلنا بصراحة ووضوح وشجاعة أيضا، وبالصدفة كانت آراؤنا تتفق فى هذا الاجتماع دون تنسيق مسبق. فماذا كانت النتيجة؟ لقد تم استبعادنا ولم تتم دعوتنا مرة أخرى، ولم نهتم بعد ذلك بالتنظيم.

قصة بيان ١٩٦٨

لماذا لم يقبض عليك بعد أحداث ١٩٦٨ على أثر بيان نقابة الصحفيين ووشاية سامى شرف بك؟

- لم أكن عضوا فى تنظيم ولكن لى رأى فقط، وكان يقبض دائما على من ينتمى إلى أى تنظيم أو خلية، وأعتقد أن الثورة وعبد الناصر تحديدا لم تكن لديه مشكلة إزاء إبداء الرأى، وأستطيع أن أشهد بأنه لم يكن يتم القبض على صحفى بسبب رأيه بل كان يتم القبض على الخلية التنظيمية مثلا. وهنا أستطيع - لإكمال هذه الإجابة - أن أشير إلى حكاية خاصة.

لقد كان الصديق الشخصى لجمال عبد الناصر هو سامى الدروبى، وكان سفير سوريا فى يوغوسلافيا بعد الانفصال، وكان عبد الناصر ذاهبا إلى يوغوسلافيا، ففوجئ بأن سامى يهتف هناك بصوت عال باسم عبد الناصر، لقد هتف هكذا:

يحيا جمال عبد الناصر

سأل عبد الناصر فى استغراب:

من هذا؟

جاء صوت المسئول اليوغوسلافى:

هذا سيادة السفير السورى، أخذه عبد الناصر بالحضن، فقد كان سامى الدروبى ناصريا خالصا، وكثيرا ما أعلن ولاءه لعبد الناصر وفى كل مكان حتى بعد الانفصال.

عبد الناصر يغضب

المهم هنا، أن عبد الناصر، فى لقاء مع سامى الدروبى بعد انتهاء أزمة بيان نقابة الصحفيين واتخاذى موقفا متشددا، التفت إلى صديقه الدروبى وقال له بالحرف الواحد:

أنا مكنتش متوقع من صاحبك بهاء يعمل كده. سأله سامى الدروبي:

سيادة الرئيس، ماذا فعل بهاء؟

قال جمال عبد الناصر:

البيان اللى طلعه، كان طعنة خنجر فى ليلة مظلمة. قال سامى الدروبى لعبد الناصر:

بهاء لا يعمل كده.

وانتظر ليسمع عبد الناصر

حكى له عبد الناصر ملابسات الموضوع، واختتم كلامه قائلا للسفير السورى:

إحنا كلمنا كل النقابات ألا يعملوا اضطرابات ومع ذلك، فإنه راح يصدر بيانا عنيفا.

انبرى الدروبى مدافعا بحكم صداقته لى أيضا.

إن البيان بكل ما جاء فيه صدر بعد ذلك فى بيان ٣٠ مارس.

أجاب عبد الناصر بسرعة وعتاب:

هو ما كنش عارف اللى إحنا عارفينه، كانت الدولة تنظر إلى الحدث بمنطق آخر.

وأضاف عبد الناصر بحدة:

لقد كانت المظاهرات المستمرة، معناها أن تقع الثورة فى أيد أجنبية وكأن هذا كان يريد إسقاط نظام الحكم القائم، وكان معناه أيضا - يؤكد عبد الناصر وهو يضيف إلى الحدة الحزن:

إن الخلاف فى قمة السلطة معناه أن ينزل الجيش حتى يضغط كما يمكن أن يحدث ذلك بعد إصدار قرار بهذا، ويطلق النار فى المليان لقمع الفتنة، ده طلع البيان فى الليلة اللى كان الجيش فيه على وشك أن ينزل وينهى الفتنة، تصور.

وينتهى كلام عبد الناصر وأتذكر أنا - يعود بهاء الدين للشهادة - كان يمكن أن يحدث هذا - بالفعل - لولا أن عبد الناصر رفض هذه الفكرة، وذهب اليوم التالى إلى الشعب وألقى خطابه المعروف.

وأستطيع القول الآن أنه ثبت صحة ما قاله عبد الناصر، كان يمكن أن يحدث لكننا فى الوقت نفسه، كنا نتعامل بموقع ما نراه نحن.

كانت رؤيتنا قاصرة بالفعل

لقد قال جمال عبد الناصر هنا - بشهادة سامى الدروبى - فى هدوء:

فى هذا الوقت قدمت إلى مذكرة للقبض على أحمد بهاء الدين وأنا رفضت لقد قلت لهم إن البيان سيئ فى الوقت الذى نعيش فيه ويمكن أن يجرنا إلى مشكلات كثيرة، لكن إحنا عارفينه، هو رأيه كده، مخه كده.

هذا معناه إننى لم اتعاون مع أحد أو أن هناك شبهة فى ذلك، فى هذا اللقاء بين عبد الناصر والدروبى سأله الدروبى أن يبلغنى هذه الحكاية فقال عبد الناصر له:

طبعا قلت لك لتقول له، لتبلغه إزاى يعمل كده فى الليلة دى.

بالطبع - يقول أحمد بهاء الدين - لم يكن فى ذهنى شىء قط من هذا.

٤

فتحي رضوان

جاءت شهادة المفكر والكاتب فتحي رضوان هنا لتكشف جانبا آخر لصراع المثقفين والسلطة. فالشاهد أول وزير ثقافة فى حكومات ما بعد الثورة، فضلا عن كونه أحد أبرز أعضاء الحزب الوطنى الجديد وحزب مصر الفتاة. وفى شهادته يكشف فتحى رضوان عن علاقة مختلفة جمعت بين أحمد حسين، الأب الروحى لمصر الفتاة وعبد الناصر، وكيف أثرت شخصية مؤسس الحزب على الزعيم الشاب. ويرصد فتحى فى شهادته علاقة الثورة بالمثقفين من خارج اليسار والوفد الذين كتب لبعضهم أن يشاركوا فى تأسيس النظام الجمهورى فيما بعد.

نصمت ونتأمل فى شهادة الرجل.

من هو فتحى رضوان؟

اعتقلت على خلفية «حريق القاهرة»، ولم توجه لى تهمة واحدة حتى أفرجت عنى الثورة.

ولد فتحى رضوان فى ١٤ مايو ١٩١١ بالمنيا لأسرة متوسطة. تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بالقاهرة حيث انتقلت الأسرة. بعدها انخرط فتحى فى الحياة السياسية فساهم فى إنشاء حزب مصر الفتاة مع أحمد حسين ثم دعا لتكوين «الحزب الوطنى» على مبادئ مؤسسه الأول مصطفى كامل. اعتقل فتحى رضوان كثيرا على يد القصر والإنجليز حتى أفرجت عنه أول حكومة بعد قيام الثورة. وشارك فيها كوزير ثقافة.

فى حقبة السادات كان صوت فتحى رضوان من أكثر الأصوات التى أزعجت الحكومة. فاعتقله السادات مع مجموعة من أبرز شخصيات مصر من جميع التيارات السياسية فى سبتمبر ١٩٨١. ثم أفرج عنه ليتوفى فى ٢ أكتوبر ١٩٨٢ ويدفن بجوار مصطفى كامل.

لماذا خرجت من السجن صبيحة قيام ثورة ١٩٥٢؟

- أنا أخذت حكمين قبل تأليف وزارة على ماهر بالإفراج عنى بعد القبض على عقب حوادث حريق القاهرة، رغم أنه لم ينسب إلى أى تهمة فى هذا الحريق، ولا - حتى - أى اشتباه وراء ما حدث.

يقال إن إخراجك من السجن يعود إلى أنك تتعاون مع على ماهر لإسقاط الوفد؟

- لقد كان على ماهر متعاونا مع الوفد، فلا يعقل أن أخرج لأشتغل مع الوفد ضد على ماهر، هذا كلام متناقض تماماً. لأن على ماهر حين قامت الثورة وأسندت إليه رئاسة الوزارة، كان الملك قد طلب منه حل البرلمان الوفدى، وكان على ماهر يسوف فى هذا، كان يريد أن يحدث تصادم بين الوزارة والملك.. ورفض، فكانت النتيجة أن أقيل من الوزارة وجىء بالهلالى، فليس على ماهر بصاحب رسالة ضد الوفد حتى يفرج عنى لأعمل ضد الوفد.

ولماذا أنت بالذات الذى دعوت لإنشاء وزارة للدعاية فى وزارة جمال عبد الناصر؟

- إننى أعتبر أن أهم عنصر فى حياة البشر جميعا، أهم عنصر من أجل العمل والتغيير، هو عنصر الدعاية.

هذا الدرس مستفاد من العصور التاريخية، كما هو فى العصر الحديث..أن كل الأفكار تسكن فى الكتب دار الفلاسفة، غير أنها لا تصبح ذات أهمية إلا حين تتصل بالجماهير، فهذا الاتصال هو الذى يغير الحياة الإنسانية قاطبة.

ويما إننا كنا نتصور أنفسنا - بعد ثورة يوليو - بأننا دعاة تغيير، وأن الوضع السيئ فى بلادنا يحزننا ويسيئنا ونريد تغييرا شاملا، فكان لابد من دعاية، لذلك، رأيت أن تكون هناك وزارة

دعاية. وكنت أتمنى أن أفعل فيها أضعاف ما فعلته بالفعل، فقد كانت الثورة أول قيامها تحتاج التوعية وتحتاج منا اليقظة والتحرك الإيجابى دائما.

ما سر تحمسك الشديد لسليمان حافظ كى يكون فى مجلس الوصاية؟

- إن سليمان حافظ شخصية مهمة وعجيبة، فهو شخص دائم القوة والعزم، وهو شخص هادئ، بكامل الهدوء والرزانة، وقد اشتغل فى الحركة الوطنية بصمت حتى توفاه الله. فقد كان دائما مع الشباب الذين يقاتلون الإنجليز، وكاد عنقه يصل إلى حبل المشنقة. وعلى سبيل المثال، فلاتصاله بالحركة الوطنية منذ فترة مبكرة، كان يدفع لسيدة «هى والدة ضابط شرطة اسمه مصطفى ماهر» راتبا شهريا، فقد قتل الشاب أثناء إعداده قنبلة ليطلقها على الإنجليز، ولما خشى سليمان حافظ كشف الحادث، كان يرسل راتبا ثابتا من جيبه الخاص لهذه السيدة، فى وقت كان لابد أن تفهم أم الضابط أنه فى مأمورية كى لا يعرف أحد.

ما مدى علاقاتك (بسباركس) الأمريكى؟ ولماذا رفض دخولك الوزارة فى هذه الفترة المبكرة؟

- الواقع إننى لا أعرف هذا الرجل، وإذا أردنا الدقة، فأنا أعرفه كشخصية رسمية بعد الثورة، وقد عرفت من صلاح سالم بعد ذلك الحوار الذى دار بينه وبين سباركس، وهو على النحو التالى:

- ألم أقل لك لا يجب أن يكون فتحى رضوان فى الوزارة؟ ويرد صلاح سالم:

- ولماذا تعترض عليه؟

- لأنه شيوعى.

- لا، هو ليس شيوعيا، فإذا قارنت مواقفه بكلام إذاعة موسكو، ربما اعتقدت أنه شيوعى، لكنه ليس كذلك.

ولماذا رفض دخولك الوزارة إذن؟

- علمت، فيما بعد، من بعض الشخصيات التى تطلع على المراسلات بين السفير وبين وزيرا

الخارجية البريطانى والأمريكانى (وقد أطّلع عليها أحمد بهاء الدين ونشرها فى إحدى يومياته)، وقال إن السفيرين الأمريكى والإنجليزى عملا اجتماعا وذهبا إلى جمال عبد الناصر، واحتجا على اختيارى وزيرا، أما وقد كنت مرشحا وزيرا للشئون الاجتماعية، غير أنه بعد الضغط الأجنبى لم أحصل إلا على (وزارة دولة)، أى، بدون حقيبة بالتعبير الأجنبى.

فكيف كانت علاقتك - كمثقف - ومجلس قيادة السلطة - فى بداية الخمسينيات من القرن الماضى؟

- علاقتى بمجلس قيادة الثورة كانت كأحدهم تماما، الفارق الوحيد، أننى كان ينظر لى على أننى صاحب تجربة (وإن كان هذا كلاما عن شخصى)، ومن ثم، كانوا يكنون لى كل احترام وتقدير..

ولم أذكر فى يوم من الأيام قط، بأى شحناء قامت بينى وبينهم، وبوجه خاص، بينى وبين جمال عبد الناصر.

وعلى سبيل المثال، لقد اصطدمت بعبد اللطيف البغدادى، فألزمه مجلس قيادة الثورة بأن يذهب إلى بيتى ويعتذر لى، كما الزم المجلس أيضا آخرين بالاعتذار لى وحدث ذلك.

هل يمكن أن تعطينى صورة للعلاقة التى كانت تقوم بين العسكريين - كمجلس قيادة الثورة - والمدنيين - كالمثقفين؟

- هذه العلاقة بين الطرفين استمرت إلى النهاية، ولا يستطيع وزير مدنى واحد أن يقول إن جمال عبد الناصر وجه له عبارة نابية واحدة مثل (اسكت) فى الأحاديث المحتدة التى كانت تتم - حينئذ - بين الطرفين.

لقد كان جمال عبد الناصر خجولا وحساسا ومهذبا وطيلة معرفتى بعبد الناصر - وهى سنوات طويلة - لم أرى عبد الناصر - رغم سلطاته الكثيرة والمطلقة - اعتدى على أحد أو نهر أحدا.

وإذا اردت الانصاف، فإن من بين المدنيين أنفسهم - خاصة فى المراحل المتأخرة من لا كرامة عنده، وقد كان كثيرون منهم يهينون أنفسهم بأنفسهم.

ما الدافع وراء الاشتراك مع عبد القادر عودة لإصدار قانون إعادة التحقيق فى مصرع حسن البنا؟

- هذا طبيعى، لأن حسن البنا كان صديقى، وكنت أعتبره من الشخصيات الوطنية السياسية الجديرة بالاهتمام والاحترام، وكان مقتله جريمة، وكنت أعرف على وجه اليقين من هم القتلة. أضف إلى ذلك إننى كنت على صلة وثيقة بجماعة الإخوان المسلمين، فضلا عن أننى ترافعت عنهم ويمكن أن يضاف إلى هذا (كما تقول) أن الدولة - فى الفترة الأولى من الثورة خاصة - كانت على صلة وثيقة بالإخوان.

هل كانت دعوتك لإعادة التحقيق وفتح ملفه بشكل شخصى، أم طلب منك المسئولون ذلك؟

- يا سيدى بشكل وطنى خالص، وليس بشكل رسمى، صحيح أننى تحدثت بشأنه مع مجلس قيادة الثورة، غير أن هذا تم دون أن أطلب.

وفى الفترة التى كنت فيها فى الوزارة لم يتوقف التحقيق، والذى أعرفه أنه بعد ذلك تمت المحاكمة قبل أن أخرج وصدر الحكم بالعقوبة ضد محمود عبد المجيد والبوليس الملكى.

أيهما تأثر به جمال عبد الناصر، الحزب الوطنى أم (مصر الفتاة)؟

- بالتحديد، كان عبد الناصر تلميذا لأحمد حسين قلبا وقالبا، بل وقلده فى الخطابة، والوقوف، والكلام، والأفكار التى كان يصرح بها..كل ذلك كان من صفات أحمد حسين وأفكاره.

لقد كان رأى عبد الناصر فى أحمد حسين - مع ذلك - أنه صاحب مدرسة وأستاذ، لكن (مستدركا) لا يرجى من أساليبه التكتيكية أن يكون محل ثقة، فيهاجم ويرتد. وجمال عبد الناصر تربى فى مدرسة مصر الفتاة.

قلت عن عبد الناصر «كنت أكتب خطبه لفترة طويلة».. فهل كان يطلب منك ذلك؟ وما هى حدود العلاقة بين فكرك وفكره فى «الخطاب «الناصرى»؟

- كان عبد الناصر يطلب منى أن أكتب له، فأكتب أما عن العلاقة بين فكرى وفكره، أنه لم يكن يطلب منى شيئا..أبدا، وأذكر أنه فى مرة، وفى الفترة قبل التأميم، حين كان فى يوغوسلافيا وتوجه إلى موسكو، وأذكر أنه كان معه حسنين هيكل.. أرسل خطابا إلى القاهرة مفاده أن «يجب على فتحى رضوان أن يكتب الخطبة الفلانية»، وبالفعل، كتبتها وهو مسافر وأرسلتها إليه.

إذن، فما سبب القطيعة بينك وبين عبد الناصر.. هل كان خلافا فى الرأى أم انشغال عبد الناصر بغيرك؟

- جمال عبد الناصر لم ينشغل بغيرى مطلقا، وكان من المفترض أن تكون العلاقة بينى وبينه حسنة دائما، كل ما فى المسألة أنه يأتى بشخصيات لم أكن راضيا عنهم، وكنت أقول له دائما رأيى.

هذا موضوع، الموضوع الآخر.. أن عبد الناصر كان يرى دائما أن أكون فى الوزارة التنفيذية لأنفذ برنامجى الذى بدأته فى الثقافة، ثم رشحنى وزيرا للإرشاد القومى «التنفيذى»، فى وقت وجدت فيه أن الوزارة الكبرى يجب أن تكون لها أيضا دور «التخطيط».

قلت لعبد الحكيم عامر فى هذا الوقت: إننى لست مستوزرا ولكننى سياسى، إنكم تختارونى لأنى أعلم فى السياسة، فتعملوا وزارة للسياسة وتضعوننى فى وزارة للتنفيذ.

قال: يا فتحى أنت عندك برنامج «هايل» فى وزارة الثقافة والإرشاد وعايزينك تكمله.. وحين نضع السوريين فى وزارة اتحادية بيغضبوا لأنهم عايزين يظلوا فى سوريا ويشتغلوا فى بلادهم.

أين كنت فى أزمة ١٩٥٤؟ ولماذا لم يكن لك موقف واضح منها؟

- كان لى رأى، وكان لى رأى واضح لم يفهمه عبد الناصر فى هذا الوقت. أذكر إننى قلت له حينئذ «وكان الصراع على أشده بينه وبين محمد نجيب»: الثورة محتاجة للواء ومنفذين..

فتصور عبد الناصر- رغم عمق الذى بيننا - أن اللواء هو محمد نجيب، سألنى باستنكار شديد:

من هو اللواء الذى تريده؟ أعتقد أن اللواء الذى أقصده هو محمد نجيب.

وكتم عبد الناصر غضبه- كعادته- وحين ابتعدنا عن الناس قال:

- أصل أنت لا تعرف محمد نجيب، دا راجل نصاب.

- أعرف هذا، وكتبته بالفعل، لكن الظروف التى نعيشها تقتضى منك أن تقترب منه.

قال عبد الناصر:

- أنا لا أستطيع أن أقترب، لا أستطيع أن أظل مهددا بعملياته واتصالاته بالآخرين.

قلت له:

- إذن، لننتظر، ولا يجب أن نتخذ موقفا حادا إذن، كان لى رأى قلته فى هذا الوقت، بل كتبته، وملخصه أنهما - عبد الناصر ونجيب - كالأعمى والمقعد لابد أن يتعاونا.

غضب عبد الناصر منى جدا وراح يعاتبنى.

فى رأيك: هل كانت تنظيمات عبد الناصر السياسية «كهيئة التحرير أو الاتحاد الاشتراكى» .. محاولة لاجتذاب المثقفين من شتى التيارات الفكرية؟

- عبد الناصر كان يكن احتراما بالغا للمثقفين..وعبد الناصر شخصيا كان يقرأ كثيرا، وكان يرغب دائما أن يحصل على كتب، وكان يأخذ منى الكثير، ولما يجدنى أقرأ يسألنى: ما اقرأ؟ وفى مرة كنت اقرأ له، وجدته سرح بعيدا، قلت له لماذا؟ اعتذر وقال إنه كان يفكر بعمق فيما يقرأ.

إذن، كان يهتم جدا بالمثقفين، وكان يعرف أهميتهم وسر أفكارهم الحيوية، غير أن وسائل الاتصال بالمثقفين لم تكن متوافرة لديه، لمشاغله وللمؤامرات والمتاعب التى كان يواجهها رجل كبير مسئول مثله.

كثيرا ما قلت له إن قضيته مع المثقفين أو خلافه معهم لا يحتاج أكثر من عدد من اللقاءات «وأخذ وعطا.. إلخ».

إذن، بالعودة إلى سؤالك، فالتنظيمات لم تكن إلا حزبا للحكومة، أما «الاستقطاب»، فكان له ألف طريقة وطريقة أخرى. وعلى سبيل المثال، يستطيع أن يجعل منهم مسئولين ليس من أجل «صيد المثقفين»، ولكن من أجل استقطابهم والإفادة منهم فى إطاره.

قلت إن عبد الناصر طلب منك، وأنت وزير أثناء إسقاط دستور ٢٣ أن تكتب مقالا فكتبته.. لماذا؟ وبأى صفة؟

- نعم، قال للصحف أن ينشر هذا المقال فى الصفحة الأولى. وحين تقلب فى الصحف عند صدور دستور ١٩٥٦ ترى أن مقالى هذا كان فى الصحف الأربعة، وقد تعجب حين تعلم إننى قلت إن الدستور هو الشعب، وإن «الدستور» مجرد «نصوص»، لكن النص الحقيقى هو الشعب، ومدى حرصه على هذه الحقوق واستعداده للتضحية فى سبيلها والتمسك بها ومحاربته للذين يعتدون عليها.

وقد وضع فى الصفحة الأولى وتعليمات من عبد الناصر «إننى كاتب المقال».

٥

أحمد أبو الفتح

فى شهادة أخرى يفتح الصحفى الكبير أحمد أبو الفتح ملفا أكثر تعقيدا.

يرصد صعود فكرة تطهير الأحزاب التى انتهت بحلها.

وكيف تعامل نظام ثورة يوليو مع الصحفيين، خاصة من الوفد.

وتفتح شهادة أبو الفتح الباب أمام تصور وضع المعارضة المصرية فى الخارج فى ذلك الوقت. حيث أسهم مع بعض الصحفيين والنشطاء فى تكوين (جبهة مصر الحرة) التى طالما أزعجت النظام فى القاهرة حتى بعد سجن أقارب المؤسسين.

لا نحتاج هنا لنذكر أن أحمد أبو الفتح، أحد أشهر الصحفيين المصريين فى العهد الملكى وصاحب جريدة «المصرى»، أكثر الصحف المصرية شهرة قبل الثورة.

ونذكر أن أحمد أبو الفتح تعرف على الثورة وعايش لحظات ولادتها الصعبة. وكان من الذين دعوا على صفحات المصرى لعودة العسكريين لثكناتهم بعد طرد الملك. شهادة أبو الفتح عن ثورة يوليو لها طعم خاص. فالرجل كان على الضفة الأخرى من الثورة وتعرف عن قرب على كواليس صنع القرارات، وفضل الحياة خارج مصر على السجن مع أقاربه وزملائه داخلها.

فى هذه الشهادة يكشف أحمد أبو الفتح المزيد من أسرار وكواليس ثورة يوليو، خاصة فيما يتعلق بصراع محمد نجيب وعبد الناصر وفكرة حل الأحزاب وضم

العسكريين لمناصب الدولة المختلفة. كما تتضمن الشهادة تفاصيل العلاقة بين الوفديين والشيوعيين والإخوان برجال الثورة، خاصة فى مرحلة تحولها من حركة جيش لنظام حكم.

نصمت ونعيد طرح السؤال ونعيد تسجيل الشهادة بصوته

ما حقيقة موقعك من الوفد؟ هل هو «الانتماء» السياسى ككادر؟ أم هو الانتماء الفكرى من الخارج؟

العهد الذى عشناه كان يختلف تماما عن هذا العهد، بل حتى العهد الذى بدأ بعد ثورة ١٩٥٢. إن العهد الذى عشناه بدأ ونحن طلبة، ونحن نعايش الأحداث، كنا لما ندخل بيوتنا، رغم وجود الاستعمار وحكومات الأقلية، نرى زمنا ووسائل نتفهم بها معنى الحرية. بالإضافة إلى أن الإنسان يجد جرعة من الوطنية فى أى مكان غير البيت: المدرسة ومظاهراتها، المدرسة ودرجاتها الابتدائى والثانوى.

من الناحية الأخرى كيف كان موقف الشيوعيين؟

- كان لازم تعرف إن الشيوعيين كانوا واقفين ضد «الثورة»، وأذكر أن الشيوعيين كانوا «قد أصدروا منشورات كثيرة لمهاجمة الضباط»، وأذكر أن هناك منشورا قد صدر بالفعل بعنوان «رحلة بهلوان فى آخر الزمان» فى أول رحلة لمحمد نجيب إلى الصعيد.

وثبت أن هذا المنشور شيوعى، إذن، كان الشيوعيون يمثلون اتجاها ضد الاتجاه الذى يعرف فى الجيش حينئذ، لماذا؟ لأنه أتضح لهم بعد ذلك أن هناك علاقات تربط الكثير من ضباط القيادة بالسفارة الأمريكية، شلة الأمريكان على سبيل المثال كانت تتكون من البغدادى، وحسين إبراهيم، وآخر لا أذكره الآن.. كذلك كانت شلة الإخوان تتكون من كمال الدين حسين وغيره.. إلخ.

إذن: كان الشيوعيون متخوفين، أرادوا أن يقودوا الاتجاه السياسى الخاص بهم «التوازن» فأحمد حمروش فى رأى يوسف صديق «رجل قوى» ليصدر مجلة التحرير، وأذكر أن يوسف

إدريس عاش حينئذ، فى نادى ضباط الزمالك، وناقش معى الموضوع، قلت له الموضوع بصراحة شديدة: أن هذا خطأ كبير.

المهم، أصدروا المجلة بالفعل. وبعد ثلاثة أعداد تنبه عبد الناصر إلى أن المجلة أصبحت شيوعية، فنقل أمرها إلى ثروت عكاشة «شقيق زوجتى»، فثروت أخذ مساعدا له فى التحرير ونائبا له- عبد المنعم الصاوى رجل «المصرى» - ومن هنا، طلبوا منا أن يأخذوا إعلانات. مجلة عكاشة «التحرير»، حينئذ كانت تمضى فى اتجاه ديمقراطى، فهى تذكر الجيش أنه قام بالثورة فى الأصل لتعميق الاتجاه الديمقراطى.. إلخ.

لذلك، «شالوا» ثروت عكاشة حينئذ منها، فألحق كملحق عسكرى بإيران ثم باريس..من هنا كان «المصرى» ساعد فى إصدار «التحرير».

يلاحظ أن حركة الجيش أول قيامها كانت تستقطب المثقفين، وبعد ذلك تخلى عبد الناصر عن المثقفين.. نريد تفسيرا لموقفك؟

- الأول كانت وزارة على ماهر «كلها مدنيين»، ثم حين وجدوا فى على ماهر معارضا فى الإصلاح الزراعى أقالوه.. وجاءت أول وزارة - وزارة محمد نجيب - وضمت السنهورى وفتحى رضوان وثالثا هو سليمان حافظ. هؤلاء السياسيون أخذتهم الثورة من الحزب الوطنى، فهذا الحزب كان معروفا أنه ضد الأحزاب بما فيها الوفد. كان هؤلاء الثلاثة وراء التحريض على تطهير الأحزاب وحلها وإجهاض الحياة الحزبية. بعد ذلك ضاقوا بكل المدنيين وقلبوها، كلها عسكرية.

إذن لماذا تعرض السنهورى للقتل بمجلس الدولة؟

لأن السنهورى أحس- مع سليمان حافظ - بالخطأ الشديد الذى وقعوا فيه، فبدأوا يلتفون حول محمد نجيب، بدأوا يحرضونه على الدعوة للديمقراطية.

هل هذا ثابت؟

- بالطبع.

أليس هناك ما يدل- تاريخيا ووثائقيا على هذا؟

- أنا متأكد منها على مستوى الواقعة.

- إن «السنهورى وحافظ» لقيا فى محمد نجيب شخصية مبلورة.. وبسيطة.. وكان يحترم السنهورى جدا.. فتأثر بهذا.

وجاءت عملية عزله ثم إعادته «فى ١٩ مارس» إلى آخر هذه الأحداث. وفى مارس ٥٤ أقر نجيب على طلباته الموثقة فى أوائل مارس، أما عبد الناصر فبدأ يتآمر من جديد لضرب نجيب، ونجيب أحس بهذا.. وكان الملك ابن سعود يزور مصر، فذهب واشتكى للملك من مؤامرات عبد الناصر.. الملك طلب من عبد الناصر أن يزوره وأن يسعى بينهما للصلح وقبل محمد نجيب التصالح «كرجل طيب».. وفى هذه الجلسة قال عبد الناصر: طيب يا ريس نجيب إحنا اتصافينا. عايزين نضع أوراقنا على «الترابيزة» كى لا نختلف ثانية. أضاف عبد الناصر سائلا نجيب- من الذى يقول لك الديمقراطية وأحزاب وعودة الضباط إلى ثكناتهم إلى آخر هذه القرارات؟

قال نجيب: السنهورى.. وبناء عليه تقرر أن يقتل السنهورى، وهبت المظاهرات تهتف ضد السنهورى وطبقته إلى آخر الأحداث المدونة..

هذه الرواية - ما مصدرها؟

- سمعت هذه الرواية - وأنا فى الخارج - من الأستاذ الهضيبى وهو كان أحد مدمنى العمل السياسى فى مصر..

لم يكن الهضيبى ليكذب أيضا..

كثيرا ما كنت أطرح على المثقفين، وعلى وثائقى وأوراقى سؤالا مهما، هو: هل هناك علاقة بين نجيب والسنهورى؟

- أستطيع أن أقول لك الآن نعم..

كانت هناك علاقة بينهما- نجيب والسنهورى - وهى التى عجلت - بالنسبة للسنهورى- بنهاية رئيس مجلس الدولة المعروفة، نأتى الآن لسليمان حافظ.. عبد الناصر بعد ذلك وضع سليمان حافظ فى السجن، لماذا؟

لأنه انضم للسنهورى فى التحريض- عند نجيب - على التمسك بالديمقراطية وعودة الجيش، ظل سليمان حافظ بعد ذلك «صائم الدهر» حتى توفى، أحس وخز الضمير، وظل يصوم حتى مات. هذا ما يؤكد قضية الاعتداء على السنهوري.. سأقول لك، إن كل ما كان يدور على أرض مصر كان بأمر من عبد الناصر. كانت مرسومة.. لا شىء بالصدفة.. والآن قل لى: لماذا حين ذهبت المظاهرات إلى جريدة المصرى، وهتفوا أخرجوا العمال بحلل النحاس ليرموها على المتظاهرين، الذين انسحبوا بعد أن كسروا الزجاج وقالوا:

يسقط أحمد أبو الفتح

تسقط الحرية

يسقط المثقفون..

ذهبوا بعد ذلك إلى مجلس الدولة..

قل لى يا سيدى.. لماذا مجلس الدولة بالذات؟

لو سألت أحدهم أين مبنى البرلمان فربما لا يعرف. من الذى وجه الجميع إلى هناك؟

فى رأيك لماذا حكم عليك بالمؤبد ومصادرة جريدة «المصرى»؟

أجاب: لم أقدم للمحاكمة إطلاقا عام ١٩٥٤، ومن حوكم حينئذ كان محمود أبو الفتح وحسن أبو الفتح، حكم على الأول بالسجن عشر سنوات ومصادرة كل أملاكه، وحسن ١٥ سنة مع إيقاف التنفيذ وكانت الحجة هى أن عندنا أموالا مجهولة المصدر..

كان السبب فى هذا كله، أن «المصرى» فى مارس ١٩٥٤ كانت عبارة عن منشور ثورى ضد بقاء حكم الضباط والدعوة إلى العودة إلى الحياة الطبيعية والعودة بالعسكريين إلى ثكناتهم..

ويعترف بهذا كله البغدادى فى مذكراته فيقول عبد الناصر طلب منه أن يحاكم ورفض هو وطلب منه أن يغلق المصرى. وبعد ذلك، ازداد عناد عبد الناصر حتى إنه سحب الجنسية من محمود أبو الفتح وغيره بأمل أنه يؤثر عليها ولم يسحبها منى..

وبعد هذا، بعد وفاة محمود أخى ١٩٥٨ بدأ يرسل أشخاصا يعرفهم يطلبون منى العودة لمصر والتصالح، ويعرض مبلغ مليون أو ٢ مليون كتعويض.

وأبلغونى: «إذا كنت تريد العمل فى الخارج احجز السفارة اللى تعجبك واعمل فيها..» وطبعا كل هذه العروض رفضتها، فإن كل أملى كان أن أتمسك «بشوية» مبادئ معينة.. أنا خرجت من مصر بسبب الديمقراطية وغير معقول أن أعود الآن إلا إذا كان هناك أمل فى تحقيق الديمقراطية.. وبطبيعة الحال، فإن سير الأمور حتى عام ١٩٥٨ «وفاة أخى محمود» لم تكن تبشر بأننا نسير نحو الحياة الديمقراطية..

رفضت كل هذه العروض وبدأ العناد يزداد لأننا كنا عملنا «لجنة مصر الحرة» و«إذاعة» و«منشورات» توزع فى كل أنحاء العالم.. الأكثر من هذا إننا بعد انفصال سوريا ١٩٦١ انضم إلينا الضابط سعد زغلول عبد الرحمن الملحق العسكرى المصرى بسوريا، فهذا أغضب عبد الناصر كثيرا، إلى درجة أنه جمع كل أقاربى، وكل ما يخص القضية «عبد الرحمن فهمى، حسن سلماني.. إلخ».. وضعهم فى السجن جميعا، بل جاء بأمى من الإسكندرية ووضعها فى بيت منعزل بدون تليفون أو زيارة.. وعمل لنا قضية وصدرت الأحكام..

ما سر طلب عبد الناصر وإلحاحه لكى تعود؟

- الله أعلم.. هل هى رغبة فى الانتقام.. أم هى رغبة فى الحفاظ على علاقات قديمة، ولا أظن أنها كذلك، لأن هذا ليس طبع جمال عبد الناصر، ولو أن هناك شيئا لابد من ذكره إحقاقا للحق، أن مرة واحدة، دعا الصحفيين المصريين ومنهم التابعى وكامل الشناوى وعلى أمين.. إلخ. وأثناء الحديث، وأنت عارف «الجبر» بتاعه، اتريق عليهم، وجرحهم جميعا، وقال لهم: ليس هناك غير صحفى فى مصر هو اللى عايش بره، وهو اللى كان يستحق.. وهو عايش

للأسف بره.. عرفت ده من كامل الشناوى الذى خرج بعد الاجتماع مباشرة، إلى أمى وقال لها يا حاجة أنا جاى مخصوص عشان أقول لك هذه الرواية.

لكنى أعتقد - يستطرد أحمد أبو الفتح - أنها كانت فى الغالب عملية جر رجل للانتقام، لقد انتقم من كثيرين منهم إحسان عبد القدوس، منهم صحفيون لم يخطئوا كثيرا مثل أبو الخير نجيب.

تقريبا.. وغيره..

من قراءاتى حول عبد الناصر، أدرك أنه كان يسعى لاستقطاب المثقفين؟

- لأن عبد الناصر كان مدركا جيدا أنه من الصعوبة بمكان أن يستقطبنى.

فلماذا يتهمك مصطفى أمين بأنك وراء البلاغ الذى أدى لاستعداء الثورة عليه واعتقاله مع على أمين؟

- لا هذا غير صحيح..لأن مصطفى وعلى أمين كانت تعتبرهما الثورة فى الأول من رجال الملك فاروق، وأنهما - وهما لم ينكرا هذا قط - كانا يواجهان حركة عدائية من كثير من الضباط خاصة التيار اليسارى وتيار الإخوان.

كل التيارات كانت ضد الملك وفى نفس الوقت ضد الأمريكان..

وعلى أى حال، فإن حسين ابن أخى متزوج من ابنة مصطفى أمين.

٦

محمود أمين العالم

يكشف المفكر اليسارى محمود أمين العالم فى شهادته عن العلاقة المعقدة بين المثقف -خاصة اليسارى - وضباط ثورة يوليو، وكيف حاول النظام فى ذلك الوقت احتواء المثقفين سواء بالسجن أو التعذيب أو الوعود.

ترصد شهادة العالم بدقة ملامح المرحلة التى تحول فيها المناضلون اليساريون من معتقلين فى سجون مغلقة على الدوام إلى صناع قرار بشكل أو بآخر.

نصمت أكثر ونحن نستمع إلى الشهادة الحية..

- علاقتى بعبد الناصر كانت حادة وواضحة.. وفور علمى بوفاته توليت مسئولية الإعداد للجنازة.

محمود أمين العالم أحد أقطاب اليسار المصرى، تعرض- كما تعرض غيره من المثقفين- لصدامات مع ثورة يوليو ١٩٥٢.. ذاق السجن فى أوردى أبو زعبل ثم الفيوم حتى وصل لمعتقل الواحات.. أرّخ العالم لفترة الحكم الناصرى بحلوها ومرها.وخاض الكاتب والمفكر الماركسى مفاوضات شاقة مع قيادات ثورة يوليو للإفراج عن المعتقلين الشيوعيين فى الستينيات من القرن العشرين، وهى المفاوضات التى توجت بحل الحزب الشيوعى وانخراط أعضاء التنظيمات الماركسية فى التنظيم الطليعى. لعب العالم دورا بارزا على الساحة السياسية المصرية بعد الإفراج عنه. فمن أخبار اليوم لمؤسسة المسرح. رسم العالم

خطا يساريا واضحا وناقدا لكل ما يؤرق ضميره كمثقف، ولم تهدأ نزعة العالم النقدية حتى كتب نقدا ذاتيا لمسيرته الفكرية وللظروف السياسية والاجتماعية التى عاشها. تنشر «البديل» شهادة نادرة لمحمود أمين العالم حاوره فيها د. مصطفى عبد الغنى عام ١٩٨٧. ترصد الشهادة علاقة العالم بثورة يوليو منذ بداية الحملة الناصرية ضد الشيوعيين فى ١٩٥٩ وحتى الإفراج عنهم فى منتصف الستينيات من القرن الماضى. تكشف الشهادة أيضا عن جوانب خفية فى علاقة المثقفين بالسلطة فى ذلك الوقت. وتصف بدقة ملامح مواجهات مكبوتة بين الطرفين.

ما سبب فصلك ضمن ٤٣ جامعيا فى بداية الخمسينيات من القرن الماضى؟

- فصلت ضمن مجموعتين فكريتين فى ذلك الوقت: ما كانوا يعتبرونه من الماركسيين، وما كانوا يعتبرونه من الإخوان المسلمين. وقد كنت منتظما ضمن الجماعات الماركسية، كان معى لويس عوض وعبد المنعم الشرقاوى وعبد العظيم أنيس وعبد الرازق حسنين وآخرون.. كان يشمل القبض مجموعة من الماركسيين ممن يعتبرون معارضين للنظام فى ذلك الوقت وقد كان لى نشاط معروف فى الجامعة، وهو نشاط يؤيد الثورة فى بعض الاتجاهات «المعادية للاستعمار» لكننا وقفنا ضد ميول الثورة للأمريكان. كنا نستخدم حينئذ أسلوبا نسميه بالتأييد النقدى.. كأن نؤيد طرد الملك مثلا لكن لنا رأيا آخر فى باقى القضايا. كان لى الموقف الخاص بى، كنت أكتب دائما فى جريدة «المصرى»، كنت أكتب مقالات ظاهرها النقد الأدبى وباطنها معارضة النظام.

كتبت فى هذه الفترة عدة مقالات كانت تدعو- فى الواقع - إلى الاهتمام بالتقدم، وكان كل ما أنشره فى ذلك الوقت ينشر فى «المصرى».. كنا فى المعارضة نشهد الاتجاه «الأمريكانى» ثم حل الأحزاب والموقف المعادى لليسار.

من التشدد إلى التأييد

هل تذكر منذ متى تحدد موقفك المتشدد من الثورة؟

- يمكن فى الفترة الحرجة أيام قتل العاملين المناضلين خميس والبقرى، لكن لما قامت الثورة كان التأييد من جانبى واضحا، فى حين تحول هذا الموقف بعد ذلك مع تزاحم الأحداث، منذ

بدأت محاولات الأمريكان ثم بدأ ضرب الأحزاب.. إلخ. ومع إننا كنا متحمسين «مثلا فى مجلة التحرير»، فقد كنا فى الوقت نفسه حائرين قلقين حين تمت المعاهدة الإنجليزية عام ١٩٥٤ ولنا عليها بعض التحفظات، ثم مع باندونج تحول موقفنا أكثر فى اتجاه السلطة الجديدة. وأيدنا السلطة تماما بعد ذلك.. ولى تعبير نقدى ذاتى، قلته فى مقدمة كتابى «الوعى والوعى الذاتى»، أقول فيه إننى قد أبدو مخطئا فى تأييدى للثورة، لكننى حتى الآن أراها لواء من ألوية الكفاح ضد الاستعمار.. لكننا فى الوقت نفسه كنا نؤيدها تأييدا مطلقا دون أن نهتم بنقد تعاملها مع الجماهير. كنا نؤيد الثورة لموقفها ضد الاستعمار والصهيونية، وفى تقديرى الآن: لو إننا اهتممنا بمقولة الصراع الطبقى، والمطالبة الجماهيرية لكان يمكن أن نحقق نتائج أفضل.

إذن ما السبب الذى دعا السلطة لاختيارك فى التنظيم الطليعى؟

- دعوتى للتنظيم الطليعى لها قصة. لقد كنا فى المعتقل وحدث استقطاب هناك..خاصة بعد إجراءات ١٩٦١، كان هناك تيار أو مجموعة ترى أن إجراءات ١٩٦١ هى قرار عام لرأس المال لتتحول الحكومة إلى رأسمالية الدولة الاحتكارية. وتطور هذا التفكير رويدا رويدا حتى وصل إلى درجة أن عبد الناصر ومجموعته أصبحوا يمثلون الشريك الأصغر للاستعمار. وكان هناك تيار أو مجموعة أخرى ترى أن هذه الإجراءات أكبر من أى قراءات. وهذا معناه أن أى إنسان يرفع رأسه بمثل هذا يجب تأييده. ومن أثار تطور فكرنا فى جلسات ومناقشات جمعية انتهينا إلى أن هناك فى السلطة تنشأ مجموعة اشتراكية غير علمية «طوباوية» ولكنها بالخبرة النضالية العملية تقترب شيئا فشيئا من الفكر الاشتراكى العملى وعلى هذا الأساس يجب تأييدها فبدأنا نعمل مناقشات. وعلى المستوى الشخصى انتهيت بعيدا عن المناقشات إلى إننا يجب أن ننضم لهذا التنظيم دون أن نتخلى عن قناعاتنا الماركسية ودون أن نعلن بشكل واضح هل نحن ماركسيون أم يمينيون؟ فى ذلك الوقت اقتربنا أكثر فأكثر من فهم المجتمع، وقادنا وعينا إلى فهم كيف يدور الصراع الحاد بين القوى، فعندنا - وهذا ما نلاحظه فى الصراع الداخلى - قوى كثيرة من خارج الطبقة العاملة تنتمى إلى الأفكار الثورية دون أن تتبنى الماركسية. توصلنا بصياغاتنا الذاتية إلى أن نحل حزبنا، فنرتبط كأعضاء حزب سابقين مع مجموعة القوى الناصرية الاشتراكية التى تنمو نموا علميا.

وقد جاء الميثاق وأكد لنا هذه الحقيقة. وبالفعل خرجنا من السجون على هذا الأساس وبدأ حوار رسمى «كان يمثل عبد الناصر فى ذلك الوقت» كل من: «أحمد حمروش وأحمد فؤاد» وتقرر بعد مناقشات طويلة حل الحزب الشيوعى وهى فكرة التنظيم الثورى وبدأ الحوار لفترة طويلة، لكن الحوار أثبت- للأسف- أنهم يريدون أن يأخذوا منا أفرادا فقط وليس كل المجاميع..ما معنى هذا، على أى حال، كنت أنا من الأفراد فاختارونى» لم أحضر مؤتمر حل الحزب وإن كنت غير مختلف معه».

لقد حدث الآتى:

اتصلوا بى من مكتب عبد الناصر وقالوا لى إنه يشرفنا أن تكون معنا فى التنظيم، ثم أدخلونى- هكذا - فى مجموعة ما غير عضوية.

فأصبحت عضوا فى الأمانة العامة ٧ شهور واستمررت فى الأمانة العامة حتى رحل جمال عبد الناصر، أذكر، إننى كنت المسئول عن جنازته وأجراءات وفاته.. إلخ. كانت هناك تناقضات كثيرة موجودة بينى كمثقف وبين السلطة، ففى هذه الفترة حملت مسئولية «أخبار اليوم»، وأذكر أنى فى هذه الفترة كتبت مقالة حادة جدا نقدت فيها الاتحاد الاشتراكى العربى وتصادف أن قرأها سامى شرف، وأصدروا قرارا بعزلى من «أخبار اليوم». ومما يذكر فى هذا الشأن أن السلطة أرسلت «عسكر» إلى شتى أنحاء البلاد ليجمعوا الصحف، بوجه خاص هذه الصحيفة، لكن، اتصل بى بعد ذلك عبد الناصر، واتصل بى عدد كبير من قادة الثورة، واعتذروا لى، الأكثر من هذا أستطيع أن أذكر أن عبد الناصر- رغم ذلك- كان يأمر بإذاعة هذه المقالات، لكن ما هى علاقتى بجمال عبد الناصر؟

أستطيع القول أن علاقتى به كانت واضحة وصريحة وحادة فى أن معا، دخلت فى حوار حاد - أحيانا - مع عبد الناصر.

قال: ما رأيك أنا باحس إن الوضع فى مصر مهدد بالبرجوازية، ويجب أن نطمئن الناس، أى أن نتظاهر بأنك تتنازل لنا عن بعض الأشياء مثل فتح الجمارك.. إلخ، قلت:

- لا يا ريس، إن هذا خطر، بدلا من ذلك أعط الطبقات الفقيرة من العمال والفلاحين، فهى بالتالى تكسب.

لكن- لو أعطيت البرجوازية ما تريد- ها تقوى عليك.

لكننى خرجت بعد ذلك، ووجدتهم يتصرفون بما لا يحدده النظام. لقد استطاعت البرجوازية المصرية فى هذا الوقت أن تقوى، وأن تحصل على مكاسب كثيرة رغما عن النظام وهذا ما مهد للسادات فيما بعد ليبدأ «الانفتاح».

هل خدع النظام مثقفى اليسار حين أخرجهم من السجون فى الستينيات من القرن الماضى وحل تنظيمهم؟

- اتخاذ قرار حل الحزب كان لاندماج القوى الاشتراكية، هذه القوى هى أكثر قوى عذبت فى السجون، أكثر قوى واجهت هذا العذاب فى شجاعة، وبالتالى، لم تكن المسألة مسألة ضغط، هذا شىء، والشىء الآخر، كما قلت، من عام ١٩٦١ حدث انقسام فى الحزب سابقا «فى عام ١٩٥٨، بعد أن تمت الوحدة، والانقسام كان على أساس سياسى.

فى نفس الوقت اتصل بى أنور السادات- كما هو معروف- وجلست معه من الساعة العاشرة مساء إلى الساعة الرابعة صباحا يساومنى فى حل الحزب. كنت فى وقت حرج، كنت أمثل التنظيم الذى يرى أن التناقض الرئيسى مع عبد الناصر فى حين إننى كنت أري- على المستوى الشخصى - أن التناقض الرئيسى مع الاستعمار. كان موقفى واضحا تماما فى ذلك الوقت.

أقول، إن هذا أحدث انشقاقا فى الحزب، وزاد هذا الخلاف أكثر إلى درجة أن البعض وصل إلى أن عبد الناصر أصبح شريكا مع الاستعمار.

وانتهى الأمر إلى حل الحزب. وأحب أن أؤكد هنا أن ذلك ليس نتاجا للتعذيب.. بينى وبينك.. وعندما بدأ التحول الاشتراكى واضحا، والتحول من داخل التنظيمات الشيوعية واضحا كذلك كاد التعذيب أن يتوقف.

هل كانت السلطة تساوم بعض الجماعات بأن حل الحزب مرهون بدخول أفراده إلى «طليعة الاشتراكيين» بالحزب الرسمى؟

- كانت هناك مناقشات علمية مستمرة مع المجموعات التى ترى أن عبد الناصر يمثل اشتراكية

غير علمية ويمتلك الخبرة التى تصل به إلى الاشتراكية العلمية، كان هناك حوار داخل السجون وكانت قد أرسلت دعوة لتشكيل «التنظيم الطليعى» حينئذ.. جاء ذلك فى سياق تطورات أخرى سابقة جاء هذا الحل نتيجة لمناقشات علمية وصلت قرابة ثلاث سنوات.

هل ترى الآن أن حل الحزب، فى هذا الوقت، كان موقفا سليما؟

- لا، كان خطأ.. خطأ فى الرأى دون شك كان ينبغى أن يحتفظ الحزب باستقلاليته، ثم يدخل ما يشاء.

هل كان من أهداف التنظيم الطليعى - وكنت عضوا فيه - استقطاب المثقفين؟

- لم يكن الاستقطاب يتم فى التنظيم فقط، وإنما فى الاتحاد الاشتراكى وكان يتم استقطاب كل القوى المحركة للمجتمع - لا المثقفين فقط - وتوعيتها وإعدادها بحيث تكون القوى الداخلية لتحقيق التغيير فى المجتمع.. لم يكن المثقفون فقط، بل كان- التكنوقراط- بل «الانتلجنسيا» بالمعنى الواسع. فلم تكن القضية قضية المثقفين فقط، بل كل فئات المجتمع.

بمعنى أكثر وضوحاً: هل خدع النظام مثقفى اليسار حين أخرجهم من السجون فى الستينيات من القرن الماضى وحل تنظيمهم؟

- بالفعل، بعد أن خرجوا من السجون أحسوا بالخديعة كان الخروج مقترنا بمفاوضات واتفاقات. لكن بعد أن خرجنا أحسسنا بالخديعة.. لقد اهتم النظام بأفراد فى حين لم يهتم بآخرين وأعطى أهمية للبعض بينما تخلى عن وعوده للكثيرين، وقد انعكس هذا فى أشياء كثيرة فى مقدمتها العمل، فقد تم توظيف البعض فى مراكز كبيرة أو مؤسسات مهمة بينما أهمل الآخر تماما، وأستطيع القول إنه منذ أن تم الاعتقال عام ١٩٥٩ جرب النظام فينا أشكالا كثيرة للحل كانت الوسائل تتباين والهدف واحد، هو الحل:

جربوا الحل بالتعذيب وفشل

جربوا الحل بالسجون وفشل

جربوا الحل بالإغراءات وفشل

لقد استخدموا وسائل كثيرة بعضها يميل إلى العنف وبعضها يميل إلى الخديعة.

ببساطة هل كان عبد الناصر اشتراكيا؟

- فى رأيى، إن جمال عبد الناصر كان يتطور فكريا إلى الاشتراكية العلمية..الاشتراكية رؤية، ومنهج رؤيته بشكل عام كانت جدلية، وكان عبد الناصر يسعى إلى حل القضايا بموقف جدلى للصراع العالمى.. لكن كانت لديه أيضا رواسب عديدة: عسكرية، السلطة لها ضروراتها، اتجاهات أنشأت لديه ازدواجية. ولآخر حياته كانت لدى عبد الناصر ازدواجية: بين الرؤية الموضوعية ورؤى أخرى تبحث - إلى حد ما - عن القومية. وفى هذه الثنائية كان عبد الناصر يسعى دائما إلى الفكر الاشتراكى.

كيف وجدت مثقف الإخوان فى السجن وقد كنت معه لفترة ليست بالقصيرة؟ هل وجدته ذلك المثقف الواعى بالماضى، والحاضر وتغييراته؟

- عرفت الإخوان فى الواحات وعاشرتهم كثيرا، عملنا أشياء كثيرة معا، بنينا مسرحا، بنينا جامعا هناك. أرسينا معا أشياء يومية وحياتية كثيرة، ورغم هذا كله أستطيع أن أقول إن الإخوان حاولوا الاستيلاء على كل شىء بنازع ذاتى كانوا يرون أنهم - وحدهم - الذين يحتكرون الواقع ويمتلكون الحقيقة وكانوا يتميزون بالتعصب الشديد. لقد كنت أحس أن الإخوان ليس لديهم رؤية، وأذكر إننا حين كنا ندخل فى حوار مع السلطات، كنا نقول إن عبد الناصر لابد أن يعمل كذا وكذا ويمتد الحوار، ويسنح أن نسهب لنبسط رأينا، غير أن الإخوان فى هذا الصدد لم يكن ليخرجوا قط عن القول إنه «لا عدوان إلا على الظالمين»، أستطيع القول بوضوح أكثر، إنه لم يكن لديهم أى رؤية سياسية أو اجتماعية.

نبحر معك أكثر، ما هو تصورك للمثقف فى مصر فى ظل السلطة، والسلطة المركزية بوجه خاص؟

- السلطة تحاول دائما احتواء المثقف واستيعابه لخدمتها، وهذا هو دور السلطة دائما فالسلطة لا تحكم فقط بالبوليس والجيش والعنف وإنما تحكم أيضا بالأيديولوجيا، ولا تحكم حكما مباشرا، وإنما تحكم بالمثقفين. وفى كل سلطة دائما مثقفون ودائما هؤلاء المثقفون يستخدمون كأداة تكريس أيديولوجية. إن كل سلطة ضعيفة لها من المثقفين من يدافعون عنها، ويعبرون عن

أفكارها وهذا هو المثقف العضوى، وهو مثقف معروف جيدا للسلطة، والمثقف الحقيقى ليس هو الذى يجسد دائما العلاقة بين السلطة والجماهير أو يقوم بعملية «تجسير» العلاقة بينهما.

مازال السؤال قائما حول علاقة المثقف بالسلطة؟

- تعجب إذا علمت أن المثقف يظل له وضع خاص إذا كانت السلطة معه، فبعد ثلاثة أشهر من وجودى على رأس مؤسسة أخبار اليوم، وكنت - بالطبع من غير المرغوبين فىّ، أشهد أن حجازى، أقصد عبدالعزيز حجازى، وزير المالية، كان يكتشف - فجأة- أن أخبار اليوم عليها ٦٠٠٠٠٠ جنيه، وكنا نأخذ اعتمادا من الدولة لنشترى أوراقا من الدولة، وفجأة ألغى هذا الاعتماد من الداخل، هذه الحرب انتهت بمصادرة سامى شرف لمقالى، ثم، أخيرا، اللقاء مع السادات الذى أراد منى بكل وضوح أن أترك كل شىء.



إحسان عبد القدوس

علاقة إحسان عبد القدوس بثورة يوليو مسألة شائكة. فالرجل كان رئيس مجلس إدارة «روز اليوسف» التى أسستها والدته وحملت اسمها. وكان من الطبيعى أن تمتد علاقاته بالضباط الشبان خاصة أن عبد الناصر كان أحد المترددين باستمرار على «روز اليوسف». الصداقة بين عبد الناصر وإحسان عبد القدوس لم تستمر طويلا.

فبعد أحداث مارس ١٩٥٤ ومقتل السنهورى وإقصاء نجيب، وجد الصحفى والروائى إحسان عبد القدوس نفسه معتقلا بأمر مباشر من صديقه القديم.

وعلى الرغم من أن وضع إحسان فى المعتقل كان مميزا عن الجميع، فهو الوحيد الذى سمح له عبد الناصر بالكتابة من السجن.. فإنه ظل خارج السرب فيما يخص كل التنظيمات والأفكار المنتشرة فى مصر. الأمريكان اعتبروه شيوعيا ومنعوه من دخول الولايات المتحدة. الثورة حسبته على اليمين الوفدى. الإخوان قالوا إنه أحد أعضاء الجماعة.

شكل إحسان فى سيرة حياته وعلاقاته بالسلطة والنساء حالة فريدة لم يفهمها البعض واختلف معها الكثيرون، رغم ذلك ظل عبد القدوس الرقم الصعب فى حسابات الجميع. أكد إحسان فى حواره الذى تنشره «البديل» كاملا أنه لم يكن عضوا فى أى تنظيم.

وأضاف أنه ضد «تنظيم» المثقفين بشكل عام. ووصف فى حواره التاريخى قصة صعود وهبوط

العلاقة بينه كمثقف وبين عبد الناصر كزعيم وقائد ثورة. فى نفس الوقت رسم عبد القدوس ملامح الفترة التى شهدت تأميم الصحافة وتحدث عن أوضاع الحريات وعلاقة التنظيمات السياسية بعالم السلطة والصحافة.

بدأ معه أخطر سنوات الثورة وأخطر سنوات حياته..استمعنا طويلا ورحنا ندون ما «سجلناه» وعدنا إليه ثانية لقراءة ما شهد به.. وسجلناه هنا.

وتوالت الشهادات والمشاهد

ما هو السبب الحقيقى وراء اعتقالك فى أزمة ١٩٥٤؟

- السبب الرئيسى، هو، إننى طيلة حياتى، كنت أتعامل مع أى حاكم أو زعيم ببساطة وصراحة ووضوح. وهذا يعود إلى الفترة المبكرة من حياتى حيث نشأت فى مجتمع يضم الحكام والمشاهير وكنت أعتبر أن كل الناس عظماء وكبراء وباشوات. فأنا أعتبر أن أى حاكم شخص عادى، وأنا أفكر كما يفكر تماما، هذا فى اعتقادى الخاص، ومن هنا، يكون مستعدا أن يفكر هو كما أفكر أنا. أنا لا أستطيع - فى هذه الحالة - أن أهبه هيبة الحاكم، وهو ما يفعله الشعب - أى شعب - فى مواجهة الحاكم، خاصة، حين لا يصل إلى درجة زعيم.

وماذا عن التفاصيل؟

- كنت أعرف جمال عبد الناصر قبل قيام الثورة، كان يأتى إلى روز اليوسف، وكنت أراه كثيرا، إذ كان يتردد بصفة مستمرة، وبالطبع، لطبيعته، لم يكن ليعبر لى عما يكنه فى صدره، فلم يكن ليبدو عليه أنه سيكون صاحب ثورة على وشك الوقوع.

وأذكر عن جمال عبد الناصر فى هذه المرحلة أنه لم يكن يتحدث كثيرا، بالعكس، كان يستمع كثيرا، أكثر من أن يدخل فى ثرثرات لا طائل من ورائها. كان هذا كله يشير إلى أن عبد الناصر- وإن كان يبدو كثيرا صامتا - إلا أنه كثيرا ما صارحنى ببعض أفكاره، وبطريقة تشير إلى إننا أصبحنا - أنا وجمال عبد الناصر- أصدقاء. هذه المصارحة فى الرأى أحسست بها من أول يوم مع عبد الناصر وقد اختلف الأمر بعد ذلك حين قامت الثورة وأصبح حاكما. وأنا

بطبيعتي- لست مستعدا لتحقيق رغبات الحاكم كلما طلب شيئا، كأن أكتب مذكرات بناء على طلبه أو مقالات أو بيانات أو أخباراً..إلخ..لا أستطيع أن أفعل شيئا من هذا القبيل، كل ما كنت أحرص عليه إننى كنت أعبر عن رأيى فقط. كانت هذه هى طبيعتى قبل الثورة وبعدها.

وما الذى حدث معك عام ١٩٥٤ تحديدا؟

- قبل هذا العام- ومنذ قيام الثورة - كان عبد الناصر قد اقترح على أن أقيم ندوات خاصة أجلس فيها معه بشكل شخصى «مع مجلس القيادة»، وفى هذه الاجتماعات بين لى أنه يريد إنشاء حزب.

وكان هذا يلتقى مع رأيى فى أن الجيش قام بتحقيق وتنفيذ مطلب شعبى، هو الثورة نفسها، فقد كنت فى هذا الوقت لا أعتبر الثورة ثورة عسكرية، أو انقلابا عسكريا، وإنما اعتبرها ثورة شعبية قام الجيش بتحقيقها بناء على طلب الشعب.

المهم، جئت فى الوقت الذى كانت فيه حرية الصحافة تعانى من العنت والرقابة، كنت بدأت أعانى من الواقع الجديد، فى هذه الفترة كتبت مقالة كان قد سبق أن قلت مضمونها لجمال عبد الناصر فى حوارى المستمر معه شخصيا.

كانت المقالة بعنوان «الجمعية السرية التى تحكم مصر» قلت فيها الكثير: هذا ليس حكما، ولا يمكن أن نظل تحت قيادة حكومة سرية.. إلخ وطلبت فى المقالة أن يترك عبد الناصر الجيش ويبتعد عنه، ويكون حزبا سياسيا، يعبر عن الثورة ويتولى مسئولية البلد.

كنت وأنا أكتب هذا الكلام مؤمنا بشعبية جمال عبد الناصر ومؤمنا بالثورة، وقد عرفت فيما بعد أن هذا الكلام نقل لعبد الناصر بشكل آخر «قال لى فيما بعد إنه لم يقرأ المقال، وإنما سمع انطباع البعض عنه، فأخذ إجراء السجن ضدى..». كانت القضية عندى أننى من حقى أن أقول رأيى، فكل مواطن له الحق فى إبداء هذا الرأى.

وماذا حدث؟

- أمر عبد الناصر باعتقالى لمدة ثلاثة أشهر، بناء على ما نقل إليه من إننى هاجمته. وقد علمت- فيما بعد- أن كل المعلومات عنى تنقل إلى عبد الناصر يوما بيوم، وبشكل شخصى.

ربما كان هذا هو السبب فى إننى خلال فترة السجن هذه، لم أتعرض للتعذيب الجسدى المعروف، وإنما مورست ضدى ألوان أخرى من التعذيب، لعل من أقساها على نفسى وضعى فى زنزانة انعزالية. وقد ضايقنى هذا كثيرا.

لكن بعد شهر ونصف بدأ التخفيف داخل السجن يتضح لى، إلى درجة إننى أحسست، إننى حر تماما، حتى إذا ما مضت ثلاثة أشهر، فوجئت بالإفراج عنى.

كيف دخلت إلى السجن.. لا أعرف.

كيف خرجت منه..أيضا لا أعرف.

وماذا فعلت بعد خروجك من السجن؟

- ما كدت أدلف إلى منزلى بعد خروجى من السجن مباشرة حتى تنامى إلىّ صوت جرس التليفون، وكأن من يريد أن يحدثنى كان يعرف بالدقيقة متى سأدفع بباب منزلى، ومتى تقترب قدمى من التليفون، وحين رفعت السماعة عرفت أن المتحدث كان جمال عبد الناصر شخصيا، وقبل أن أردد الكلمة التقليدية «ألو» جاءنى صوته ضاحكا:

- اتربيت ولا ما تربيتش يا إحسان.

أجبت: والله أنا مش عارف أتربى من إيه عشان أقولك.

فقال باقتضاب، وفى شبه أمر: تعال. افطر معايا بكرة .

وذهبت بالطبع، فأنا لا أملك غير ذلك، ورغم مظاهر الترحيب التى عرفتها وأحسستها من جمال عبد الناصر، غير أن شهور السجن أكدت لى أن الأمور تغيرت، وأن جمال عبد الناصر الصديق لم يعد هو «جيمى» كما كنت أناديه دائما. لقد تحول الصديق الآن إلى حاكم، ووجدت نفسى أناديه دائما «يا ريس». ولم يقتصر التغيير علىَّ أنا فقط، وإنما امتد إليه هو أيضا، إذ تغيرت طريقة كلامه معى، وطريقة تعامله معى، وهو ما انعكس على، فتغيرت تماما إلى درجة أنه حين دعانى لأجلس إلى المائدة، قلت لا شعوريا بسرعة: اتفضل أنت يا أفندم.

قال: يا راجل ادخل

قلت: لا والله يا أفندم، اتفضل سيادتك أولا

وقد لاحظت أن قاموسى دخلت فيه ألفاظا جديدة لم أكن لأرددها من قبل، مثل «سيادتك - يا أفندم - يا ريس- .....إلخ».. بل واكتشفت إننى بعد ذلك كلما كتبت عن جمال عبد الناصر كنت أسبق اسمه بكلمة «الزعيم».

ولأن جمال عبد الناصر كان ذكيا، فإنه قال لى حينئذ: إيه يا إحسان، هو السجن عمل فيك كده

قلت: عمل أكثر يا سيادة الريس

وبعد ذلك، استمر عبد الناصر لمدة شهر كامل يدعونى، كل مساء، على العشاء، وبعدها كان يصر على أن نرى معا الأفلام الأثيرة إليه. كنت أجلس معه كل مرة، وأنا أسمع، كلمات غريبة على، وأذكر أنه فى إحدى هذه المرات قال عبد الناصر لى وهو يتصنع النظر إلى الفيلم أمامه:
- أنا بأعالجك نفسيا عشان تتغير.. أنا حقيقة أمرت بسجنك بدون أن اقرأ هذا المقال الذى كتبته، لقد أمرت بالقبض عليك، وسجنك نتيجة لما نقل إلى عن مضمون هذا المقال. ويبدو يا إحسان أن ما نقل إلى كان خاطئا.

صمت، ولم أقل شيئا لعبد الناصر، فواصل قائلا:

- على أى حال يا إحسان، إنما لما عدت وقرأت المقال ده تانى عرفت أنك كنت بتقول رأيك اللى عودتنا عليه. وبعد ذلك، ولأن عبد الناصر أصبح حاكما وليس مجرد صديق، ابتعدت سياسيا عنه جدا.

ومع ذلك، أستطيع أن أقول لك، إننى ظللت، وإلى آخر أيام عبد الناصر، وأنا أعيش فى حمايته بشكل شخصى. كانت هناك وجهات نظر لمسئولين حاولوا اعتقالى أكثر من مرة، وبالفعل أوقفت فى إحداها عن العمل، وفى إحدى المرات لم استطع الدخول إلى روز اليوسف، وقد حدثت لى أشياء كثيرة من هذا، لكننى كنت اكتشف فى كل مرة أن جمال عبد الناصر

لم يكن يدرى بالضبط ما يحدث، وكان بمجرد أن يعلم يأمر على الفور بأن يتركونى. كان ينقذنى كثيرا من مؤامرات تحاك حولى ولا أعرف عنها شيئا.

مثل ماذا؟

- الرقيب العسكرى- أحمد أنور- كان قد قبض على عام ١٩٥٥ وأدخلنى السجن، وكان وزير الداخلية فى ذلك الوقت هو زكريا محيى الدين، فاتصل بأحمد أنور للإفراج عنى بالأمر. ولحساسية الموقف اضطر زكريا محيى الدين أن يبلغ عبد الناصر شخصيا بما فعله أحمد أنور، وبأنه قبض على، فإذا عبد الناصر يضرب تليفون داخل السجن، ويطلب أن يحدثني- شخصيا - وكان قد أرسل لى أحمد أنور، وتحدثت مع عبد الناصر، فإذا بى أفاجأ بأن عبد الناصر يعتذر لى اعتذارا شديدا، قائلا:

- أعمل إيه بس يا إحسان، أنا لم آمر ولا أى شىء، بالقبض عليك، وبما أنك فى السجن الحربى الآن، فخذ، أنا بجانبى عبد الحكيم وسوف يتحدث معك الآن ليعتذر لك نيابة عن الجيش كله.. وبالفعل، اعتذر لى عبد الحكيم عامر..كل هذا بعد أن ظللت فى السجن فترة لا تزيد على ثلاث ساعات فقط.

هل كان عبد الناصر- كما يبدو- صاحب اتجاه ديمقراطى استمر بالفعل حتى عام ١٩٥٤؟

- كان عبد الناصر- فى رأيى- تسيطر عليه فكرة الاحتفاظ باستمرار الثورة ومسئولياتها المباشرة فى الحكم.

لماذا؟ لأنه كشاب وطنى كان يؤمن بالديمقراطية، غير أنه وجد أن أى مبدأ ديمقراطى يمكن أن يحقق استمرار الثورة واستمرار قيادته.. لدرجة إننى حدثته أن يقيم حزبا، تطورت الفكرة معه إلى أن أنشأ «هيئة التحرير»، وقد حدثنى بالفعل عن ذلك، فقلت له: إن هذه الهيئة ليست حزبا، أنت أنشأتها هيئة حكومية خالصة، غير أنه من المؤكد أن عبد الناصر كان يخشى أن ينحرف باسم الديمقراطية، وهو، بالقطع، لو مد الله فى عمره كان سيحقق الديمقراطية. وحتى رحل عبد الناصر، كان التصور العام أنه لا يوجد مجال للديمقراطية أو تعدد السلطات خارج إطار الثورة. ليس خارج إطار الثورة فقط، إنما أيضا، خارج قيادته. لقد اختلف مع

أعضاء مجلس قيادة الثورة أنفسهم حول نفس الأمر. كانت الديمقراطية بالنسبة لجمال عبد الناصر حلما من أحلام الصبا، لكنه لم يستطع أن يحققه.

هذا ما أستطيع تأكيده من خلال معرفتى به.

وهل هذا يفسر «الثأر» الذى بين الثورة وبين المثقفين؟

– طبعا، المثقفون كانوا دائما يطالبون مطالب خاصة لتنظيمات ديمقراطية، لم يكن عبد الناصر مختلفًا فى المبدأ معهم، لكنه كان غير مؤمن بأن أى تنظيم من هذه التنظيمات يمكن أن يستمر بالثورة وبقيادته هو بالذات لهذا كان يرفضهم.

يقول الإخوان المسلمون إنهم استطاعوا، فى معتقل «العامرية» أن يقنعوك بمبادئهم، وأنك أصبحت تفهم وتتفهم دعوتهم وتعترف بالتبعية، بل وتعاهدهم على أن تكون خير معين لهم.. ما رأيك؟

– أنا لم أدخل قط معتقل العامرية.. اعتقلت فقط ثلاثة أشهر بالسجن الحربي.. وعلى أى حال، فإن الإخوان المسلمين بدأت علاقتى بهم قبل ثورة يوليو، فأنا كنت أول صحفى يعمل حديثا مع حسن البنا. فذهبت إليه كصحفى، والعلاقة توطدت بينى وبينه بشكل جيد جدا، بل وبشكل شخصى إلى درجة أن حسن البنا عرض على فى إلحاح شديد أن أنضم إلى تنظيم الإخوان المسلمين لكنى اعتذرت.

لماذا؟

–لأننى، منذ شبابى الأول أحتفظ بمسافة بينى وبين الجميع. ومهما اقتنعت بحزب من الأحزاب، أو باتجاه فكرى معين أحب أن أحتفظ بصداقة فقط بينى وبين أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك، إنما الانضمام فلن ولم يحدث، فقد كنت حريصا على الاحتفاظ بتجربتى وقناعاتى الخاصة كما أريد.

كانت العلاقة بينى وبين الإخوان قوية، غير أن علاقتى بحسن البنا كانت أقوى من أى علاقة أخرى، غير أنها كانت فى هذا الاتجاه ولم تزد عليه. باختصار رفضت أن انضم للإخوان، ليس

لعدم اقتناعى بمبادئ الإخوان، وإنما كمبدأ عام، هو ألا أنضم لأى تنظيم مهما يكن أصحابه أو تأثيره.. لقد اقتنعت طيلة حياتى بأن المثقف لا يجب أن «ينظم» أبدا وقد حرصت على أن أكون مخلصا لهذا الرأى.

معنى ذلك أنك ترى أن المثقف لا يجب أن ينتمى لأى تنظيم؟

- إن هذا يعتمد على الشخصية نفسها، بمعنى أن شخصية الفرد تتغير، وليس هناك مثقف كمثقف آخر، نحن نختلف جميعا فى التوجهات والاهتمامات، إن هناك شخصا يعتقد أنه يستطيع أن يفعل الكثير بدون تنظيم، وآخر يعتقد أنه لابد أن ينضم لمجموعة و«تنظيم» ليحقق ما يريد.

ما هو السر وراء دعوتك لتنظيم الصحافة داخل الاتحاد الاشتراكى «الاتحاد القومى حينئذ» فى نهاية ٥٩ وخاصة أنك رددت فيما بعد أنك كنت أول من دعا إلى تأميم الصحافة وأنت صاحب دار للصحافة؟

- الواقع إن هناك دافعين اثنين لا واحدا لإلحاحى على التأميم:

الأول: أن الرقابة على الصحف قبل تأميمها وصلت إلى حد بعيد، لقد كانت عاجزة عن التعبير عن الرأى الحر الفرد دائما سواء فى المجلات والصحف الموجودة «ومنها بالطبع روز اليوسف». حدثت نفسى، بما إننى لا أستطيع أن أمارس حريتى كاملة فى روز اليوسف، إذن فلتذهب روز اليوسف، كلها إلى الحكومة..ماذا يتغير؟ لا شىء..الرقابة مفروضة قبل أن تذهب إلى الدولة، وأيضا بعد أن تذهب إليها أما السبب الثانى «وهو سبب خاص بى»، هو، أننى، على العكس مما يتصور الناس، أن روز اليوسف لم تكن كإدارة صحفية تعتمد على رأس مال، يعنى، السيدة روز اليوسف كانت «ست بيت» شاطرة، تستطيع أن تدير المجلة بمبلغ بسيط، أما الآن، فإنه يستحيل أن نواصل، فضلا عن أن روز اليوسف قبل أن ترحل، لم تترك من رأس المال غير ٧٥٠ «سبعمائة وخمسين جنيهًا».

وفى هذا الصدد أذكر أنه بعد ثورة ١٩٥٢ مباشرة بادر عبد الحكيم عامر «بموافقة أنور السادات»أن يدفع مساعدات لمجلة روز اليوسف، فقلت له: لا، لا أقبل أى مساعدات، لكن أقبل

أن تدخل الحكومة معى مباشرة شركة فى المجلة، عاد ليقول لى: هذا يكلف أد إيه؟ قلت: إن أكثر ما تريده روز اليوسف التجديد والتقدم لتواجه منافسة الصحف الأخرى.

وأى شركة، تحتاج إلى رأس مال قدره مليون أو مليونان من الجنيهات.

ولهذا السبب- أيضا - حين صدر قرار التأميم فى بداية الستينيات من القرن الماضى صدر عن الرئيس بناء على جملة من مقال لى كنت قد كتبته قبل ذلك مباشرة، كنت أطالب فيه «بالتأميم»، تأميم الصحافة، فإذا بجمال عبد الناصر يأخذ سطرين من هذا المقال، ويصدر بهما قرار التأميم ونسبت الصحافة للحزب القائم أخطاء التأميم.

كنت رئيس المؤسسة الوحيد الذى عين رئيسا لمجلس الإدارة بعد قرار التأميم؟

- لكن للأسف، وهذا لم يكن بمقدورى ولم يخطر ببالى، أنه بعد التأميم انتقلت روز اليوسف كلها إلى الحكومة، ففقدت قدراتها ومواهبها من الصحفيين، بل إن هؤلاء الصحفيين تحولوا إلى «موظفين» واكتشفوا أنهم لا يقبضون مرتباتهم الآن من صاحب الجريدة، ولكن من الحكومة، فانتفى تأثير صاحب الجريدة، وأصبحت الحكومة هى الآن كل شىء وتمنح أو تمنع كما تشاء.

وهنا تغيرت مواهب الصحفيين تغيرا كاملا، وهذا ما جعلنى أنا نفسى، أترك روز اليوسف بعد فترة قصيرة من قرار التأميم، تركت روز اليوسف، ومن يومها حتى الآن، أرفض أن أكون مسئولا عن أى صحيفة. وقد حرصت على هذا المبدأ طويلا، ولم أنحرف عنه، قط، اللهم إلا فى عهد أنور السادات، وبعد إلحاحه الشخصى على كثيرا فقبلت بناء على ذلك رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم، ثم رئاسة الأهرام، غير أن الخلاف وقع بيننا.

ومن هذا الوقت رفضت أن أتولى رئاسة تحرير الأهرام، قد كنت فى الأهرام رئيس مجلس إدارة، فرفضت أن أكون رئيسا للتحرير، لماذا؟ لأن رئيس التحرير مسئول عن الاتصال برئيس الدولة، وأنا، خلاص، أصبحت مختلفا تماما مع رئيس الدولة، حتى اضطر السادات نفسه أن يتجاهل الصداقة التى كانت بيننا، ثم يعزلنى بنفسه.

وهل كان الأجدى أن تطالب بتأميم الصحافة..أم تطالب بحرية الرأى؟

- كان الاختيار صعبا.. المناداة بحرية الرأى مع اعترافى بالفترة التى وصل إليها الحكم بعد أمرا صعبا، ولم أكن مؤمنا بالوصول إليه.

الحقيقة تريد: إن يأسى من تحقيق حرية الرأى هو الذى دفعنى إلى المناداة بالتأميم.

إذن فلماذا استجبت لعبد الناصر، بعد خروجك من السجن، فى كتابة بعض التصورات السياسية وبعض البيانات والخطب له؟

- الواقع إن ذلك تم نتيجة لإلحاح جمال عبد الناصر، فحين خرجت من السجن، لم أكتب فى مجال السياسة، وكيف أجرؤ بعد ما حدث لى، ولم يمض وقت طويل حتى اتصل بى جمال عبد الناصر، وسألنى: لماذا لم تكتب «زى عوايدك»؟

- قلت: والله لا أعرف ما أكتب يا أفندم إلا بعد أن أقول للناس أين كنت فى الفترة السابقة «كنت أنا المعتقل الوحيد الذى أعطاه عبد الناصر الحق فى أن يكتب قصة اعتقاله، ولماذا أعتقل؟» قال عبد الناصر: طيب اكتب، قل للناس أين كنت؟ وقل كنت فى السجن.. واذكر أن ما كتبته عن السجن عرض على عبد الناصر بشكل شخصى، ووافق، ولم يحذف منه إلا كام سطر.

هل معنى ذلك أن كتاباتك لبعض خطب جمال عبد الناصر كانت عن اقتناع؟

- كان بينى وبين عبد الناصر موضوعات لم يكن أحد ليختلف على قيمتها الوطنية مثل تأميم قناة السويس ومواجهة الإنجليز.. وما إلى ذلك، ولهذا، فإن هذا كله لم يكن ليختلف مع قناعاتى الشخصية.

كنت أسعى من جانبى إلى تطوير الثورة إلى الديمقراطية وإلى الحرية الشعبية، وفكرت إننى فى استجابتى لعبد الناصر أكون قد عبرت عن إحساسى الوطنى الذى لم يكن ليتناقض - حينئذ - مع إحساس عبد الناصر شخصيا.

حين كان يتسلم عبد الناصر منك خطابا كتبته بناء على وجهة نظره.. ترى، كان يلتزم به أمام الجماهير؟

- عبد الناصر لم يكن يغير شيئا، ولم يكن يظهر حقيقة نواياه لأحد.. كان يجلس مع أصدقائه، ويتحدث اليوم، ويستمع منهم كثيرا، وحين يخرج هذا الصديق من بيت عبد الناصر، يعتقل، وإذا به يذهب إلى السجن.

من كان المسئول عن الاعتداء على السنهورى؟

- المسئول، هو، الحركة التى كانت قد قامت بين محمد نجيب وصلاح سالم، أقصد ضباط الصف الثانى، من أطلق لهم جمال عبد الناصر العنان ليفعلوا ما يريدون.

وربما كان الأساس الأول للاعتداء على السنهورى أنه كان قد اتخذ، فى فترة تالية من قيام الثورة، موقفا محددا (لا مع محمد نجيب ولا مع جمال عبد الناصر)، هذا الموقف المتحرر من أى ضغوط وإغراءات..

والسنهورى درس لى، فضلا عن علاقات وثيقة قامت بينى وبينه، ومن هنا، فأنا أعرف عن السنهورى ما لا يعرفه غيرى. ولذلك، فبعد الاعتداء على السنهورى مباشرة ذهبت إلى بيته، ورغم أنى - كما أسلفت - غير مرتبط بأى اتجاه سياسى- ذهبت إليه وجلست عنده طويلا تحدثنا فترة ليست بالقصيرة فى فترة كان التضييق على الرجل الغاضب قد وصل إلى أقصاه.

وقد كانت هذه الزيارة أحد أسباب اعتقالى بعد ١٩٥٤، إذ أعتقد البعض أننى شكلت (جبهة) مع السنهورى، وهذا غير صحيح.. كان رأيى الخاص أن السنهورى كان رجلا متحررا جدا، ونظيفا جدا، وديمقراطيا جدا جدا.

هل تعتقد بوجود علاقة تآمرية بين عبد الناصر والمخابرات الأمريكية كان شروطها أن يكون عبد الناصر أداة فى يد هذه المخابرات؟

- بالقطع لا، كان من أساليب عبد الناصر أنه كان يتصل بكل الجهات الأجنبية: المخابرات الأمريكية، المخابرات الفرنسية، الدول الغربية. وكان على المستوى الشخصى كثيرا ما يختار

أحدا ليكون واسطة..على أننى لا أعتقد أبدا أبدا أن عبدالناصر كان عميلا للمخابرات الأمريكية، فمهما نختلف فى طريقة تناول عبدالناصر للأمور، وكيفية تصريفها، غير أنه من المؤكد كان ذا دوافع وطنية خالصة.. لقد كان عبد الناصر مصريا عربيا فى المقام الأول..

هل تعتقد أن حسنين هيكل كان محاورا لحساب نفسه أم لحساب النظام؟

- فى رأيى، كان هيكل يبذل مجهودا كبيرا، دائما، للوصول إلى هدف محدد، هو الارتباط بالرؤساء فى كل تاريخ، بل إن تاريخ حياته كله كان يتلخص فى مدى قدرته على الارتباط بالرئيس الموجود، حتى فى الصحافة.

أذكر أن أول حياته الصحفية عرفها فى روز اليوسف، إذ استطاع أن يرتبط ارتباطا أساسيا بالسيدة روز اليوسف، والأكثر من هذا أنه - فيما بعد - ارتبط، فى آخر ساعة، ارتباطا خالصا، بمحمد التابعى، وهو ما فعله فيما بعد فى أخبار اليوم مع مصطفى أمين، كان كل من معه يكرهونه لسبب واحد، هو، أنهم يخافون من تأثيره الخطير عليهم. وهو ما يقال بالنسبة لعلاقاته مع صناع القرار السياسى، فقد كان السياسيون يعتبرونه مركزا لابد من السيطرة عليه أو إحاطته بأكبر قدر من التركيز، ولذلك، فإنه حين يسعى لمساندة أحد وخدمته يكون هدفه الأول أن يصب هذا كله فى إطار ذاته، وعلى هذا النحو، كان يخدم نفسه أولا.

وأنا - على سبيل المثال - لم أكن لأستطيع أن أحقق أو ألبى طلبات عبد الناصر كلها، كأن يطلب منى تحقيق أخبار معينة أو كتابة خطبة معينة أو بيان من البيانات، لا أستطيع هذا، لأنه ليس من طبيعتى.

هيكل كان يقوم بمثل هذه الخطابات، وهو ما جعله الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه من قبل جمال عبد الناصر.

هل كان لهيكل علاقات مريبة بالمخابرات الأمريكية أو السوفيتية..؟

- أنا لا أتصور هذا.

هل شاركت مع المثقفين الذين طلب منهم عبد الناصر وضع تصور للميثاق؟

- فى البداية، لم أشترك فى مثل هذا التصور، لقد انقطعت عن اللقاء بعبد الناصر حتى مات، فقد كان حتى النزع الأخير يقدرنى تماما، غير أن العلاقات المباشرة بينى وبينه لم تعد قائمة، ومن ثم، لم يعد هناك مبرر يوليو إلى ما يريده مني. الميثاق قد كتب عنه كثيرا.. كثيرا. وبمناسبة الميثاق، أستطيع القول إننى لم اشترك أبدا فى أى بيان رسمى أبدا لا قبل الثورة أو بعدها.

هل ذهبت إلى هيكل (بعد أكتوبر ٧٣) بتكليف من السادات وبعد نشر هيكل مقالاته فى صحيفة عربية (الطريق إلى رمضان)، وطلبت منه أن يكتب فى داخل مصر.. ؟

- لا، بالنسبة إلى هيكل، كان لدى فكرة وكنت آسرها إليه دائما، هى، بدلا من أن تكتب خارج مصر اكتب داخل مصر (لشعبك)، فكان رده على دائما قائلا: أنا ممنوع من الكتابة، فكنت أعود إلى السادات فأسأله هل هذا صحيح، يؤكد السادات غير صحيح، أعود لهيكل مرة أخرى طالبا منه أن يكتب فى مصر لكنه يرفض فهو يراعى إمكانية الرد عليه. ذهبت إلى هيكل أخيرا لأؤكد له أنه لا خلاف بيننا فى حرية الرأى، فأرجو أن يعود بالكتابة لمصر.. وحين يئست اضطررت أن اشترى له كتابا من الخارج - من جريدة النهار - وأنشره فى الأهرام كما هو بالضبط..وكل ما فعلته إننى كنت أنشر مع كتابة الرد.

قال «بايندر» عنك فى كتابه (الثورة العقائدية) إنك اشتراكى فهل هذا صحيح؟

- إن الانتماء هو مشكلتى مع العالم كله، وأستطيع أن أقول للمرة الألف إننى رتبت نفسى ألا أتقيد بأى شىء.

وحتى بالنسبة للمذاهب الماركسية، فقد قرأناها جميعا، وقرأتها أنا شخصيا وأنا صغير، واستفدت منها كثيرا، غير أن عمرى ما أرتبطت بها ارتباطا مذهبيا أو أدبيا، وحتى ماركس والماركسيون، فإن ليس قضاياى الخلافية الكثيرة معهم.

وقد يكون من المفيد أن أذكر أننى حين كنت مسئولا عن روز اليوسف، كنت أشجع جميع الاتجاهات للكتابة عندى (الشيخ الباقورى، عبد القادر حاتم، خالد محمد خالد..إلخ)، غير

أن المخابرات الأمريكية وصلت إلى قناعات - لا أعرف كيف - أن روز اليوسف ماركسية، وأن إحسان عبد القدوس رئيس الماركسية فى الشرق الأوسط.

ونتيجة لهذا، صدر قرار بمنعى من الدخول إلى أمريكا، حتى إننى كنت أرسل جواز السفر الخاص بى، إلى السفارة الأمريكية فيرفضون دخولى صراحة، حتى جاء عام ١٩٦١ واكتشف الأمريكان أننى لست ماركسيا فوجهوا إلى الدعوة إلى زيارة الولايات المتحدة، وكرد شرف، أجلت الدعوة سنة كاملة وقبلتها بعد ذلك، وذهبت بالفعل مع زوجتى بدعوة من وزارة الخارجية الأمريكية فاستقبلت بشكل جيد. وحين فكرت فيما بعد فى تكرار الزيارة مع زوجتى، وأرسلت أوراقنا إلى السفارة الأمريكية جاءت الموافقة لزوجتى أما أنا فلم تأت الموافقة إلا بعد فترة من الزمن، وحتى الآن لا أستطيع الحصول على (فيزة) مباشرة. وأرسلت إلى السفير الأمريكى لأسأله من المسئول عن وضع اسمى فى (القائمة السوداء) حتى أقف هذا الموقف، أجابنى:

- المهم أن يحذف اسمك من (القائمة السوداء).

فعدت أقول: فمن المسئول عن حذف اسمى؟

فأجاب: ليست هذه مسئولية وزارة الخارجية كما تتصور، وإنما

هى مسئولية لجنة متخصصة بالكونجرس الأمريكى.

هل صحيح أن بطل روايتك (وغابت الشمس ولم يظهر القمر) هو الأستاذ محمد حسنين هيكل)؟

- الرواية ليس لها أى بطل، وإن كان بطلها - كما يرى الآخرون - ينسب إلى هيكل، لماذا؟ لا أعرف.

والفكرة القائمة فيها تقوم على التنافس فى أول تاريخ معين من الصراع بين المخابرات الأمريكية والبريطانية. وعلى أى حال، فقصصى كلها، لفرط واقعيتها، فإنها تنسب لأشخاص معينين، وإن كانت الحقيقة إننى اهتم (بالحالات) وليس (بالشخصيات).

إحسان عبد القدوس (المشاهد الأخيرة)

«٧٠ سنة، ياه.. ما كفاية كده».

هكذا بادرني الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس، أثناء مرضه الأخير، وأنا أسأله أن يقدم نفسه لقرائه في عيد ميلاده السبعين..

.. ومع هذا – عاد يقول – فأنا سعيد جدا أنني عشت كل هذه السنين، لماذا؟، لأن سن السبعين عندي سن الانتقال الكامل إلى مرحلة جديدة من عمر الإنسان، إن هذا يختلف كثيرا عن سن الستين، ففي الستين كنت مازلت محتفظا بحيوتي، وقوتي، أما سن السبعين، فهو السن الذي تحولت فيه إلى إنسان عاقل تماما، أصبحت الآن أفكر ببطء شديد، وتعقل أشد، واصبحت (واقعيا) عن ذي قبل.

قد أكون أحس الآن بشيء لم أحسه بهذا القدر في الستين، وهو (المرض) الذي داهمني، غير أن الذي طرأ على فكري جعلني أحس أكثر (النضج) الشديد.

وعلى هذا النحو، وصلت الآن إلى السن التي يجب أن أعمل فيها (برنامجا) جديدا لحياتي، ففي هذه السن لا يجب أن أتعرض لأي أزمة مرضية، كي أواصل حياتي على مهل وعلى أسس سليمة.

وامسكت بطرف الخيط

ألا يكون ضمن البرنامج كتابة (السيرة الذاتية) لك في هذه الفترة خاصة وأن حياتك تحفل بالأحداث السياسية والاجتماعية المهمة؟

– الآن، لا أستطيع.. إن شبح المرض مازال يطاردني من آن لآخر، ومع ذلك فإنني أستطيع القول إن كل قصصي تشي بذاتيتي، من حيث الأحداث التي مررت بها – ومهما تكن درجة الخيال في العمل الفني، فإن المستوى المؤكد فيه أنها تحتوي على خيوط هامة لحياتي، وهو ما ينسحب على كل ابداع لكل كاتب. عندك نجيب محفوظ، ففي كل قصصه هذه المؤثرات التي

تجمع بين الذات والعام، وهذا لا يعنى أن شخصية نجيب محفوظ الفنية هى التى تعنى - بالمثل السائر - أن (الأسلوب هو الكاتب)، لا وإنما المعنى الذى يهبك إياه المضمون الفكرى وفرز الوسيلة الفنية الملائمة لهذا المضمون من واقع (الماهية)، ذلك لأن السيرة الفنية يمكن أن تكون حاصل جناحى العمل:

الماهية والكيفية، أو المضمون والشكل الفنى.

وهو ما يقال - بشكل ما - على السيرة السياسية.

كنت انتظر من إحسان أن يكتب نوعا من السيرة الذاتية، السياسية فقد عشت أخطر فترات تاريخنا قبل الثورة وبعدها؟

- من عادتى ألا أكتب أية سيرة، ذاتية أو سياسية، أو - حتى مذكرات - لماذا لأن المذكرات كتبت كثيرا، وفعلها الكثير من الكتاب السياسيين المعاصرين والمثقفين، وقد كانت طبيعة الكتابة تؤكد لى إننى لم أعد أثق فى كلمة مما يقال لدرجة إننى أصبحت شخصيا أخاف منها. إن كثيرا من المذكرات التى تقرأها الآن - وأكاد أقول كلها - خاصة السياسية منها، فيها ادعاءات لا تقترب من قريب أو بعيد من الواقع.

وعلى المستوى الشخصى، فإننى أستطيع تأكيد ذلك، فقد عشت كثيرا من فترات هذا الواقع المعاصر الذى كتب فيه الكثير ذكرياتهم، وشاهدت (كشاهد عيان) الأحداث، مع ذلك، فإننى أؤكد لك أنهم يكذبون فيما يكتبون.

إن مذكرات هذه الأيام لا تخلو - قط - من إدعاء وكذب.

ومن هنا، فأنا لا أخشى فقط من هذه المذكرات، ولا أصدقها كذلك، وإنما أيضا، أصبحت أخشى نفسى، فما أدرانى ألا أقع فى هذا المحظور.

ولهذا، رفضت أن أكتب سيرة أو مذكرات قط.

هل هذا يعنى أنك لم تكتب حتى الآن (سيرة) ذاتية أو مذكرات؟

- لم يحدث، رغم أن الكثيرين من الأصدقاء والقراء (اتحايلوا) علىّ مرات لا تحصى لأفعل ذلك، وأنا نفسى حاولت أن اقنع عقلى بأن أكتب مذكرات، غير إننى فى كل مرة كنت أحجم عن

ذلك، ومع هذا، دعنى أعيد عليك أن كل ما أكتبه من قصة أو رواية أو مقالة سياسية تحتوى على مراحل من حياتى.

إن كتابة (سيرة) يمكن أن يجنبك محظور السقوط فى الغموض ويبرئك من الشبهة، وعلى سبيل المثال، فمازال هذا الغموض يحيط دعوتك إلى تأميم الصحف قبل التأميم الفعلى بعشر سنوات..؟!

- دعنى أقول ذلك بصراحة، إن الدافع المباشر والقوى الذى جعلنى أطالب بتأميم (الصحف) كان يتحدد حول مجلة روز اليوسف وليس الاتفاق مع النظام.

المجلة لم يكن بها رأسمال، وكانت تعتمد على التوزيع اعتمادا كاملا، فبعد الثورة لم نكن نعرف الحرية فى التعبير فى وقت كنا فيه فى حاجة (للتمويل) الذى يسهم فى رفع التوزيع، وشراء الآلات ودفع المرتبات.. إلخ، وقد رفضت إشراك عديد من الأطراف معى، وهى أطراف عربية وأجنبية ومصرية، وتصورت أن ثمة فكرة واحدة قادرة على أن تنقذنى من هذا كله، هى فكرة تأميم الصحف، وأذكر إننى كنت (أتحايل) على عبد الناصر بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من قيام الثورة لتأميم الصحف.

لم أكن اقصد تأميم كل الصحف، لكن ما يهمنى كله كان تأميم روز اليوسف.

كنت أعتقد - حتى هذا الوقت - أنه إذا امتلكت الثورة روز اليوسف سأكون حرا فى التعبير، لكن للأسف، تحققت أمنيتى فى التأميم - بعد عشر سنوات - لكن لم تتحقق أمنيتى فى حرية التعبير.

وعلى هذا، لم أستطع العمل فى الظروف الجديدة نتيجة لأن التأميم لم يقتصر على إدارة المجلة (اداريا) ولكن التدخل الشخصى من النظام.

وأذكر أننى عبرت عن هذا كله حين قلت أن كل رؤساء التحرير أصبحوا (سكرتيرى تحرير) بما فيهم (أنا). أيضا قلت - بصراحة - إن رئيس التحرير هو «رئيس الدولة» حين يضرب تليفونا فيأمر (بكذا) ينفذ على الفور، وحين يرفض شيئا لا يكون قابلا، قط، للتنفيذ.

باختصار بعد التأميم انتفت الحرية..

ألم تكن دعوتك للتأميم - كما قيل - لاتفاق بينك وبين جمال عبد الناصر؟

- ربما جاء هذا اللبس من إننى كتبت مقالة فى روز اليوسف أطالب فيها بالتأميم، فأخذ عبد الناصر سطورا من هذه المقالة وأصدر بها قرار التأميم.

وإيمانا منه بى- فى هذا الصدد - فقد كنت أنا - الوحيد - على وجه التقريب الذى عينت رئيسا لمجلس إدارة.

ولم يكن بينى وبين عبد الناصر اتفاق على هذا التأميم.

ولعل أكبر دليل على هذا أننى رددت حينئذ أن التأميم لا يعنى أن تكون الصحف تابعة للحكومة، ولكن يجب أن تكون تابعة للحزب الذى يتولى الحكم، وسافرت بعدها إلى أوروبا، وفى أوروبا علمت أن الصحافة أممت، وهناك، أرسل لى جمال عبد الناصر د. عبد القادر حاتم ليقول لى إنه أمم الصحافة بناء على مقالتى. ومن المؤكد إننى بعد ذلك لم أستطع أن أمارس حريتى كاملة فى روز اليوسف، إذ لم يصبح رئيس التحرير - كما أسلفت - (تابعا) للنظام فقط، وإنما أصبح العاملون كذلك حين تحولوا إلى (موظفين) تابعين للدولة.

وهنا ضاعت كل أحلامى.

ألا ترى أن سجنك عام ١٩٥٤ حال بينك وبين العودة إلى الكتابة السياسية كما كان الحال من قبل؟

- ليس من شك أننى بعد عام السجن - ١٩٥٤ - وقعت، بالفعل فى علاقات حساسة جدا بينى وبين القيادة الثورية دفعتنى إلى أن أتفرغ لكتابة القصة مؤثرا إياها عن المقال السياسى.

حقيقة كنت أكتب القصة من فترة مبكرة من حياتى، غير أن المقالات السياسية كانت هى الطافية وراء اتجاهى فى فترة التعامل مع الثورة وقبلها بكثير، بل إن المقالات السياسية هى التى عرفتنى منذ نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن الماضى - وحتى بعد ثورة ١٩٥٢- بالناس، وإن بدا ميلى إلى القصة - أكثر - بعد الثورة.

وهنا يطرح سؤالك: لماذا القصة أكثر، وفقط، بعد ١٩٥٤؟

الإجابة، هى لأن القصة - حينئذ - فاقت المقالة السياسية بمراحل، أصبحت أكثر وأمتع فى القراءة، وأكثر طواعية للمناخ الجديد.

لقد بدا ولعى الشديد بالقصة منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضى بشكل فاق كل اهتمامى بها قبل هذه الفترة.

أم أن ذلك كان الخيار الوحيد أمامك؟

- لا أجادل فى ذلك.. فلا شك أنه كان هناك عنصر مؤثر، أكثر من (كل) العناصر المؤثرة الأخرى التى دفعتنى إلى هذا الاتجاه.

نحن نعلم أن بعد الثورة، وبعد عام ١٩٥٤، بشكل أكثر تحديدا، كانت هناك رقابة شديدة جدا على الكتابة السياسية، كيف أهرب من الرقابة؟ كان هذا هو السؤال الذى ألح على كثيرا فى هذا الوقت.

وكانت الإجابة لا تخرج عن أمر واحد، هو أن أصبح كاتبا قصصيا.

الأكثر من هذا كله أن القصة نفسها كان عليها رقابة، غير أن التحايل على رقيب القصة كان أخف وطأة وأسرع من التحايل على رقيب (المقالة السياسية).

وقد يكون من المفيد هنا أن أذكر عاملا أسهم كثيرا فى هذا المؤثر، هو علاقتى الخاصة بجمال عبد الناصر. فجمال عبد الناصر كان يقرأ لى قصصى، لقد كان معجبا بى جدا ككاتب قصة، وأذكر أن هناك قصة لى بعنوان (علبة من الصفيح الصدىء)، هى قصة سياسية، تعبر عن الحالة السياسية فى مصر بعد الثورة.

هذه القصة قرأها عبد الناصر، ومع إننى كنت أخشى تأثير هذه القصة إلى درجة (الرعب)، فإننى نشرتها، وقرأها عبد الناصر، وأعجب بها جدا، وصمم على أن تذاع فى التليفزيون، بل إنه طلب من جهاز التليفزيون أن يخرجها، ويوم عرضها حدث ما فسره لى أنور السادات،

فقد أكد لى - شخصيا - أنهم كانوا - مجلس قيادة الثورة - فى اجتماع مع عبد الناصر فقال لهم:

- عن إذنكم، فاليوم سوف تعرض قصة لإحسان، أنا اللى طالب عرضها فاتركونى أراها.

لقد فض عبد الناصر الاجتماع ليراها.

كانت أول رواية كتبتها بعد خروجك من السجن هى رواية (الوسادة الخالية)، فهل كانت (الوسادة..) المكان الوحيد الذى تهرب فيه من (نير) النظام؟

- لقد كتبت (الوسادة الخالية) - بالفعل - بعد الخروج من السجن مباشرة، ولعلك تذكر إجراءات الثورة الرقابية والانتقامية، وقد كنت وشيك الخروج من تجربة صعبة علىَّ كثيرا فى ذلك الوقت، وأذكر أن عبد الناصر قال لى وهو يشير إلى رواية (الوسادة الخالية):

- هو ده الذى طلعت بيه من السجن؟

أجبت بسرعة: كويس إنى طلعت بحاجة يا ريس.

فليس من شك أن هذه الرواية كانت انتقال من الوضع السياسى إلى وضع آخر، لم أجد أمامى فيه كوسيلة للتعبير إلا العمل الأدبى.

هل كان هذا يعنى هروب من المناخ العام؟

- أستطيع الرد على سؤالك بجواب يريحنى، هو: لقد كان فى هذه الرواية شىء من الرمز السياسى، وخاصة أن هذه (الوسادة الخالية) ليس بها رمز سياسى مباشر غير أن لونها الاجتماعى، هو هروب - بشكل ما - فى الواقع من الوضع الاجتماعى إلى الوضع السياسى.

هو هروب بالرومانسية إلى لون يريحنى من الداخل على أنه (إسقاط) ما ويجب الإسراع هنا إلى تحديد مفهوم خاص بى فى هذا الصدد، وهو إننى لا أعتبر السياسة خاصة على فئة معينة، ليست مقصورة على المحترفين، إننى أعتبر كل الشعب سياسى، من غير أن يعمد إلى هذا ويفكر فيه.

وعلى سبيل المثال، بائع (الطماطم) الذى يبيع على عربة (يد)، إذا غضب سب فى النظام، وهاجمه، فى هذه اللحظة، عند تقاطع الخاص والعام، ثمة (وضع) سياسى لا يمكن إنكاره.

إذن، كل قصصى، حتى التى لا يظهر فيها تجسيد سياسى مباشر، أو رمز سياسى موحٍ، فإن فيها، بتعبيرى الخاص (أحاسيس) سياسية.

عودة إلى السيرة الذاتية، يبدو أن شخصية (مصطفى) فى مجموعة (وكر الوطاويط) التى نشرها مركز الأهرام للترجمة والنشر أخيرا، هى شخصية (إحسان).. أليس هذا صحيحا؟

- أعترف أن فى كثير من هذه القصة (وكر الوطاويط) الكثير من ملامح شخصيتى والكثير من الأحداث التى مرت بى.

ولأضرب مثلا لك، سوف أقول إننى أنا إحسان عبد القدوس (مصطفى)، كنت قد أخذت شقة بالفعل فى وكر الفنانين (درب اللبانة) - كما فعل مصطفى بالقصة، وكنت أذهب كل يوم لأكتب فيه بالفعل.

قد تكون شخصية مصطفى حين تذوب فى إطار الفن وتمتزج فيه تقترب من الشخصيات القصصية، غير أنها - فى الواقع - تحمل الكثير منى فى فترة معينة من فترات حياتى.

وبشكل أدق، إن القصة كلها مستوحاة من (حالة) عشتها.

بهذا المعيار، فإن السينما لا تعبر، قط، عنك فى بعض ملامحك الذاتية كما فعلت فى قصصك ورواياتك..؟

- هذا سؤال يريد أن يقول هل استطاعت السينما أن تعبر - بوضوح - عن سيرتك الذاتية؟ الإجابة: إن هناك فارقا كبيرا بين السينما والكتاب.

إن الكاتب حين يتهيأ للنشر يكون قد سبق ذلك فترة تمتع فيها بكل الحرية المتاحة له ليعبر عما يدور فى خلده بدون رقابة، خاصة، وإننى شخصيا لا أطيق - ولا أستطيع أن أكتب حرفا واحدا إذا كان معى أحد فى حجرة الكتابة.

أضف إلى هذا - وقد يكون مرتبطا به - أننى أعتمد على (الكتاب) لأعبر فيه عن مكنون نفسى. بينما السينما تعتمد على (إمكانات) أخرى، وربما تعبر بالكاميرا لعدد أكبر اتساعا من الجماهير ممن وطنت نفسى أن أكتب لهم.

فضلا عن أن (التقنية) تحول بين الكاتب وبين السينما، فقد أستطيع أن أصور (معركة) ما بقلمى، فى وقت تعجز فيه السينما رغم إمكاناتها الرائعة أن تصف مثل هذه المعركة.

وباختصار شديد، فرغم أن قصصى فى السينما نجحت كلها، ورغم أن كثيرا من الفنانات بدأن شهرتهن من خلال قصصى/ أفلامى، إلا أنك حين تسألنى بوضوح:

- أين أجدك؟

سوف أجيبك بسرعة:

- فى الكتاب لا السينما أبدا، حتى لو كنت أنا الذى قمت بكتابة السيناريو، وحتى لو كنت أنا الذى كتبت سيناريو لأفلام ليس لها قصص فى الأصل فى الأعمال مثل (أبى فوق الشجرة).

والسبب، ببساطة أن إمكانية التعبير فى السينما تغاير إمكانية التعبير فى الكتابة.



ابراهيم بيومى مدكور

كان إبراهيم بيومى مدكور خلال المرحلة الأخيرة من العهد الملكى فى صفوف الإصلاحيين وكان أحد دعاتهم، ممثلا المعارضة غير الرسمية فى مجلس الشيوخ، وعرف مدكور بمواقفه الشجاعة ضد الملك، وتصديه لفساد حاشيته، وأسس مع صديقه مريت غالى جماعة النهضة القومية والتى صدر عنها كتابها المهم «الأداة الحكومية»، والذى اعتبر من أهم الكتب الفكرية والسياسية الإصلاحية خلال تلك الحقبة.

ولم يكن مستغربا أن يستدعيه رجال الثورة من أوروبا التى سافر إليها فى بدايات الثورة - لكى يشارك فى تشكيل الوزارة الأولى، وكان طبيعيا كذلك أن يقبل الدعوة متفائلا بما يمكن أن يحدثه الثوار.

الحوار التالى يكشف عن علاقة مدكور بالثورة ورجالها وطبيعة العلاقة التى جمعت بينهما.

بدأت الشهادة حين بدأنا السؤال..

كان موقفك ثائرا قبل ثورة ١٩٥٢، فأين دورك بعد الثورة؟

- كان دورا إيجابيا وكنت من دعاة الثورة وأظن أن كتابى «الأداة الحكومية» خير من قدمنى

إلى قادة الثورة، من هنا كان إحساسى الأول بالثورة، كنت ممتنا بما يحدث، داعيا أن يوفق الله هؤلاء الشباب الثائرين، وأذكر إننى فى أول قيام الثورة كنت فى مصر واضطررت للسفر بعدها إلى أوروبا فاتصل بى على ماهر لأشترك فى تشكيل الوزارة الجديدة وحضرت بالفعل، فقد كنت أريد أن أشارك فى هذه الفترة.

صمت مدكور طويلا قبل أن يقول كأنه يحدث نفسه:

كنت أحس جيدا أن دعاة الثورة يريدون أن يكون لهم دور، وهذا طبيعى لكن لم أكن أريد أن أكون مجرد مستشار أو ناصح أو منتظر دوره لسؤال أو تفسير أو تجميل، كنت أعرف جيدا حدود دورى، وهو أن أكون مسئولا. مع إننى كنت أعرف فى هذه الفترة المبكرة، أن ذلك سيضع الكثير من العراقيل أمامى لكن، ما باليد حيلة، لم تطل استشارتى لبعض المخلصين، ثم ذهبت إلى على ماهر أداة الوصل حينئذ وأكد لى أن استدعائى كان بتكليف مباشر من مجلس قيادة الثورة، وكان هذا يعنى أن المجلس رأى فى هذا الوقت إننى - وآخرين - يجب أن نشارك فى الحكومة الجديدة.

أول حكومة بعد ثورة يوليو

وبعد أن تم تشكيل الوزارة صدر مرة أخرى مرسوم بتعديل التشكيل الوزارى ليصبح كل من مريت غالى للشئون القروية، وتم اختيارى للإنشاء والتعمير.

وأنا وغالى كنا من وجوه الإصلاح الزراعى قبل الثورة. استغنى التشكيل الوزارى الجديد عن وزارة على ماهر لأنها أخذت بالإصلاح الزراعى التمهيدى، فى حين أن رجال الثورة لا يريدون الإصلاح الزراعى التمهيدى، إنهم يريدون أشياء أخرى نابعة من فلسفتهم الجديدة التى لم نكن نعرف عنها الكثير.

وهكذا وقع الخلاف بينى وبين ممثلى الثورة منذ البداية، وتمثل فى مناقشة الكثير من المشاكل الإدارية والسياسية وانتهى الأمر فى النهاية عند مواقف دفعت ثمنها صاغرا.

كان الواقع يشير إلى أن الثورة كانت تريد الإفادة من هؤلاء المثقفين على المستوى الفنى فقط، أن تضعهم فى مناصب صورية أو تعليمية لا ثقافية أو سياسية بأى حال، وتأكيد ذلك إننا فى التشكيلات الوزارية التى حدثت فيما بعد نقرأ فى محضر مجلس الوزراء فى سبتمبر ١٩٥٢ أنه تم تحديد مرسوم بتأليف لجنة لدراسة الأنظمة الحكومية وتقديم مقترحات بشأنها، وكان من الطبيعى أن يكون أفراد هذه اللجنة من أولئك المدنيين الذين استفادت منهم الثورة إبان قيامها وكنت ضمن أسماء هذه اللجنة.

أيضا سعت الثورة إبان قيامها بتشكيل عدد آخر من اللجان لتأدية هذه الأغراض للمرور إلى فترة الحكم التى تريدها.

عملت فى هذه الفترة طويلا، وخرجت بأفكار إيجابية ومن الطريف أن أقول إننى فى أحد قراراتى وأنا أدرس قضية الأسرة، سجلت فى المحاضر، وقلت بوضوح:

أن المتزوج بواحدة لا يتزوج بأخرى إلا بعد استئذان القاضى.

وأذكر إننى كنت أظل فى المجلس، لدراسة القرارات الاجتماعية، والفنية إلى فترة متأخرة، واستقررنا على مشروع قانون مهم أعملنا فيه الدرس والفهم لأيام طويلة وليال أطول، وحددت بالفعل ميعادا للإعلان عنه فى حديث للصحافة.

ولكن... دخل علينا من يقول إن أحد ضباط الثورة يرفض الحديث، أو، بشكل أدق، يرفض، أن ندلى بحديث، يرفض أن يصل صوتنا للصحافة، وتم تأجيل الموضوع. أدركت وقتها أن الثوار ليست لديهم النية الخالصة للإفادة من أهل الخبرة.

أظن أن هذه هى المرة الأخيرة التى حاول فيها ثوار يوليو الإفادة من المدنيين فى هذه الفترة؟

– نعم كان يسود مناخ من عدم الثقة بين الثورة وأهل الخبرة، بل إننى سمعت بأذنى جمال عبد الناصر يقول: إن الاقتصاديين يقولون كذا، وأنا أقول كذا لا آخذ بكلام هؤلاء الاقتصاديين– أنا أيضا أعرف فى الاقتصاد.

ومن وقتها - أحسست أن القطيعة واقعة لا محالة بين المدنيين والعسكريين.

بين سياسيى قبل الثورة ومثقفيها والثوار من أبناء العهد الجديد وخبرائهم.

ومن وقتها رفضت أن أشارك فى السياسة بأى حال.

ورحل إبراهيم مدكور فجأة، وترك لنا تجربة ثرية، طرفها: ثورة يوليو والسياسيون أو ثورة يوليو ومن تريد أن يقوم معها «بلعبة الحكم» وهى لعبة خطيرة أثر فيها الرجل الصمت، والرحيل.

٩

خالد محمد خالد

يبدو أنه لابد من تقديم بسيط قبل أن نستمع للرجل هنا.

فثمة مزيج من التوتر والاحترام، حكم علاقة رجلين قدر لكل منهما أن يسهم فى تشكيل الخريطتين الفكرية والسياسية فى مصر. جسدت علاقة المفكر خالد محمد خالد والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، حالة من حالات الحوار المستمر بين المثقف والسياسى. فقد وجد الرجلان نفسيهما فى لحظة واحدة أمام أكثر القضايا حساسية فى ذلك الوقت «الديمقراطية» وحاول كل منهما أن يحل المسألة حسب رؤيته. وضع عبد الناصر العدالة الاجتماعية فى المرتبة الأولى، وقدم خالد محمد خالد الديمقراطية على كل شىء، معتبرا أنها الطريق المؤدى إلى العدالة وليس العكس. خالد محمد خالد: عبد الناصر كان يملك بوصلة لاتخطئ اتجاه الجماهير. وفى إجابته عن أسئلتنا المذاعة كان يراعى إحساس ملايين المشاهدين. الديمقراطية كانت كفيلة أن تمنح عبد الناصر الشعبية.. وتجنب البلد مخاطر التحول الاشتراكى.

رغم الخلاف الفكرى يتذكر خالد محمد خالد أن اعتراض عبد الناصر على مصادرة كتبه الأولى، هو الذى مكنه من الاستمرار فى الكتابة والنشر بعد أن أصدر بعض ضباط مجلس قيادة الثورة قرار المصادرة. يتذكر خالد محمد خالد فى شهادته النادرة، التى تنشرها «البديل»، طريقة تفكير عبد الناصر. فحين كان المحيطون به يسألونه عن شىء وينتظرون الإجابة من الرئيس الراحل، كان عبد الناصر يضع

فى حسابه الملايين الذين ينتظرون إجابات الزعيم، لتتحول فورا إلى شعارات يحملها أبناء جيل، رأى فى عبد الناصر أبا للجميع، ورمزا للاستقلال والتغيير.

جمعت عبد الناصر والمثقفين علاقات قديمة. فقبل الثورة حرص الضابط الشاب على مد الجسور مع كافة الأطياف السياسية من اليمين إلى اليسار، وسعى للتحدث مع المثقفين مهما كان اختلافه معهم. كان الشاب العائد لتوه من فلسطين، بحاجة لتكوين صورة واضحة عن الوضع العام فى مصر. ورغم خلفيته العسكرية، إلا أن ارتباطه بالمثقفين بدا طبيعيا، خاصة فى وقت كانت الحدود التى تفصل بين المثقف والناس ضعيفة فى دولة يشعر حكامها بالاسترخاء التام، فى الوقت الذى يجهز فيه الضابط الصغير بداية النهاية لنظام الحكم كله.

رأى خالد محمد خالد عبد الناصر قبل الثورة، وعرف من بعض الأصدقاء المشتركين، أن الضابط الشاب يشترى من جيبه الخاص عدة نسخ من كتب خالد ليوزعها على زملائه. عرف أيضا ولع هذاالشاب بالاستماع، لكن الذى لم يعرفه المفكر الكبير أن الضابط الصغير المقبل على كتبه، يُعد هو وأصحابه خطة تغير مسار مصر الحديثة، ليس فقط على مستوى السياسة، لكن على مستوى الثقافة والعلاقات الاجتماعية أيضا.

كلا الرجلين كان لديه مشروعه الخاص الذى انشغل به.

عبد الناصر بخلفيته العسكرية وخبراته فى حرب فلسطين، أراد أن يقود البلد منفردا بنفس طريقة قيادة الكتيبة، حيث الانضباط يعكس معنى العدل.

بالمقابل كان خالد محمد خالد ينظر فى زاوية أخرى. فهو المفكر الذى تخرج فى كلية الشريعة بالأزهر. وعاش بين الكتب لفترات طويلة. رأى خالد أن قيادة دولة بحجم مصر، يجب أن تعتمد على رجل واحد لا طيف سياسى واحد.

أراد خالد أن تكون السلطة عملية إدارة فقط.

أرادها عبد الناصر عملية جراحية لتغيير مصير البلد كله.

اصطدم الرجلان كثيرا، فمنذ اللحظات الأولى للثورة، وتحديدا بعد إعلانها بنحو ٢٠ يوما، وجد خالد محمد خالد نفسه مدعوا من المسئول عن الإذاعة، ليتحدث إلى الناس الذين كانوا يتساءلون وقتها عن طبيعة الوافدين الجدد على قصر عابدين.

اعتذر خالد في البداية، لكن وضوح عبارات مسئول الإذاعة الذى أكد لخالد أن دعوته للحديث، رغبة للضباط الجدد، جعله يعيد التفكير ثم يوافق. ذهب خالد للإذاعة وتحدث عن الديمقراطية باعتبارها أهم ما يجب أن يحرص الناس عليه.

ويبدو أن حديث المفكر لم يكن متوقعا بالنسبة للضباط فمنعوا البث، ودخل خالد محمد خالد بيته وقد عرف أى طريق اختاره الحكام الجدد لإدارة شئون البلاد.

ورغم تعارض خط المفكر وخط الزعيم، فإن عبد الناصر حرص كثيرا على حماية الرجل، الذى كان يشترى كتبه ويوزعها على أصدقائه قبل سنوات قليلة، ورغم أن كثيرين حاولوا إثناء أى من الرجلين عن موقفه، إلا أن المفكر والرئيس الراحل، ظلا على مسافة واحدة من القضايا الخلافية، خاصة التى تتبنى مشروعا معينا لإدارة الدولة.

من ناحية ارتكز عبد الناصر على شعبية كاسحة، وثقة مطلقة، أعطاها له ملايين المصريين، واعتمد خالد محمد خالد على كتاباته التى استمرت في السير عكس اتجاه مؤسسة الرئاسة. كان كل من عبد الناصر وخالد محمد خالد على ثقة، أن القادم من الأيام سيثبت خطأ بعض آراء كل منهما، لذلك في المواقف الضخمة كان ما كان.

ننشر الشهادة التاريخية الآن.

هل كنت تتوقع قيام الثورة؟

- لقد هيأت نفسى للثورة، نعم مع غيرى من إخوانى المثقفين حينئذ. لكن حين قامت ثورة يوليو. فرحت بها كما فرح المصريون جميعا، وإن كنت لم أكلف نفسى عناء زيارة مجلس

قيادة الثورة، لأدلل على أن الثورة- كما كان يتردد حينئذ- مباركة، ولم أذهب لمقابلة الضباط القادمين إلى الحكم كما فعل غيرى من المثقفين.. وكنت أترقب كيف سيدير الضباط الصغار أمور الدولة، خاصة أنها وصلت لوضع متوتر جدا فى آخر أيام الملك. وبعد قيام الثورة دعانى محمد فتحى المسئول عن الإذاعة فى ذلك الوقت لإجراء لقاء فى الإذاعة، فحاولت الاعتذار لظروفى الخاصة، لكن المسئول عن الإذاعة قال بوضوح وصراحة، منذ أسبوع وأنا أبحث عنك، أما الآن، فلا ببساطة!، مجلس قيادة الثورة يطلبون ذلك. قال هذا بالحرف الواحد، ومضى، وأصبحت فى حيرة من أمرى، ولم أعرف كيف أتخذ قرارى.

وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا، أن أحد زملاء جمال عبد الناصر- فيما بعد - كان قد أكد لى أنه - أى عبد الناصر - كان يشترى نسخا كثيرة ومن جيبه الخاص، من كتاب «مواطنون لا رعايا» ثم يقوم بنفسه بتوزيعها على زملائه. كان يفعل ذلك بنفسه مبديا إعجابه بالكتاب وصاحبه.. لكن، ماذا حدث بعد ذلك من الثورة.. ماذا فعلت ؟

ظللت أرقب وأراقب طويلا، ثم فوجئت بحل الأحزاب، وتلا ذلك حل البرلمان، ثم جاء دور الدستور فألغى.

وهنا شممت رائحة الاستبداد، والديكتاتورية، والحكم المطلق. تأكد هذا لدى، أنه حين بحثوا عنى كى أتحدث فى الإذاعة، برغبة منهم، اخترت أن يكون ما أتحدث عنه حق الشعب فى المعارضة والمقاومة، وكذلك حق الشعب فى الحرية والاستقلال.

فماذا كان رد الفعل؟

- أوقفوا هذه الأحاديث فجأة. وأدركت وقتها أنهم لا يريدون مثل هذا الكلام، لا عن المعارضة، ولا عن الحرية.

متى كان هذا بالضبط؟

- أعتقد بعد قيام ثورة يوليو مباشرة، أى بعد الثورة بما لا يزيد على ٢٠ يوما فقط وإذا شئنا تحديدا أكثر، فقد كان أوائل أغسطس.

ساعتها أدركت إننا أمام خلاصة المستقبل، وهو أن الثورة انتهت إلى صيغة محددة من صور الحكم هى صيغة الحكم المطلق. كان هذا اختيارا لا اضطرارا، وإذا شئت عذرا فسأقول إنهم اختاروا ذلك، على الأقل فى فترة الانتقال، لكن يظل هذا مجرد عذر لا يلغى الحقيقة التى برهنت الأيام والسنوات على صدقها لأن الحكم كان مطلقاً.

ماذا فعلت بعد ذلك؟

- كان أول ما فعلته أن أغلقت غرفتى على نفسى بالمنزل، وأستعنت بالله كى أنجز فى أقرب وقت كتابا كان عنوانه «الديمقراطية أبدا» وبالفعل، أنجزت هذا الكتاب فى ٢٠ يوما فقط، فقد كنت أرى بوضوح إننى فى صراع مع الثورة التى بدأت عهدها المجيد كما كان يطلق عليها، الديكتاتورية. قلت فى هذا الكتاب ما أريده صراحة حول الديمقراطية.

كيف غابت من حياتنا؟ وما هو المطلوب لإعادتها؟ ولماذا حدث ما حدث؟

وبعد ظهور الكتاب كان صديقى الشيخ أحمد حسن الباقورى، أول وزير للأوقاف فى أول وزارة للثورة، التى كان فيها جمال عبد الناصر وزيرا للداخلية.

أخبرنى الشيخ الباقورى فى لقاء معه أن بعض ضباط الثورة صادروا الكتاب، لكن عبد الناصر رفض.. ومن هنا توالت المؤلفات: سياسية وإسلامية.

هل تذكر حين قال د. طه حسين «ما هذا الحديث الهامشى عن الديمقراطية، أخشى أن يصاب الناس بالبطر»؟ وماذا كان موقفك؟ خاصة وأنت أحد الذين كانوا يتحدثون باستمرار عن الديمقراطية كهدف سام يجب أن يطبق فى مصر بعد الثورة؟

- أذكر هذا الموقف جيدا كما أذكر أنى قلت فى الصحف بعض ما قاله د. طه حسين، وهو ما يحاول البعض نفيه. كان طه حسين قد قال هذا فى حفل بأرض المعارض بالجزيرة، إذا بحثت ستجد المقال، فهو مقال خطير لرجل كبير.

فماذا عن موقف حزب «مصر الفتاة» وقد كان يقال إن خالد محمد خالد كان يميل إليه، خاصة أن له علاقة خاصة بالثورة؟

- لا أعتقد أن حزب مصر الفتاة انضم إلى الثورة مباشرة، كان فتحى رضوان عضوا بمصر الفتاة قبل قيام الثورة بكثير، وكان قد حدث سوء فهم وخلاف مع محمد أحمد حسين فاستقل بنفسه، ولا أعتقد أن «مصر الفتاة» أيدت الثورة قط، لقد قامت الثورة وأحمد حسين فى السجن وحكومة الثورة لم تفرج عنه.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فقد قلت فى جريدة الوفد إننى رفضت محاولات احتواء كثيرة، حاولت أن تستدرجنى، وأقصد بالاحتواء هنا، ما حاولته العديد من الأحزاب والهيئات والجمعيات.

لقد رفضت أن أنضم إلى أحزاب كثيرة بذلت محاولات شتى معى للانضمام إليها قبل الثورة، فى مقدمتهما حزب «مصر الفتاة»، ما أستطيع أن أقوله بضمير مستريح إننى رفضت أن أكون ترسا فى أى عجلة تديرها الحزبية فى مصر.

وذات يوم فوجئت بالرئيس جمال عبد الناصر يرسل لى اثنين (أحدهما كان أبو الفضل الجيزاوى، والآخر فيما أذكر كان جمال الليثى من الضباط الأحرار)، جاءا من عند الرئيس يحملان رسالة واحدة هى: أن أنضم إلى «هيئة التحرير».

وما حدث مع هيئة التحرير تكرر مع الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى، وكان هذا موقفى فى كل مرة أدعى فيها إلى هيئة أو اتحاد، أن أعتذر.

وظل هذا الوضع قائما حتى الانفصال عن سوريا، فشكلت لجنة تحضيرية وكنت عضوا فيها. بعدها حدث ما حدث فى الحوار الشهير مع الرئيس جمال عبد الناصر، والذى على أثره قررت أن أكتب «أزمة الحرية فى عالمنا»، وأرى أنه من المفروض أن يعود من يريد المزيد إلى ما جاء فى محاضر اللجنة التحضيرية بينى وبين الرئيس، وكان ذلك تحديدا فى عام ١٩٦٤.

بهذه المناسبة، ألا ترى أن عبد الناصر ضحى بالديمقراطية من أجل العدالة الاجتماعية؟

- لا أرى ذلك، وهذا الطرح الذى ذكرته يمكن أن يناقش كقضية. لو أن العدالة الاجتماعية لم يكن هناك سبيل لتحقيقها إلا سبيل واحد هو الديكتاتورية، فقد كانت الديمقراطية كفيلة جدا أن تمنح عبد الناصر الشعبية التى يريدها وتمنحنا معه كل خبرات التحول الاشتراكى، وفى نفس الوقت تجنبنا مخاطر هذا التحول الاشتراكى.

ورغم ذلك فإن عبد الناصر حصل على شعبية كاسحة لم يعرفها المصريون طويلا، فالرجل كان رمزا حقيقيا للدولة والناس كانت تتحدث عنه بمبالغات لا يمكن تصديقها، ولا أنسى أنه حقق لمصر إنجازات كبيرة وأخطاء كارثية فى الوقت نفسه.

وما لم أستطع نسيانه أن عبد الناصر وهو يجادلنى كان شديد الذكاء.. أشهد أن عبد الناصر كان شديد الذكاء.لقد كان عبد الناصر يملك «بوصلة» لا تخطئ اتجاه الجماهير.. كان يعرف جيدا كيف يخاطب الجماهير.

هل أضرب لك مثلا؟

- فى اللجنة العليا المركزية كان كل همى الـ ٢٥٠ عضوا، بينما عينا عبد الناصر كانتا على الملايين التى تشاهد التليفزيون..كنت أحدثه، وهو يجيب الجماهير..

حتى حين كان يتأنى ليرد على فى سؤال مهم كان الرد مغلفا، أو يمر بشكل سريع وبذكاء شديد فى وقت يفند فيه تساؤلاتى وكلامى للملايين أمامه. كان أكثر ما لفت نظرى أنه حين كان يتحدث مشيرا إلى قضية العزل، كان يقول: ولماذا أنتظر أنا؟ إن راديو دمشق يقول إن الإسكندرية أعلنت استقلالها، أنا لا أنتظر، أنا «مستعد ألبس الكاكى حالا».

قلت سابقا إن توفيق الحكيم محظوظ، ألا ترى مبررا لهذا الحظ؟

- اسمع، أقولها بصراحة، أن توفيق الحكيم كان حظه أكثر من ذكائه وجهده الفكرى والوطنى.

بصفتك خريج كلية الشريعة بالأزهر كيف ترى علاقة الأزهر بالثورة؟

- بدأت الثورة تسىء إلى الأزهر وتضع الأزهر بشيخه تحت سيطرة ما سموه فى ذلك الوقت «وزير الدولة لشئون الأزهر».

وكان موقف الأزهر - كهيئة وشيخ - يستدعى التوقف والعناية، وأذكر أنه طُلب منى حينئذ أن أكتب مقترحاتى فى شأن تطوير الأزهر وإخراجه من حيز السيطرة، فكتبت بالفعل مقترحات

كنت قلتها شفاهة، وأنا فى مكتب شيخ الأزهر وبدأت حملة فى صالح الأزهر بعنوان «خطابات مفتوحة إلى شيخ الأزهر» وذكرت فيها كل ما يجب أن يفعله الأزهر كدور إيجابى لصالح العرب والمسلمين.

لكن التطوير الذى حدث - فيما بعد - لم يكن هو التطوير الذى كتبت أو نشرت عنه، كان رأيى أن الأزهر يجب أن يظل هو الأزهر، الجامعة المتخصصة فى الشريعة الإسلامية بكل فروعها، اللغة العربية بكل فروعها، العقيدة بكل فروعها.

وكان من الممكن أن يعاد النظر فى وظيفة المتخرج فى الأزهر بجميع فئات الوظائف الدينية. وهذه هى النقطة الأولى فى علاقة الأزهر بالسلطة.

أما النقطة الثانية: وهى خاصة بعلاقة السياسة بالأزهر وتحديدا من حيث سيطرة عبد الناصر على الأزهر..فإننى أستطيع القول إن التطوير لم يفد عبد الناصر سياسيا ولم يكن ليسعى إلى الإصلاح من أجل إحكام قبضته على الأزهر - كما يقال- ومع ذلك فإننى أستطيع القول إن عبد الناصر بغير التطوير خسر سياسيا، حينما لم يقدر للأزهر قدره، ولم يقدر لشيخ الأزهر قدره.

كان عبد الناصر يستطيع أن يجعل من شيخ الأزهر إماما حقيقيا للمسلمين وكان يستطيع أن يشعل الأرض الإسلامية نارا إذا أراد بإشارة من أصابعه.

١٠

أحمد حمروش

أحمد حمروش اسم حفر لنفسه فى ذاكرة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مكانا متميزا.

الرجل عاصر الأحداث السياسية منذ ولادة الثورة مرورا بهزائمها وصراعاتها وإنجازاتها، ونجح فى تكوين صورة عامة أهلته فى رأى الكثيرين كى يصبح أحد أهم المؤرخين لتلك الفترة الحساسة والحاسمة من تاريخ مصر.

والرجل كان شاهد عيان على توتر علاقات الثورة بالمثقفين فى أحداث ١٩٥٤ ومناورات السلطة والمثقفين داخل وخارج السجون. فضلا عن ذلك رأى حمروش سياسة دولة يرسمها يوميا رجل كان وجوده يملأ نفوس الملايين بالثقة والفخر.

نشرت «البديل» هذه الشهادة النادرة لحمروش وكانت بين «أوراقه وملفاته التى حاول فيها تشريح علاقة المثقفين برجال الثورة الذين غيروا وجه السياسة والمجتمع فى مصر، وفى القلب منهم جمال عبد الناصر» كما ترددت هذه العبارة.

من البداية، كان لابد أن نطرح الأسئلة الصعبة..ونسجل الشهادة..

بعد حل التنظيمات الشيوعية فى مصر.. لماذا استبعدك النظام من (التنظيم الطلابى)؟

أجاب الرجل بسرعة: ليس هناك ربط بين حل (أو تجميد) بعض التنظيمات القديمة (مركز

الحزب الشيوعى) فى هذا الوقت وبين استبعادى.. فى النصف الأول من العقد السادس أذكر إننى لم أترك طلبة الاشتراكيين إلا بعد النكسة وبالتحديد عام ١٩٦٨.

فإذا استبعدت.. لماذا؟

- لا أستطيع أن أجزم بسبب الاستبعاد بالضبط، وإن كنت أذكر أن صورة الجلسة الأخيرة .. (بالطبع) كان لدينا إحساس حاد وقلق شديد ومظاهرات للطلبة.. ولدينا شعور إننا نواجه الهزيمة، وأنه من المفروض أن نكون صرحاء أكثر مع القائد جمال عبد الناصر، وأثرت هذا كله فى المناقشة فى اجتماع (طلبة الاشتراكيين) وانضم إلى البعض الآخر من منطلق أكبر، أن نوضح الصورة للرئيس، ثم شكلت لجنة لدراسة الوضع وكتابة رسالة إلى جمال عبد الناصر كان فيها (أنا ومحمود أمين العالم وسامى شرف ولا أذكر الرابع) واجتمعنا فى مكتب سامى شرف ثم عرفنا فى الاجتماع أخبار المظاهرات التى تمت لمحاكمة حمدى محمود عام ١٩٦٨.

وانفض الاجتماع دون أن نكتب الرسالة المرجوة.

وأذكر أن محتوى الرسالة يوضح لعبد الناصر أسباب غضب الشباب، الذين من المفترض أنهم خرجوا من رحم الثورة، والواجب أن يكون هناك توقير حقيقى، ولا يجب أن ننكر دور الأفراد الذى كان قبل النكسة.. إلخ. وأعتقد أن هذا كله تم، إلى انتهت الرسالة ٣٠ مارس (فى وقت صدور بيان نقابة الصحفيين).

هل كان الشيوعيون يريدون على سبيل المثال قيادة الحركة الوطنية فى (التنظيم الطلابى السرى)؟ .

- هذا تحميل للأمور فوق ما تحتمله، فالشيوعى، فى رأيى، وطنى، ورؤيته للوطنيين تثمر شبابا إيجابيا حينما يجد نفسه يؤدى واجبه، ويجد نمطا اجتماعيا يستوعب أفكاره. وأعتقد أن الماركسيين الذين حضروا إلى الاتحاد الاشتراكى مع قناعتهم الشخصية بدور عبد الناصر وزعامته، لم يكن هناك أحد يناطح عبد الناصر فى زعامته، حتى أن فكرة الاتحاد الاشتراكى وتحالف قوى الشعب العربى أصبحت فكرة مقبولة لديهم، لأنها فكرة (جبهوية) فى النهاية بين كل الفئات والطبقات ذات المصلحة فى التغيير الاجتماعى.

إذن، ليس صحيحا على الإطلاق أنه كان هناك لا رغبة ولا فرحة ولا ملمح لهذا، وهذه قناعاتى الشخصية.

ما طبيعة العلاقة التى كانت بين عبد الناصر والمثقفين؟

- العبرة فى الثقافة ليست أن تكون مثقفا كبيرا، لكن أن تكون مؤمنا بدور الثقافة فى بناء المجتمع، كان عبد الناصر من المؤمنين بهذا. وهو أصبح مثقفا كبيرا بخبرته وإطلاعه وتجاربه، ولهذا كان حريصا على أن يعطى ثورة يوليو الوجه الثقافى، وقد كان من المتحمسين والمؤيدين لفكرة وزارة الثقافة فى مصر، كان من المدافعين عن المثقفين المصريين دون أن يعقد لقاءات معهم (مثلا دفاعه عن توفيق الحكيم أثناء مهاجمة رشدى صالح له).

إذن كان باهتمامه مثقفا..لكن يبدو أن التعامل مع المثقفين المصريين كان عملية صعبة - كالتعامل مع المثقفين فى شتى أنحاء العالم - ولو أن الشخص موجود بالشرطة لا يجوز أن تقف أمامه صعاب فى التعامل مع المثقفين بإعطائهم فرصة للتعبير، وحرية أكثر - فهم الذين يثرون المجتمع بالفكر المضىء، فيجب أن نتعامل معهم على هذا النحو. أيضا، فإن ثورة يوليو أبرزت هذا الجيل فى السينما والأغنية والفن التشكيلى، وكلها حصاد من خلال الثورة.. باختصار، الثورة أعطتهم الفرصة ليعبروا.

لكن أن تفكر فى أن الثورة لم تستطع أن تتعامل معهم بالقدر الذى يرضيهم. فهذا محتملا فلم يتم استيعابهم أو احتواؤهم فى تنظيم معين خاص يفجر كل الرغبات والطاقات الموجودة عندهم.

هل تعتقد أن ثمة ثأرا كان قائما بعد الثورة - بالتحديد بعد ٥٤ بين العسكريين والمثقفين؟

- أى ثأر؟ تقييم المثقفين فى هذا الوقت - ٥٤ - تقييم غير مضبوط..كان هناك مثقفون مع اتجاه الثورة - بعضهم ضدها - لأن حركة ١٩٥٤ كانت معركة بين عدة توجهات:

- التوجه الذى كان مع مجلس قيادة الثورة.

- التوجه الذى كان مع محمد غيث والإخوان المسلمين. وأستطيع القول إن التوجه الأول - لمجلس قيادة الثورة - عمره ما قال إنه هيعمل ديمقراطية، لأن القضية الوطنية كانت هى القضية الأولى.

إذن، لا نستطيع أن نقول إن أزمة ٥٤ لم تكن بين العسكريين والمثقفين، فهذا تعميم.. وكان رد الفعل لقرارات مارس أن جميع الناس الذين كانوا معادين لثورة ١٩٥٢ (للتوجه الوطنى والاجتماعى الذى ظهر من أول لحظة) بدأوا يكتبون فى الصحافة ويهاجمون العسكريين.. إلخ، فانكشف فعلا الموقف الطبقى والاجتماعى المعادى لثورة يوليو.

أريد أن أتوقف قليلا عند بواعث أزمة ٥٤، هل كانت للخلاف بين الرجعية والتقدمية أم الديكتاتورية والديمقراطية، أم بين القديم والجديد أم بين الإنجليز والأمريكان؟

- أزمة ٥٤ كانت خلافا فيما بين القديم والجديد فى إطار العسكريين، والقوى الخارجية حاولت أن تمد إلى المعركة على أكتاف الأطراف المتصارعة. مثلا الإخوان المسلمون ركبوا على كتف محمد نجيب والأحزاب: الوطنى الجديد، الوفد..إلخ. بدت المعركة هكذا، لكن المعركة بالفعل كانت ذات مضمون مفهوم اجتماعى وتدخل خارجى.

هل كان عبد الناصر عضوا - بالفعل - فى أى تنظيم حزبى؟

- هذا ما قاله أحمد أبو الفتح، وأيضا حسن التهامى، وحسن رجل لا يؤخذ بكلامه كدليل تاريخى. أنا كنت مسئولا عن سكن الجيش، أقول لك إن هذا غير صحيح وإنه قول مفتعل وهو لم يحدث، وأن عبد الناصر حقيقة كان قريبا من أحمد فؤاد وحركته، لكن فى حدود الصداقة ضمن تنظيم الضباط الأحرار.

مهما تكن الظروف التى فصلتها فى كتابك عن ثورة يوليو لماذا ابتعدت عن السياسة فى هذه الظروف؟

- فى هذا الوقت كان الابتعاد ضرورة. فقد تعودت أن أعمل فى السياسة فى تنظيمات سرية من الأربعينيات من القرن الماضى واستمررت محتفظا بطابع التنظيم السرى، بعد ذلك اعتقلت وخرجت فوجدت أنه من الضرورى والمهم أن أترك التنظيم أو العمل السياسى عموما، لأننى كنت أراقب، فقررت أن أترك التنظيم فأصبح تحركى خطرا على الآخرين وأصبحت غير مقيد بالتبعية فى أن أعمل عملا سياسا، كان فى ذلك الوقت محظورا.

فى رأيك..هل كان الثمن لحل التنظيم الشيوعى فى السجن أن يدخل أعضاؤه فى «التنظيم الطليعى» أو على الأقل أحد أسباب الحل؟

- لم تُحل التنظيمات بمبادرة ذاتية بينهما، لكن كانت تقيمه اتصالات ما بين «طليعة الاشتراكيين» وما بين التنظيمات الشيوعية. ولم تكن هناك عملية يسارية، كانت هناك عملية إخراج، بدأت فى الأول نتيجة الظروف السياسية فى مصر وقبل مجيء خروشوف كان الجميع خارج السجون.

هل قالوا لكم «إذا أردتم الخروج عليكم الانضمام للاتحاد الاشتراكى»؟

- هذا الحوار بين قيادات التنظيمات الشيوعية وبين بعض من كانوا فى طليعة الاشتراكيين وأنا منهم، وعملنا هذه الحوارات وكانت الفرصة متاحة لدخوله لكل الأعضاء.

وربما كانت هناك مساءلة داخل السجن - محتمل - لكننى لم أكن موجودا، وكنت فى الخارج فى طليعة الاشتراكيين وكان هذا بعلم جمال عبد الناصر فأخذت له أسماء الناس.. بعدها لم يتحمس لذلك.

ما مبرراتك وراء: تعاونك مع الثورة وفى نفس الوقت سعيك لإقامة تنظيم شيوعى؟

- أولا، لأننى عشت النظام القائم والاستعمار وقهر الملك للديمقراطية..إلخ. وترتب على هذا تأييد للثورة التى كنت مؤيدا لها وليس مشاركا بقسم الجيش فى «حدتو» أو «حدتو» كلها كانت وضعت إمكاناتها وطاقاتها وتنظيماتها فى تعاون كامل مع الضباط الأحرار، وكان لنا ضابط اتصال وثيق جدا مع الضباط الأحرار وهو أحمد فؤاد كتكليف من القسم وخالد محيى الدين الذى كان عضوا فى الجيش وفى «حدتو» وفى قيادة الضباط الأحرار.

لم نكن مؤيدين إذن وإنما مشاركون..ومشاركون دون علانية فقد كان هناك أفراد فى الجيش لم يعرفوا عنا إلا بعد الثورة.

ما الحدود التى يمكن أن يقال عندها أن المثقف يخرج من بين العسكريين؟

- الثقافة ليس لها حدود فربما يكون هناك طبيب مثقف وضابط مثقف..إلخ، الثقافة تكون

أولا شيئا ذاتيا للإنسان. وثانيا، أن الضباط لما جاءوا فى السلطة استفادوا بالتأكيد من خبرة الحياة وكان الضابط يتكلم فى الاقتصاد والمسرح، الثقافة.

إذن تغير نوعية المهنة عمق الإحساس بالثقافة وهذا كان فى غاية الأهمية. أيضا ، أصبحوا فى مركز المسئولين عن كبار المثقفين فجمال عبد الناصر كان يقود ائمة الاقتصاد فى وزارته.

هنا يصبح الزعيم مجبرا أن يكون مثقفا، الثقافة بالنسبة له كانت معاناة، ومع ذلك كان يحرص على أنه يتثقف ويفتح المجال للمثقفين.

ربما لأنك خلعت الزى العسكرى وتعاملت مع الضباط على أنك من بينهم، وليس من المثقفين؟

- هم كذلك خلعوا ملابسهم العسكرية، لكن الفكرة هى هل هذا العسكرى مدرك لدوره أم أن عيون المهنة العسكرية التى تدفع العسكريين إلى افتراض أن من أمامهم ينفذون التعليمات دائماً؟

كانت تبذل مساعٍ كثيرة لضم المثقفين سواء أكانوا من الإخوان أو اليسار لتنظيمات الثورة «هيئة تحرير، اتحاد قومى، اتحاد اشتراكي..إلخ».. لماذا؟ وهل سعى عبد الناصر شخصيا إلى احتواء المثقفين خلال هذه التنظيمات؟

- كان من أهم صفات عبد الناصر أنه كان شخصية «مجمعة»، وهذا كان أبرز شىء فى معالم شخصيته. شخصية مجمعة قادرة على استيعاب جميع التجمعات، بمعنى أنه فى تنظيم الضباط الأحرار كان يسيطر على الماركسيين والوطنيين والمستقلين..إلخ، كل هؤلاء كانوا يستقلون بتنسيق كامل بزعامته وشخصيته.

وهو صاحب تجربة سابقة، فقد كان يعى دائما ضرورة تجمع المثقفين فى التنظيمات السياسية، لقد كان له تنظيم جهوى.

- النظرية هنا أن عبد الناصر كان يقصد من احتوائه للمثقفين أن يضمهم لصفه، أى لتنظيمه السياسى، فالصحف تكتب على نظامه، والقانونيون والمهندسون..إلخ يعملون له وتحت لوائه؟

- كيف يمكن أن يحتوى مثقفا يؤمن بفكره؟

إذن كيف يمكن تفسير مساومة عبد الناصر العديد من المثقفين من أجل احتوائهم؟

- هذه لم تكن مساومة، إنما حين يكون لى رأى كمثقف وككاتب لا يستطيع أحد أن يشترى رأيي. وأنا أوافقك حين أقول رأيى تحت مظلة النظام، فهذا يختلف حين أقوله خارج مظلة هذا النظام..أنا لا أستطيع أن احتوى مثقفا له حريته الكاملة.

أنت بالتحديد..ما طبيعة العلاقة بينك وبين تنظيمات عبد الناصر السياسية، الاحتواء أم المشاركة؟

- أنا لم ارتبط بتنظيمات عبد الناصر لا هيئة التحرير ولا الاتحاد القومى، وإنما اشتركت فى طليعة الاشتراكيين بناء على طلب عبد الناصر شخصيا.

وأنا كنت مؤمنا بذلك فى هذا الوقت، لأننى كنت أساهم فى العمل مع ثورة يوليو فى المسرح أو الصحافة، مؤمنا فى الوقت نفسه بوجهة نظرى، مؤمنا بالمثل الذى يقول «ليست الشجاعة أن تعتقد فيما تقول، ولكن أن تقول ما تعتقد». وادعى إننى لم أكتب كلمة نفاق لأحد، وقد أكون مخطئا لكن هذه قناعتى التى أستطيع - حتى هذه اللحظة- أن أدافع عنها فى ظل الظروف التى قيلت فيها، ولذلك لم اشترك إلا فى طليعة الاشتراكيين.

إذن لم يكن من أهداف التنظيم احتواء المثقفين المصريين غيرك أنت؟

- لم يكن أنا فقط، كان معى أيضا عبد المعبود الجبيلى، وأيضا محمود أمين العالم بعد خروجه من المعتقل فدخل أمانة الاتحاد الاشتراكى وطليعة الاشتراكيين.

هل هناك فرق بين الشيوعية واليسار الوطنى؟

- فى رأيى أن اليسار متعدد الدرجات: هناك يسار يعتقد أن تعاونه مع اليسار الوطنى لوضع خبراته عند هذا النظام لتغيير المجتمع للأفضل، وهناك يسار آخر سرى يريد أن يضع نفسه فى إطار، وغرف مغلقة متخيلين أن هذا أفضل للتغيير.

أنا شخصيا من الذين يميلون - بعد أن أصبحت متيمنا - إلى أن أضع خبرتى فى أى اتجاه يخدم البلد، وهو تعاون مطلق على ألا يكون فى طرف نظام مثل نظام السادات، فأنا معتقد أن

السادات كان يعمل ضد مصلحة المجتمع، والشعب، وأنا الآن أتعاون مع النظام من قناعتى أن مبارك يؤدى دورا وطنيا.

لماذا أدانك بيان حدتو؟

- لم يحدث.. ربما كان هذا فى فترة عام ١٩٦٤، لما فيها من زيادة الحس القومى، فخرج بيان ليس من حدتو بمهاجمتى، لكن بعد الثورة، أذكر أن كمال عبدالحليم «قال فىّ شعرا»، لما اتمسكت خاصة من عام ١٩٥٣.

ما السبب الحقيقى - غير المكتوب - وراء عزلك من مجلة «التحرير»؟

- السبب الحقيقي..تدخل بعض العناصر الغريبة من مجلس قيادة الثورة بدفع أو بتوجيه من بعض التيارات الأجنبية، بمعنى أنهم شافوا إن مجلة «التحرير» لها توجهات يسارية، وإن كنا فى موقف وطنى، وكان هناك الاستعمار البريطانى، وأذكر إن أنور السادات قال لى فى يوم ما - أثناء تولى مجلة «التحرير» - وقال هذا الكلام الذى نقوله الآن، سخرت منه. قال لى: انتوا راسمين حمامة؟ قلت له: دى حمامة عادية وليست حمامة السلام كما تراها.

حسب معلوماتى أن جهات أجنبية ضغطت من أجل أن أبعد، فجمال عبد الناصر بحساباته رأى ألا أكون موجودا.

هل سعى أحمد فؤاد - كمثقف - إلى الاتفاق مع عبد الناصر؟

- كان أحمد فؤاد المسئول الثقافى لقسم الجيش ومعى قبل الثورة فى «حدتو».. والسبب فى تعاونه مع عبد الناصر أنه شخصية وطنية. إنه موقف إنسانى قام به موظفون لعبد الناصر لا موقف انتهازى.

١١

اسماعيل صبرى عبد الله

لم يترك لنا الرجل فرصة لوضع التساؤلات بين يديه، أو تركه أمام التاريخ – المسجل ليدلى بشهادة فى أهم فترات تاريخنا فى العصر الحديث.

تحدثنا طويلا، أشرت إليه بالكثير من المواقف المحيرة الملتبسة فى علاقة اليسار بعبد الناصر بشكل خاص، وعلاقته هو كمثقف يسارى بشكل أخص، احترمنا مبادرته، وصمتنا..

ورحنا نسجل الشهادة

حين يسألنى أحد لماذا ترككم عبد الناصر تكتبون ما تريدون..أجيب:

لأننا دفعنا ثمن الحرية مقدما فى السجن..

يبدو أننى لا أستطيع صبرا على هذا المثقف الكبير، فلابد إرسال عدة إشارات مهمة تمنحنا فهما أعمق لشهادة الرجل..

إسماعيل صبرى عبد الله، أحد المثقفين القلائل الذين اعتبرتهم الثورة وزعيمها محل ثقة مستمرة مهما اختلف الرجلان. فالرجل الذى لمع اسمه كثانى اثنين فى الحزب الشيوعى المصرى ثم فى مظاهرات ١٩٤٦، عاد إلى القاهرة من بعثة دراسة عام ١٩٥١ ليكون شاهد عيان على الثورة ورجالها. عاصر إسماعيل صبرى عبد الله، عبد الناصر، ربما كما لم يعاصره مثقف آخر.

عرف السجن فى عهده وتعرض لتعذيب مأساوى رفض باستمرار الحديث عن تفاصيله وأصر على أنه «ثمن للحرية». هذه الطريقة فى معالجة الأمور جعلته يتخذ على الدوام موقفا ناقدا لنفسه وللتيار الذى ينتمى إليه. ورغم الخلافات الكثيرة بين زعيم ثورة ومثقف كبير، إلا أنهما التقيا فى كل منعطف وطنى حول مبادئ عامة أصبحت فيما بعد سياسات تنفذ على أرض الواقع.

قد يكون من المهم هنا أن نشير أننا نشرنا هذه الشهادة فى جريدة «البديل» ولقيت اهتماما كبيرا من شهود العصر ومجليه.. لنعد إلى المثقف الكبير.. لنقدم السؤال..

الكثيرون - وأنا منهم - مندهش من انتمائك السياسى؟

- أنا من أسرة مشتغلة بالسياسة ومهتمة بالثقافة معا، كان أبى عمدة، لكنه كان يملك مكتبة بها كتب التراث الكلاسيكى العربى.. أما إخوانى الذين يكبروننى فكانت لديهم مجموعات كاملة من المختار والرسالة والثقافة والمقتطف والهلال.. إلخ فضلا عن مؤلفات طه حسين وأحمد أمين وغيرهما.

أما عن التناقض الذى يأتى من أن أبى كان «عمدة» وأنا قناعتى ماركسية، فأقول لك ليس هناك تناقض فى هذا، وماركس حللها قديما حينما قال: إن الناس من أصول برجوازية دائما ما يتبنون الفكر الاشتراكى. ومن واقع الأمانة الفكرية: أقول هذه ظاهرة فكرية، وأنا أدرك فى هذا أن هناك عددا من المثقفين ينتمون إلى هذه الطبقة العليا منهم محمد سيد أحمد وشريف حتاتة ونبيل الهلالى. هنا اسأل، وهل هناك علاقة ما بين المستوى الاجتماعى والاقتناع الفكرى؟، بالطبع هناك علاقة بينهما فحين أتبنى الماركسية، فإننى أحدث قطيعة مع الفكر الطبقى الخاص بأسرتى، إذ يمكن أن يكون البرجوازى الصغير اشتراكيا ولا يتخلى بالضرورة عن طبقته، ومن يكون اشتراكيا حقيقيا يكون موقفه الطبقى حاسما.

من كان صاحب فكرة إنشاء الحزب الشيوعى المصرى أنت أم فؤاد مرسى؟

- فكرنا معا فى إنشاء الحزب فى باريس أثناء البعثة، لكنه عاد إلى مصر قبلى، فبدأ الخطوات العملية فى التنفيذ، وحين عدت كان الحزب مكونا بالفعل.

أما دورى فى أحداث ١٩٤٦، فإن الأحداث التى كنا موجودين فيها فى نهاية الحرب العالمية الثانية، والمفاهيم التى أشاعها الحلفاء فى الحرب ضد الفاشية على أنها حرب تحرير كل الشعوب قد وضعتنا فى المنطقة المتقدمة للفكر. ومن هنا، كان فكرنا متقدما عن فكر الجيل الذى سبقنا، فقد كانت لنا قراءات عديدة فى هذه الكتب التى كانت تصل إلى جيوش الحلفاء فى القاهرة، وكانت الفرصة أمامنا للتعرف عليها، ولولا ذلك لم يكن من السهل أن نعرفها.. وهذه هى الفترة التى عرفت فيها مجلات إنجليزية عديدة.

فى هذه الفترة عرفنا القضية الوطنية واستقلال مصر فى البداية، أما البعد الاقتصادى الاجتماعى الذى نما عندنا وعمق فكرنا، فكان هو البعد الجديد الذى تطور فى هذا الوقت، فعرفنا أن الاستعمار ليس ظاهرة سياسية فقط، وإنما أيضا ظاهرة اقتصادية فى الأساس. وكنا نقول وقتها إن الجلاء عن مصر لابد أن يكون عسكريا وسياسيا واقتصاديا، ولم نكن نعرف مفهوم (التنمية المستقلة) كما نعرفها الآن.

وابتداء من البعد الاقتصادى، اكتشفنا تشابك المصالح بين الفئات البرجوازية الكبيرة المصرية والمحتلين والقصر بالطبع، فأولى القضايا كانت الموقف ضد الملك، ثم فى ١١ سبتمبر ١٩٤٥ وكان عيد ميلاده، وتكسرت كما نعرف الترتيبات المعمولة له، وحينئذ حسمت قضية الملك وكان هناك تحالف موضوعى من الماركسيين والوفديين فى الجامعة لمواجهة الإخوان.

عدت من بعثتك الدراسية عام ١٩٥١ وبعدها بسنة واحدة قامت الثورة فكيف نظرت كماركسى لما حدث؟

- فى البداية كان الجميع سعيدا بالثورة وكان شعارنا هو التآخى بين الثورة والجماهير حتى إعدام خميس والبقرى الذى كان نقطة التحول.

فقبلها كان لدينا تصور مفاده أن حركة الضباط سوف تستمر فى الحكم مع التأييد الجماهيرى الكبير ثم تنفذ سياسات واضحة ولا تفرضها بالقوة، حتى حدث الإعدام فاعتبرنا حكم الثورة، «فاشياً».

وبعد خمسة عشر عاما من ذلك عرفنا أن التصديق على حكم الإعدام على خميس والبقرى صدر باسم الأغلبية عدا جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ويوسف صديق.

وكنا نعرف أن «حدتو» كانت على اتصال ببعض الضباط، لكن حين تتصل حركة سياسية ببعض الضباط يظهر هنا العامل التآمرى.. هذه هى الظروف التاريخية.

وعبد الناصر نفسه كان مسلما بها، وأنا فى حديثى عن القطاع العام أشرت إليه، فقلت إن الثورة بين عامى ١٩٥٢-١٩٥٥ حاولت بناء تنمية رأسمالية بالتعاون مع الغرب، وحين اصطدمت بعقبات بدأت تنحرف عنها، وعبدالناصر كان موافقا على هذا. وأذكر إننى فى ندوة «٢٣ يوليو» التى عقدت بإشراف محمد فائق تحدثت عن التنمية فى عهد عبد الناصر وأشرت إلى عدة مراحل، منها مرحلة بناء رأسمال مصرى بالتعاون مع الغرب، وبصفة خاصة أمريكا واستخدام أمريكا ضد إنجلترا.

قلت هذا حينئذ فى وجود على صبرى وغيره ممن عقبوا على الندوة ولم يعارض أى منهم. هذا هو الإطار التاريخى الذى تم فيه هذا الخلاف المأساوى بين عبد الناصر واليسار. وأعتبر أن المسئوليات متبادلة فى هذا، نحن لنا أخطاؤنا وهو له أخطاؤه، لهذا فإن تقديرى الشخصى، إن هذه الفترة مأساوية فى تاريخ مصر لأنها حكمت العلاقة بين الثورة والشيوعيين لفترة طويلة.

فعبد الناصر لم يحاول أن يتصل بأحد من اليسار ليعرف وجهة نظره، وأيضا، يمكننا القول هنا إن عبد الناصر نفسه كان ضحية «victim» لحملات بعض الشيوعيين، فعبد الناصر كان يتابع ويقرأ كل بياناتنا ويحاول أن يطبق شعاراتنا..وهو ما بدا يتضح بعد ذلك، لقد أثرنا فى تفكير عبد الناصر بدون شك، حتى ونحن فى السجون.

تتذكر فترات اعتقالك جيدا فكيف كان دور اليسار من داخل الزنازين؟

- سجنت مرتين فى عهد عبد الناصر، الأولى فى عام ١٩٥٦ حيث تعرضت لكم هائل من التعذيب، والثانية من ١٩٥٩ وحتى ١٩٦٤، وهى فترة قاسية قضيتها فى سجن القلعة «السجن الحربى» ثم أبوزعبل. فى ذلك الوقت كنا نرى الديمقراطية على هذا النحو: خالد محمد خالد ومحمد نجيب مع الديمقراطية وعبدالناصر وآخرون ضدها.

وأنا أعرف أن الديمقراطية لم تكن تعنى لنجيب سوى عودة اختصاصاته المسحوبة منه. وأذكر أن شكوكو أضحك الناس بتقليده على المسرح.

لكن بوضوح أستطيع أن أقول إنه فى ظرف أو مجتمع لا توجد فيه ديمقراطية كانت القوى السياسية لا تعرف قدراتها جيدا.

وأذكر إننى قابلت عمر التلمسانى فى عنبر المعتقلين فى قصر العينى فقال لى: حديثك يختلف تماما عن الصورة التى رسمتها عنك فأرد عليه: خصومنا المشتركون نجحوا فى أن يرسموا عند كل منا صورة مشوهة عن الآخر كى يحاربه ويربح النظام.

كيف سارت علاقتكم بعبد الناصر بعد ١٩٦٤؟

- عبد الناصر لم يكن لديه مشكلة كبيرة بالنسبة لنا، بل تأكد مركزه القيادى، أصبح «معلم» كبير لا ضابط صغير، ولديه شعبية وقيادة دولية..إلخ.

فقط الذين كانوا حول عبد الناصر كانوا يرون إننا منافسون احتماليون على مراكزهم. وأذكر أن عبد الناصر فى اجتماع معنا فى جريدة الأهرام قال بوضوح شديد: «إن الناس اللى بتشتغل فى السياسة خايفين منكم، بيقولوا إحنا لو فتحنا لكم الباب هاتكلوا منهم التنظيم السياسى». هكذا قالها بهذه الصراحة ثم قال: «أنتم صنعتم التبشير بالاشتراكية مثل القديس سان بيترز» والذى أستطيع أن أعلق عليه هنا، أنه رغم بعض الإجراءات العملية التى اتخذها ضدنا، فقد كان يحترمنا بالقطع.

تتحدث إذن عن طبيعة هذا «الولاء» عند عبد الناصر؟

- فى هذا أذكر أننا حين خرجنا من السجن وبدأنا نكتب فى مجلة «الطليعة»، كانت هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى نقد بعض الناس قالوا: لماذا يترككم عبد الناصر - أنت بوجه خاص - تكتبون؟ كان السؤال الذى وجه إلىّ، وكان على أن أجيب بأن: لأننا دفعنا ثمن الحرية مقدما، لقد سجنا فى سبيل الحرية.

هل سعى إلى استقطاب المثقفين أو السيطرة عليهم؟

- كان جمال عبد الناصر يتعامل معنا كماركسيين، وكان يود أن نستوعب فى الجهاز الطليعى الذى كان قد أمر بإنشائه، والواقع أن الذين كانوا حول عبد الناصر كانوا يكرهوننا نحن

الشيوعيين. ونحن داخل السجن خرجت كتب كثيرة لهم عن الاشتراكية العربية..وما إلى ذلك، ولما طلعنا نحن «الاشتراكيين الحقيقيين» وبدأنا نكتب، فأصبح أولئك المدعين، فى موقف حرج. وبعد صدور قرابة أربعة أعداد من مجلة الطليعة كنا مهددين بالإغلاق، وأقول بوضوح شديد إنه لولا حماية جمال عبد الناصر بشكل شخصى، لكان نالنا الكثير من العبث. وأذكر أنه مرة كان عبد الناصر يعالج فى روسيا - وكان عدد الطليعة فى أغسطس عن حركات الشباب فى العالم فى فترة ١٩٦٨، فلما نشرت قالوا لعبد الناصر إن الطليعة تحرض الطلبة فى الاستمرار فى المظاهرات، وأصدرت هذا العدد فى الشهر الذى كان من المقرر أن يبدأ فيه العام الدراسى فى الجامعة، فماذا أجاب عبد الناصر، قال لهم بوضوح - هاتوا العدد لى أقراه. فى الستينيات من القرن الماضى كنا مسلمين تسليما مطلقا بقيادة عبد الناصر.

١٢

مصطفى أمين

مصطفى أمين وعبدالناصر رجلان اقترن اسماهما بأكبر صراعات السلطة فى مصر وأكثرها عنفا وتعقيدا. الصحفى المحترم أمام قائد سياسى ذى خلفية عسكرية. الاثنان لعبا سويا بذكاء شديد. الصحفى نجح فى أن يظل نجمه عاليا حتى ولو قرر العسكرى أن يحجمه بالسجن.والعسكرى ظل زعيما مطاعا ومحبوبا ومرهوب الجانب حتى بعد وفاته. خط الصراع بين الرجلين كان مزيجا فريدا قدر له فيما بعد أن يشكل خريطة مصر السياسية. فمصطفى أمين الذى ينتمى قلبا وقالبا لمهنة البحث عن المتاعب حقق إنجازاته الشخصية وواجهته المتاعب التى تبحث عنها مهنته.

وجمال عبد الناصر العسكرى الصعيدى ذو الخط الوطنى الصارم نجح فى الاحتفاظ بصورته كرمز لمجموعة مبادىء وسياسة حكم رأت أن الطريق إلى المستقبل يمر عبر قرار واحد يمسك الرئيس بخيوطه جميعا.

ولد مصطفى أمين فى ٢١ فبراير ١٩١٤ وتوفى فى ١٣ أبريل ١٩٩٧ وصنع فى تاريخ الصحافة..

منذ البداية راح مصطفى امين يقول ونحن نوجه إليه الأسئلة المحيرة: المعلقة..

فما الذى حدث - إذن - لكى تعاديك الثورة؟

لنبدأ الشهادة

الذى قدم البلاغ ضدى شخص اسمه محمود صدقى، وكان محررا فى جريدة (المصرى) عند أحمد أبو الفتح، وبناء على هذا البلاغ، قام ثروت عكاشة باعتقالى، والمعروف أنه كان بين أحمد أبو الفتح وثروت عكاشة علاقة عائلية. وكانت التهمة التعامل مع المخابرات الإنجليزية، وقد يكون من المهم هنا أن أذكر أن محمود صدقى قدم إلى محكمة الثورة - بعد ذلك - وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاما.

ما شهادتك عما حدث للسنهورى؟ وبشكل أكثر دقة : هل تصدق الشائعة التى راحت تؤكد أن جمال عبد الناصر كان وراء المؤامرة، أو أن عبد الناصر كان وراء دفع مبالغ للعمال لتنفيذ هذا المخطط ضد رئيس مجلس الدولة؟

- أستطيع أن أقول إن وراء هذا كله كان أحمد أنور رئيس البوليس الحربى.. لقد كان أحمد أنور هو رجل عبد الناصر.

هل هذا يؤكد، ما قيل أن عبد الناصر دفع وقتها ٤٠٠٠ جنيه لمن قام بتنفيذ هذه المؤامرة.. هل هذا صحيح؟

- لا أعرف، لكن ما أعرفه جيدا، إن أحمد أنور لايتحرك من هنا للباب إلا بأمر عبد الناصر.

ثابت أنك أوعزت لعبد الناصر ليزور السنهورى بعد الاعتداء عليه مباشرة، لماذا؟

- لأنه، حين حدث هذا الاعتداء، حدث أثر سيىء جدا فى الرأى العام، لأن كل القضاة فى مصر، بل وكل مثقفى مصر.. اعتبروا هذا اعتداء عليهم جميعا. وكان بودى أن أنبه رئيس الجمهورية أن هذا شىء خطير جدا ولابد نعمل حاجة - قلت لعبد الناصر - لكى نهدىء النخبة وفى الوقت نفسه نُبرىء السلطة الحاكمة:

- لابد أن تزور السنهورى فى المستشفي. وبالفعل، ذهب عبد الناصر إلى المستشفى ليجامل السنهورى، غير أن زوجة السنهورى رفضت أن يدخل عبد الناصر، وقالت بالحرف الواحد: هو أنت تقتل القتيل وتمشى فى جنازته. وعاد عبد الناصر إلىّ، قال لى: شورتك كانت مهببة. لنقترب أكثر من المثقفين: ألم يكن للسنهورى أى أغراض سياسية دفعت به إلى مساعدة الثورة

أول قيامها ووقف مع من نادى بما يسمى (الفقه الثورى) حينئذ؟ - لا، أبدا السنهورى لم يكن ليهتم بأى شىء إلا بالقانون والقانون كان هوايته الوحيدة، والأثيرة، لم يكن ليهتم بأحد غير القانون، يعنى هوايته الحقيقية كانت هى القانون، أنا أعرف السنهورى بشكل جيد جدا.

قبل أن نستكمل قضية السنهورى، أريد العودة لما بدأنا به معك لسبب القبض عليك لأول مرة إبان قيام الثورة؟

-كان هناك بلاغ يقول إن مصطفى أمين وعلى أمين اتصلا تليفونيا بوكيل وزارة الخارجية البريطانية فى لندن، وطلبا منه أن يتدخل الجيش البريطانى ضد الثورة. وبناء على هذا البلاغ تم القبض علينا معا، فضلا عن أن رجال الثورة فى ذلك الوقت كانوا مشغولين بعزل الملك، وبعد الانتهاء من ذلك بعثوا بقوة لموظف مصلحة التليفونات وطلبوا منه البدء فى البحث فى المحطات التليفونية عن هذه البرقية التى قيلت إنها أرسلت للإنجليز، وأسفر البحث عن لا شىء، لم يعثر على مثل هذا الاتصال لا قبل ٢٢ يوليو ولا بعده. وحينئذ، أذكر أن أنور السادات جاء إلىّ فى المعتقل وأخبرنى أنه سيتم الإفراج عنا، وذهبنا بعد الإفراج إلى محمد نجيب - وكان الشخصية الكبيرة الظاهرة فى ذلك الوقت - وقال لنا إن العملية خطأ، وسوف نحقق مع المسئول على الفور. وتم الاتفاق على عمل «اعتذار» يذاع ترضية لنا لعدة مرات فى الإذاعة. فى هذا الوقت كان يمكن الاعتراف بالخطأ.

حين قمت برصد كتاباتك منذ إشرافك على صحيفتى «الأخبار» و«أخبار اليوم» لاحظت التعاطف الصريح والواضح منك لجمال عبد الناصر فكيف كانت علاقته بك؟

- كان رأيى الشخصى منذ البداية، أن اؤيد جمال عبد الناصر لماذا؟

الإجابة، لأننى عرفت عبد الناصر قبل الثورة.

عبد الناصر صوت للديمقراطية فقد عرفته لأول مرة فى بيت أم كلثوم، وفى حفلة كانت أقامتها لرجال ثورة فلسطين، أذكر أن إبراهيم بغدادى أجلسنى مع عبد الناصر وتحدثنا معا طويلاً. كنت أعرفه إذن من زمن طويل قبل الثورة، وحين جاءت الثورة، وعرفت أنه قائدها.. فى تلك الفترة الأخيرة قال لى جمال عبد الناصر إنه حدث شبه استفتاء أو اتفاق بينه وبين بقية

زملائه، فأصر الجميع على اقتفاء أثر الديكتاتورية، بينما هو وحده الذى آثر الديمقراطية، هو الوحيد الذى صوت لها. لم يكن ليخطر على بالى فى ذلك الوقت أنه عاملها «مناورة»، وذكر أن كل رجال مجلس قيادة الثورة وقتها كانوا قد أكدوا لى هذا، وللحقيقة، فإننى لم اكتشف خطورة عبد الناصر إلا بعد عدوان ١٩٥٦ على مصر. وإن تأكد هذا منذ فترة مبكرة حين بدت «أنياب» عبد الناصر وإن لم تكن لتبدو للجميع على المستوى الشخصى. لقد قمت برحلة كان يمكن أن أموت فيها، حين أرسلنى عبد الناصر بطائرة خاصة من أجل مصر إلى خارج مصر فى مهمة خاصة للثورة. وبعد المخاطرة والعودة إلى أرض الوطن، سألنى عبد الناصر فى المطار، وفى امتنان:

- «قل لى ماذا تطلب؟ أى شىء تريده سوف أحققه لك على الفور».

- فقلت لجمال عبد الناصر: «أريد العفو عن الشعب المصرى»،

اندهش وهو يسألنى: «هل أنا ضد الشعب المصرى، ماذا تريد بالضبط؟».

أجبت بهدوء: «أريد عودة الحياة الديمقراطية» وظل عبد الناصر يحدق فى فترة، ثم انطلق يحدثنى عن الصراع الدائر بينه وبين عبد الحكيم عامر، وبعد ١٨ يوما عاد عبد الحكيم عامر من البحر الميت، وانتهت الأمور، ولم يعد يحدثنى عن صراعه مع عامر، ولم يحقق لى أى طلب.

فما هى ملامح العلاقة بين عبد الناصر والمثقفين؟

- ربما كان أهم مثال على هذا قضية «أهل الثقة وأهل الخبرة»، هذه القضية التى بدأت منذ فترة مبكرة وحددت توجه الثورة وأستطيع أن اؤكد إنه على العكس مما هو شائع، فقد عرض المثقفون على عبد الناصر أن يعملوا معه منذ فترة مبكرة ويتعاونوا معه. كان المثقفون فى أعماقهم يتمنون التعاون مع عبد الناصر، لكن عبد الناصر لم يهتم بذلك. أذكر إننى سألته مرة:

- «لماذا يا سيدى الرئيس حين يخلو منصب وزير تقوم بتعيين عسكرى وليس مدنى مثقف مثلا بدلا منه؟».

كان عبد الناصر يجيب دائما:

- «إن العسكريين أكثر طواعية لى من المدنيين، العسكرى لما أقوله «فوت من الحيطة دى» يسمع الكلام، إنما حين أقول لك انت كمدنى «فوت من الحيطة دى.. » سوف تتردد، وتدخل فى حوار معى قبل أن تفكر. فأنا أريد من ينفذ الأوامر، والضباط هم أكثر من غيرهم سمعا وطاعة للأوامر. وقد ظلت هذه الفجوة بيننا دائما، وأذكر إننى قلت له فى عام ١٩٦٤:

«أنت الزعيم الوحيد فى العالم العربى الذى يستطيع أن يعمل ديمقراطية؟».

فقال «حعمل ديمقراطية بعد ٣٠ عاما، أنا أبويا عاش ثمانين سنة، وجدى عاش تسعين سنة وأنا لسه قدامى كتير».

لنقترب أكثر من هذه العلاقة، والتعرف على مزيد من فلسفة السلطة بالنسبة للمثقف حينئذ؟

- احترام الحاكمين للمثقفين كانت سمة أكيدة منذ قبل الثورة. وأذكر إننى كنت يوما فى منزل سعد زغلول، وجاء ثروت باشا وعبدالقادر حمزة وعباس العقاد، سألت سعد زغلول، الثلاثة يستأذنون الدخول، من يدخل أولا، أجابنى بسرعة: «عباس العقاد» وأذكر أيضا إن سعد زغلول فى الحفلات الكبيرة والمناسبات المهمة كان يتعمد أن يجلس بجانبه العقاد. والحقيقة أكثر إن عبد الناصر كان أكبر الديكتاتوريين بين زملائه، لذلك لم يكتشفه أحد من زملائه قط. لقد خدع كل زملائه وخدع الجميع - كان عبدالناصر أذكى زملائه، لذلك - وهذا هو التفسير - لم يكتشفه أحد من زملائه قط.

نشرت بعض مجلات أخبار اليوم جريدة «آخر لحظة» وهى ملحق «آخر ساعة» التابعة «لأخبار اليوم» وكان هذا فى بدايات الثورة أن فؤاد سراج الدين وضع رجال الثورة فى جيبه مما أدى إلى إلغاء الميعاد التالى المقرر بين عبد الناصر وسراج الدين.. ما رأيك فى ذلك؟

- الحكاية أن عبد الناصر حين أراد إلغاء الميعاد أعطى «أخبار اليوم» هذا الخبر ليكون حجة له أمام أعضاء مجلس قيادة الثورة. فقد كان هناك بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة «منهم يوسف صديق وخالد محيى الدين» توافين لهذه المقابلة لإعادة الحياة الديمقراطية.

لماذا نشرت أنت مثل هذا الخبر وأنت تعلم مدى بعده عن الصواب؟

- لما رئيس الدولة يقول لك فيه «كذا وكذا..» هل تستطيع أن ترفض؟

ألم يكن باستطاعتك إلقاء الخبر أو إهماله مادام كان كاذبا، أم كان هذا غير ممكن؟

- غير ممكن.

هل يوجد تفسير لموقف المثقفين السلبى من النظام بعد ثورة ١٩٥٢ كطه حسين وتوفيق الحكيم؟

- المثقف دائما ضعيف أمام القوة وفى وجود الخوف لا وجود لأى موقف شجاع. وإننا نلاحظ فى هذا الصدد أن القيم الفكرية والأدبية كانت مزدهرة ومتألقة قبل الثورة، لماذا؟ الإجابة، لأن المناخ كان يقدر المثقف، أما بعد الثورة، فقد كان الخوف من المثقف يقترن به العنف معهم، بعد الثورة كان هناك عملاق واحد وعديد من الأقزام. إذن، فموقف الحكيم بعد رحيل عبد الناصر، والوثائق التى نشرها تؤكد أنه لم يكن ليمتلك غير السمع والطاعة. لقد كان عبد الناصر عنيفا جدا. وأذكر إنه قال لى أكثر من مليون مرة إن الصحافة عنده، بالنص: كالمدفعية، وكما إننى أحاول فى الحرب أن استولى على قاعدة المدفعية، فإننى استولى بالقدر نفسه أيضا على الصحافة والصحفيين. الصحافة عند عبد الناصر تستطيع أن تعمل انقلابا وأعتقد أن هذا يفسر موقف ثورة يوليو فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى من المثقفين إنها فلسفة القوة.

اليسار يقول إن «الأخبار» كانت تشعل المعارك دائما بين القوى الوطنية واليسار.. هل هذا صحيح؟

- غير صحيح.

فما هى الدوافع خاصة بعد انقلاب «الشواف» بالعراق؟

- كان الموقف من الشواف هو وجهة نظر مصر الرسمية، فعبد الكريم قاسم يريد أن يقلب العراق دولة شيوعية، وحين قامت ثورة الشواف أيدت مصر الشواف، ولما جاء عدد من الكتاب

المصريين ليؤيدوا عبد الكريم قاسم اعتبرتهم الثورة ضدهم، وأنا شخصيا غير شيوعى ويمكن أن أوافقك على أن الموقف الرسمى للدولة كان يتلون بسبب الظروف العربية والعالمية.. وليس عن قناعة شخصية فى جميع الحالات. كان عبد الناصر عنيفا جدا مع الشيوعيين خاصة فى أول الأمر، ولما سمح لمجلة الطليعة بالصدور بأصحابها الشيوعيين قال لى: «أنا عملت ورقة تغرى الذباب كله بالوقوع فيها وأمسك بهم كلهم بدل ما ينزلوا تحت الأرض». قال لى هذا بالحرف الواحد: «فلم يكن عبد الناصر مقتنعا لا بالشيوعيين ولا بالإخوان ولا بالرأسماليين».

إذن إلى من ينتمى عبد الناصر فى رأيك؟

- كان ينتمى إلى نفسه فقط.

١٣

لطفى الخولى

كان لابد أن نبدأ معه لاعتبارات أيديولوجية وسياسية جديدة من «حدتو».. أول حزب شيوعى مصرى فى الأربعينيات من القرن الماضى.. تأمل فى الورق طويلا ثم قال:

بداياتى .. فى «حدتو»

قبل كل شىء، تربيت سياسيا فيما يمكن أن نسميه (بمدرسة الحزب الوطنى)، فقد كان والدى من أعضاء الحزب الوطنى، وتأثرت بأفكار ومواقف هذا الحزب، سواء من ناحية الوطنية المصرية الجارفة أو العداء للاستعمار، والعداء للأسرة المالكة؛ فى هذا الإطار كان عندى نوع ما، أو اقتربت فى وقت من الأوقات من بعض ما يمكن أن يسمى (بأفكار) فتحى رضوان وأحمد حسين .. أى تحددت قناعاتى فى المجمل العام فى أنه لابد من «تنظيم حديدى» لمواجهة الاستعمار وسياسيى مصر وحكامها فى هذا الوقت.

وهذه كانت عندى المرحلة الرومانتيكية فى الفكر..

أكثر ما استفدته من هذه المرحلة هو الخوض فى التاريخ المصرى، ليس فقط التاريخ الحديث، بل التاريخ الإسلامى والفرعونى فى مصر.. وغيره من المراحل والطبقات المتعددة فى هذا التاريخ.

فهذه الفترة حملت عندى نوعا من الأساس الفكرى التاريخى..

فى هذا التيار كان المجتمع المصرى مجتمعا حيا يموج بشتى التيارات.

فى هذا الإطار، أتاحت لى الظروف أن أكون على اتصال بعدة تيارات متعاقبة:

١) اتصلت بالدكتور محمد مندور، وهو ما أتاح لى الربط بين الجانب الأدبى والفنى والسياسى الوجودى فى تفكيرى..

٢) اتصلت «بكوكب الشرق» الجريدة، وقد كان (على الغاياتى) حقيقة من الحزب الوطنى، ولكن كان معروفا بالاتجاه الإسلامى والعروبى فى آن واحد..

٣) اتصلت أيضا بجماعة صحيفة المصرى أحمد أبو الفتح وغيره.

واكتشفت فى هذا الوقت إننى أصبحت - أثناء وجودى بكلية الحقوق - فى مكان اسمه قسم الصحافة.. كان هيكل (حسنين) والبراوى (راشد) يدرسان فيه.. فتعرفت بهما..

فى هذا الوقت أيضا كان عمى البهى الخولى من مؤسسى الإخوان المسلمين وعضوا فى مكتب الإرشاد.

إذن فى الجامعة كنت بين مدرستين وطنيتين (الحزب الوطنى/ الوفد) وبدأت أشعر بأن حزب الوفد مدرسة علمية، والآخرون كانوا من المثقفين الوطنيين، كنت أنتمى إليهم بدون ممارسة سياسية فى دكان الوفد الفكرى، هذا هو التناقض الأول.

أما التناقض الآخر فقد حدث عندى أيضا بين التربية الفكرية الإسلامية والاتجاه اليسارى والتفكير الاشتراكى، وفى ذلك الوقت بدأت أحس بهذا التناقض وأحضر كافة الاجتماعات السياسية!

شاب صغير تفتح على كل شىء.. بدأ يتردد على الندوات السياسية المصرية:

ندوة صحيفة المصرى وندوة بالأهرام لكامل الشناوى وندوة مندور بمكتبه (عملت بمكتبه بعد تخرجى) وندوة إحسان (روز اليوسف)..

وبدأ اهتمامى بتتبع إحسان عبد القدوس فى باب (أعرف حقوقك) الذى كان يكتبه فى روزاليوسف.

كان أستاذى بالحقوق حينئذ هو د. نور الدين رجائى زوج درية شفيق. وطلبت درية منى العمل معها فى المجلة، وتحولت درية من الاهتمام بالمرأة إلى الاهتمام بالمرأة العاملة والثقافة.

وهذا ما تسبب فى الأزمة بينى وبين رئيس التحرير حينئذ إبراهيم عبده.

كيف إذن نسبح فى تيارات عديدة.. كنت أحس بأننى أميل إلى اليسار، وبدأت اقرأ عن رأس المال واقرأ عن الطبقات، وأكون رؤية جديدة للبعد الاجتماعى. وخلال هذا كنت أمارس المحاماة خاصة فى القضايا السياسية، وأصبحت فجأة محامى الحركة الشبابية. وهذا جعلنى وأنا شاب اعتقل بالأقسام يوما ويومين وثلاثة. وأصبحت معروفا لدى الجهاز السياسى والمباحث.. وبدأت لغة السياسة الفكرية تتغير.

معنى هذا إنك تنتمى لحضرة الطبقة المتوسطة..!

- أنا اعتبر نفسى من الطبقة البرجوازية الصغيرة، والدى كان يمتلك نحو اثنى عشر فدانا، لم يرثهما من أحد وإنما كونها بجهده، فكان يعمل بمكتب مقاولات.. ورغم أن والدى لم يتم تعليمه إلا أنه كان قارئا ومشاركا فى الحركة الوطنية، وعلى علاقات بأحمد لطفى مؤسس حركة التعاون.. وأذكر - فى وقت ما - كنا نمر بضائقات مالية شديدة وكنت فى مدرسة المبتديان الإبتدائية، وكدت أطرد لأنى لم أدفع المصاريف. كانت قضية خطيرة لوالدى. كنا فى إطار (المستورين)..

أقدر حرمان أبى من أى شىء من أجل تعليمنا.. لقد عمل كل شىء من أجل تربيتنا..

الانتماء الاجتماعى إذن كان وراء الانتماء الفكرى؟

- بالتأكيد.. أرى أن هذا التكوين الاجتماعى كان داعيا لأن أعتنق الماركسية. فأسفر الآن عن معتقداتى خاصة أننا كنا فى مناطق شعبية، وكنا نعيش بالسيدة زينب.

أنا ابن الطبقة المتوسطة الصغيرة، وهذه الطبقة كما أن لها نقاط ضعف لها نقاط قوة..

أفظع شيء أنك تولد فى هذه الطبقة - لا العمال أو الارستقراطيين - أقرر أن أصحاب هذه الطبقة يكونون مترددين دائما، هل يصعدون إلى فوق أو يهبطون إلى تحت. ولهذا، فهذه الطبقة تحتاج إلى شجاعة الحسم - حسم الأمور مع النفس أو مع الطبقة ذاتها.. إلخ.

وأعتقد أن الذى ساعدنى من أجل الحسم لصالح الاتجاه الاجتماعى هو - لحسن حظى - أصدقائى وأساتذتى.. وبالذات، أستاذى الأول... والدى، والذى كان اتجاهه يميل إلى عامة الشعب بشكل وطنى واجتماعى، وكان كثير النقد للطبقات العليا، ليس بشكل واعٍ ولكن بشكل واقعى..

أليس هذا يقترب بنا من العلاقة بين المثقف والثورة؟

أما الخلاف بينى وبين الثورة فى الفترة الأولى فكان حول كل من:

- قضية الديمقراطية والسلطة.

- قضية الاتجاه الاجتماعى..

وكما قلت لك، بدأت علاقاتى الحيوية مع هيكل حين كان يعطى دروسا أو محاضرات فى (الجامعة الشعبية) وأصبحنا أصدقاء.. فلما قبض على أكثر من مرة. فى عهد عبد الناصر - سبع مرات - وتحديد الإقامة مرتين أو ثلاث مرات، بينما قبض على فى عهد الملك خمس مرات.

لكن أعتبر نفسى حسن الحظ، فإن مجموع ما سجنته ثلاث سنوات فى مدى اثنتى عشرة مرة بينما بعض زملائى ظل سجينا لأكثر من خمس عشرة سنة.

فكل مرة كنت أدخل السجن فيها كنت أخرج من السجن بواسطة هيكل..

فى ذلك الوقت بدأت أتصل بالثورة الجزائرية، فلما تم القبض علىَّ كانت الثورة الجزائرية تتوسط للإفراج عنى، خاصة فى اعتقال ١٩٥٨، الذى قبض فيه حتى على أصدقاء النظام من اليسار مثل لويس عوض.

وأثناء الخلافات مع سوريا أثناء الوحدة.. تم القبض على حوالى ١٥٠٠ من اليساريين.

هذا هو الصدام الوحيد ضد اليسار بكافة مدارسه..

فى المعتقل الناس بدأت تعيد النظر.. ورغم قسوة الاعتقال وقسوة المعاملة.. فإننا بدأنا نرى الخطوط الوطنية لعبد الناصر والخط الاجتماعى خاصة.. ثم مساعدته لحركات التحرير الوطنية.. إلخ

وهنا حدث انقسام..

فى هذا الإطار بدأ إخواننا الجزائريون وهيكل حوارا معنا داخل السجن، متقطعا.

أذكر إننى كنت مرة فى قصر العينى يسألنى (حاول العسكرى القبض عليه) ظل يتحدث معى مشيرا إلى أن هناك تطورات لابد من التنبه إليها..

المهم أفرج عنى عبد الناصر بناء على طلب الجزائريين وهيكل وغيرهما.. فأفرج عنى بالفعل ومعنا بعض الشخصيات المعروفة على مستوى العالم كيوسف حلمى.. وطلب هيكل منى أن اكتب فى هذا الوقت..

كان أول تنظيم شعبى عربى يهتم بفلسطين.. ومن هنا بدأت أيضا الانتماء للبعد العربى والاهتمام به.. وهذا ما جعلنى أعود أو اتصل بالجزائريين، خاصة بن بيلا ممتنا استجابته لذلك.

فى هذا الوقت بدأ هيكل يؤكد لى مرة بعد مرة أنه عايز يعمل مصالحة تاريخية مع اليسار وسألته: كيف ذلك؟

يجيب: يجب أن يكون من خلال حوار مقترح داخل المجتمع ككل.. وأن عبد الناصر بدأ يحسن اتجاهه الاشتراكى.

ماذا نفعل؟ فأجاب هيكل: نعمل صفحة رأى وتتولاها أنت فى الأهرام؟

عملت فعلا صفحة رأى كنت مشرفا عليها وقدمت عددا كبيرا من داخل السجن أو خارجه وكلهم ذوو اتجاه يسارى.

وأذكر أنه كان معى (فى الصفحة وأنا أعد سلسلة المقالات عن الثورة الجزائرية) كان معه د. محمد الخفيف ود. عبد الرازق حسن وعبد الملك عودة ود. مجدى وهبه (كان يساريا وكان عضوا فى الحزب الشيوعى الإنجليزى).. وميشيل كامل.. وفى هذا الإطار بدأنا نصدر صفحة رأى..

لقد دخلت فى حوار طويل حول بعض مقالاته. وتعرف طبعا علاقته بالرئيس عبد الناصر. فهل كان هيكل يتحرك بأمر من النظام؟

هيكل كان ينطلق من أرضية مستقلة، ومقالاته لم تكن مرتبطة بأحد بخلاف ما قيل.

وأستطيع القول إن هيكل كان يمثل دائما أرضية مستقلة رغم أن مقالاته كانت تترجم توجهات عبد الناصر. وعبد الناصر قبل ذلك وبعده كان يعتبر أن هذا مفيد له.

أنا بدأت سلسلة مقالات (٦ أو ٧) فى أزمة المثقفين عملت دويا ضخما بعدها بدأ هيكل يكتب فى صفحة الرأى.. ثم عملنا ندوة وأشركنا فيها عددا من العرب.

والواقع – رغم ما قيل – لم يكن هيكل يريد أن يحمى عبد الناصر بقدر ما كان يريد أن يجعل الأهرام منبرا للقوى الوطنية والعلمية والعقلانية.. إلخ

الحقيقة أن هيكل خلق فى الأهرام الجبهة الوطنية وفعل أشياء كثيرة.

أستطيع القول، إن الاثنين – عبد الناصر وهيكل – كانا ينطلقان من خط فكرى ومنطق واحد.. وهذا يربط العلاقة بينهما ربطا ذاتيا وموضوعيا.. وكذلك قيمة الموضوعية التى حصلت من بداية الحوار مع عبد الناصر من خلال صفحة الرأى.. إلخ..

ويشارك فيها كل قوى اليسار، وفى كافة القضايا.. والحقيقة أذكر أنه لم يتدخل هيكل على الإطلاق لمنع رأى أو خبر، وكذلك عبد الناصر. كلاهما ترك المثقفين يقولون ما يريدون.

وأثارت صفحة الرأى كل القضايا.

بدأت يقظة وعنف جهاز الأمن ضدنا، أى بدأت عمليات ضدنا اتهمونا بالانفلات.. إلخ. بدأنا نطرح قضية الإفراج عن كل اليساريين المسجونين. بدأت حرب ضدنا معلنة فى الأهرام، حتى إننى كنت أرسل نداءات من صفحة الرأى إلى اليسار داخل السجون.. ألا تخضعوا للاستفزاز حتى أفرج عنهم.

وترتب على هذا:

1) حوارات فى الداخل.

2) ارتباط مع كل التنظيمات.

عبد الناصر قال ما معناه إنه ليس لدى مانع للإفراج عن المثقفين من اليسار على شريطة أنهم يدخلون فى الحياة السياسية..

وتم الإفراج..

أعلنت الأحزاب السياسية حل التنظيمات..

ألا يفسر هذا بداية حل التنظيم؟؟؟

- حل التنظيمات كان صحيحا وخطأ فى آن واحد، فقد أعطى عبد الناصر لهم حرية كاملة بهذا المنطق وهو ما لم يتفق معه جهازه البيروقراطى، إذ كان هذا الجهاز أقرب إلى المحافظة وأبعد، ضد الاتجاهات الوطنية..

لذا لم يدخل أحد إلى الاتحاد الاشتراكى إلا الذين كان عبد الناصر يدفع بهم عقب الإفراج عنهم إلى الاتحاد الاشتراكى!..

لذا كان هناك مشاكل مع النظام ودخلنا معارك كثيرة.

دخلنا فى هذا الوقت الاتحاد الاشتراكى، وكنا فى قضايا خلاف مع النظام، كانت ترفع تقارير سيئة جدا إلى عبد الناصر.. وكان يصحح هذه التقارير الأستاذ هيكل.. أذكر هذا جيدا عن هذه الفترة.

السبب الحقيقى لا الظاهر وراء رفع اسمى من مجلة الطليعة.. وسبب القبض علىّ حينئذ لم يكن كما يقول موسى صبرى فى كتابه «السادات.. الأسطورة»، كان لأنى تركت عبد الناصر.

أذكر فى هذه الواقعة، إنه تم رفع «الترويسة»، تم رفع الاسم لفترة وهى الفترة التى تم فيها اعتقالى فى نهاية حياة عبد الناصر نتيجة الهجوم على منهج الاتحاد الاشتراكى من على صبرى، وبسببها نشرت نتيجة لأجهزة التسجيل التى نشروها فى بيته..

نتيجة لهذا رفع الاسم، لكن ظلت أسرة تحرير الطليعة تصدر المجلة دون أى تغيير، بل تضامنوا على أن يتم رفع أسماءهم أيضا من ترويسة المجلة، فكانت مجلة الطليعة هى المجلة الوحيدة التى تصدر فى مصر دون أن يكون لها رئيس تحرير.

وقد ظل هذا الموقف إلى أن عدت من جديد بعد الإفراج إلى رئاسة التحرير فعادت أسماء زملائى، سواء المشاركون لى فى تأسيس الطليعة أو الزملاء الآخرون.

لنكن أكثر تحديدا، هل هو خلاف على السلطة أم الرأى؟

كان سبب الصراع هو فى الأساس السيطرة على الطليعة وأن تكون الطليعة هى المنبر الرسمى للتنظيم الطليعى بالاتحاد الاشتراكى.. هذا هو الأصل..

نحن اختلفنا معهم فى هذا الإطار، كنا نريد أن يكون لنا استقلالنا الذاتى، كنا نريد نجاح التجربة سواء فى تطويرها أو وأدها.. وفى هذا الإطار.. كانت قضية الديمقراطية قضية أساسية، وفى هذا كنا نصطدم بأجهزة الاتحاد الاشتراكى.

كان يمثل أجهزة الاتحاد الاشتراكى حينئذ على صبرى.

فضلا عن أن صدامنا مع سامى شرف وزملائه كان أساسيا، إذ كان يمثل الاتجاه البوليسى... إلخ، وفى نفس الوقت أيضا، كان الاتحاد الاشتراكى يوظف بعض الأفراد كالزميل جلال كشك.. كان هذا الأخير يكتب تقارير الاتحاد الاشتراكى المضادة عن الطليعة.

وكانت هذه التقارير تأتى إلى الأستاذ هيكل - رغم سريتها - وكان يطلعنا عليها، وكان من المعروف أن جلال كشك هو الذى يكتبها حينئذ، وكان وقتها يعمل مساعدا للأستاذ عبد الفتاح أبو الفضل فى أمانة الاتحاد الاشتراكى..



أحمد سعيد

لا يحتاج أحمد سعيد إلى تعريف خاص به، فهو غني عن التعريف..

فقد لعب دورا كبيرا فى الفترة الناصرية - مشاركا وشاهدا - بحيث إنه من الصعب أن نصل إلى شهود هذه الفترة دون أن نتمهل عند أهم رموزها قاطبة من «صوت العرب» إلى خارجه فى أنحاء كثيرة، منطلقا من العلاقة بين المثقف والأمير منتميا إلى كثير من المواقع التى لا يمكن إغفالها عند التمهل عند تاريخ مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين..

كنت شاهدا مشاركا من خلال الإعلام على فترة مرت بمصر فى الخمسينيات من القرن الماضى والستينيات من القرن العشرين.. كيف ترى خصائص هذه الفترة؟

- كانت مرحلة طموحات وسعى متصل شعبى وقيادى لتحقيقها..

كيف ترى الطموحات الآن؟

- على المستوى الشخصى، لقد واكبت عصرين.. عصر ما قبل ثورة يوليو١٩٥٢ وعصر فترة الثورة كلها حتى ١٩ سبتمبر ١٩٦٧ بعد أن عايشت حرب وهزيمة يونيو ١٩٦٧ لحظة بلحظة.. مريرة وقاسية..

قبل أن نصل إلى شهادتك على ثورة يوليو ١٩٥٢، كيف كان الطابع العام لعهد ما قبل الثورة وقد كنت داخل مطبخ السلطة من ناحية والإعلام الإذاعى من ناحية أخرى؟

- حين نتحدث عن الطموحات، فقد تركزت محليا فى سعى متصل سياسى من أجل إنهاء الاحتلال العسكرى البريطانى لمصر والمتمثل فى قاعدة السويس.. بالإضافة إلى النفوذ الكبير لبريطانيا وسفيرها فى مصر.. خاصة حين وجود سير ميالز لامبسون (اللورد كيلرن فيما بعد) فى السفارة.. بجانب طموحات تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا.. لعل أبرز ظاهرة تلفت النظر فى هذا الوقت هى ظاهرة مجانية التعليم الأساسى حتى نهاية الدراسة الثانوية، بفضل دعوة د. طه حسين حينما عين فى حكومة الوفد من عام ١٩٥٠ وإلى ٢٦ يناير ١٩٥٢..

فترة حفلت بما لم تحفل به أى فترة سابقة من زخم جماهيرى يطالب فى تظاهرات عنيفة حكومة الوفد بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء كفاح مسلح ضد الاستعمار البريطانى وجنوده فى قاعدة السويس.

وأين كانت الإذاعة فى وسط كل هذا الزخم الشعبى الكبير؟

(... يسهب أحمد سعيد كثيرا فى الفترة السابقة لثورة يوليو حين شارك بما انفعلت به مصر شعبا وحكومة عندما وصلت إلى طريق مسدود مع دولة الاحتلال – بريطانيا – فى شأن الجلاء التام لقواتها عن القواعد العسكرية المنتشرة قواعدها على امتداد الشاطىء الغربى لقناة السويس وأجزاء من محافظة الشرقية.. ويسهب حول دوره الإعلامى الكفاحى فى هذه الفترة. ومن هنا، فهو يتمهل عند صور هذا الكفاح ثم وعيه فى عالم الدعاية والعملية الإعلامية حتى صارت تجاربها علما أكاديميا إبان الإلغاء الرسمى للمعاهدة البريطانية المصرية قبل أن يتمهل عند ثورة يوليو.. فحين نصل معه إلى البحث عن دور الإذاعة بعد الإلغاء الرسمى للمعاهدة المصرية البريطانية فإنه يتحدث بإسهاب هنا).

- شاء حظى أن أبادر إلى التطوع للسفر إلى القناة مع طلائع الفدائيين فى قناة السويس.. وأشغل كثيرا بالكفاح فى هذه الفترة التى شهدت تصاعد العمل الفدائى المصرى ضد القاعدة العسكرية البريطانية فى منطقة القنال؛ وهى الفترة التى شهدت اتهام أحمد سعيد وثلاثة

وثلاثين إذاعيا بإثارة الشعب وتم تنحيتهم عن أعمالهم.. (وتمر شهور فبراير ومارس وأبريل على أحمد سعيد بدون عمل فى منزله حتى يستدعيه صباح يوم السبت ٢٦ من مايو من نفس العام -١٩٥٢- الشاعر صالح جودت مراقب البرامج الثقافية والأركان بالإذاعة ليجد فى مكتبه ضابط الجيش للعمل بركن الجيش لاستثنائه من الاستبعاد.. فيتعرف على عدد كبير من الضباط الأحرار فى هذا الوقت ليسهم فى مقدمات ثورة يوليو..).

هل يفهم من هذا الاستدعاء لتقديم ركن الجيش واستثنائك من الإبعاد أن هناك من كان يتابعك من القوات المسلحة من الضباط الأحرار مثلا.. وربما من شخص جمال عبد الناصر بحكم لقاؤه بك فى العريش كما صرحت بعد ذلك؟

- لا أعتقد فى ذلك.. رغم أن عبد الناصر ذكرنى – بالفعل - بلقاء العريش عندما التقيت معه مع صالح جودت قبل بدء إرسال صوت العرب الأول بأيام قليلة؟

هل يمكن أن نستعيد إنشاء صوت العرب.. وما يتردد عن دور المخابرات فى التفكير فى المتابعة.. وما تأثير هذا فى علاقاتك بثورة يوليو..؟

- هناك قصة طويلة – لا أريد الإسهاب فيها هنا - سبقتنى قبل التعامل مع ثورة يوليو بشكل جدى، تشير الأحداث فيها إلى طبيعة الرقابة العسكرية التى كانت تواجه الإذاعة فور قيام ثورة يوليو، قبل أن يتعاون أحمد سعيد كمسئول وتعليمات عبد الناصر كمسئول.. حين جاء اليوزباشى فتحى الديب مسئول الشئون بالجهاز الوليد للمخابرات المصرية إلى مبنى الإذاعة بشارع الشريفين فى قلب القاهرة مساء ٣١مارس ١٩٥٣، حاملا فى حقيبة جلدية منتفخة خطابا موجها من مدير الإذاعة المعين من قبل مجلس قيادة الثورة يطلب فيه إنشاء برنامج يومى موجه إلى العرب يشرح لهم أهداف الثورة التحررية وموقعا عليه من جمال عبد الناصر...

- لقد أخرج فتحى الديب من حقيبة جلدية ظرفا أبيض متوسط الحجم، أخرج منه ورقة واحدة معنونة من مجلس قيادة الثورة - مكتب السيد رئيس المجلس – وموجها إلى السيد مدير الإذاعة اللواء أركان حرب محمد كامل عبد الرحمن تطلب منه - بعد التحية – البدء

فى الإعداد لتوجيه برنامج يومى موجه إلى الشعوب العربية يشرح لها الأهداف القومية والمبادئ التحريرية التى قامت من أجلها الثورة المصرية، ويكون ذلك فور الانتهاء من عملية الإعداد وقبل أن يتم إخطار مكتب رئيس مجلس الثورة تباعا بخطوات الإعداد وموعد البدء فى التنفيذ.

أما الإمضاء - كما قلت - فكان باسم جمال عبد الناصر..

- واعترف هنا إننى وأنا انتهى من قراءة هذا الخطاب - كنت كمن كان تائها يتخبط.

ووجدت نفسى فى حالة من تسارع ذهنى متتابع شريط سينمائى طويل منذ كنت طالبا فى المدرسة السعيدية الثانوية وإنشائى الجمعية العربية مع نفر من الزملاء الذين كانوا فى سن الصبا يبحثون عن هويتهم، مثل فاروق ثابت الذى كان شيوعيا سجينا، وحسن عبد الحافظ الذى أصبح إخوانيا يحاكم بقتل المستشار الخازندار، والدكتور عبد الرازق السنهورى ودوره القضائى المعروف، وجلوسى إلى العديد من المشاهير من أمثال الإمام الأكبر محمود شلتوت وعزيز المصرى باشا وعبد الرحمن عزام باشا وصالح حرب باشا وعبد الرحمن بدوى واحمد حسين وفتحى رضوان والأقطاب العرب من أمثال الحبيب بورقيبة وساطع الحصرى وعبد الكريم الخطابى..

أذكر جيدا فى هذا الوقت وفى هذه الحالة أن اخرجنى فتحى الديب من شرودى الخاطف مخاطبا إياى: ألا تريد العمل فى برنامج يكلم العرب، ودار حوار سريع فيما يشبه أجهزة البرق بينى وبين محدثى الذى جاء من مجلس قيادة الثورة.

- خد بالك إنك مرشح من ثلاثة مرشحين.

- البرنامج ده كبير ويستوعب غيرى كثيرا.

- أفضل ابدأ بشخص واحد.

- وهذا يصبح شغل الجهاز معنا فى الإذاعة.

- لا، أنا عملى الرئيسى فى جهاز آخر.

- فى مجلس قيادة الثورة.

- لا.. فى المخابرات.

- .. مالك، ماذا جرى لك، اتخضيت؟

المخابرات أغلب نشاطها خارج مصر.. أكيد قرأت للبكباشى جمال عبد الناصر «فلسفة الثورة» المنشور منذ أيام - فصول الدائرة العربية فيه.

- الدائرة العربية أصبحت مسئوليتى.

- كيف؟

- أنا مسئول الدائرة العربية فى المخابرات.. وكل ما نطلبه أن تكون «فلتر» يعنى دقيق جدا.

وبعد محاورات طويلة مع الرجل، يؤكد لى أنه يعمل ضمن قرارات مجلس الثورة، ألا تصدق؟ ويخرج لى الرجل أوراقا صفراء وهو يشير لى أن اقرأ أمام علامة استفهام فإذا بى أمام الفقرة ٢ من البند أولا واقرأ بالنص «تناول مشكلات الوطن العربى وتحليلها مع التصدى لكل التصرفات الخاطئة للسلطات العربية الحاكمة بما فيها حكومة الثورة بمصر إذا ما اخطأت و..»

ويمد فتحى الديب – وهو مندوب الثورة حينئذ - ليسترد الورقة قبل أن اقرأ فى مقدمتها:

سرى جدا - الخطة المقترحة لطرح الشئون العربية.

وعلى يمين النص المهم كلمة أوافق موقعا تحتها اسم جمال عبد الناصر.

والتاريخ ٣١-٣-١٩٥٣

وأبديت ارتياحى لمندوب القيادة وموافقتى السريعة.

وحينها دخل علينا – فى هذا الوقت – صالح جودت مراقب أحد البرامج يعيد فتحى الديب الأوراق بعد أن تيقن من موافقتى السرية للعمل ضمن الجبهة العربية مع جمال عبد الناصر.

لنعد إلى السمات الرئيسية للأهداف التى حرصت الثورة على السعى دوما لتحقيقها فى هذا الصدد؟

– أولا كانت هناك مبادئ، وثانيا كانت هناك أهداف..

ومع المبادئ والأهداف كان يجرى وضع السياسات بكل ما يمكن أن تحتويه وبما تطلبه مبادئ الثورة وسط الأحداث العالمية والعربية من أنشطة إيجابية أو ممارسات سلبية..

والمبادئ عند عبد الناصر كانت تتمثل فى:

– تحرير البلاد من المستعمر.

– استرداد الثروات.. وفى مقدمتها البترول.

– إشاعة الفكر القومى من منطلق التاريخ والثقافة وصولا إلى الأمن والمصالح.

– الارتباط بالجماهير العريضة من فئات الشعب محدودة الدخل والتعبير عنه أو السعى لتحقيق المستوى الكريم.

وفى ضوء هذا كله تحددت أهداف الثورة الأخيرة فى السياق النضالى..إلى آخر ما حققته الثورة من أهداف تندرج جميعها تحت المبادئ الرئيسية التى أشار إليها جمال عبد الناصر فى (فلسفة الثورة).

فما هو أبرز ملمح تفصيلى لمنهاج عبد الناصر فى وضع سياساته من واقع سياساته ومواقفه، خاصة ما اتصل منها بنشاطات «صوت العرب»؟

يعد موقف عبد الناصر من عزل فرنسا لملك المغرب محمد الخامس، عندما رفض الملك تكبيل شعبه بقرارات استعمارية، لخير دليل على أن عبد الناصر كان ينظر إلى الحكام العرب من

خلال سياساتهم ومواقفهم وليس من خلال أنظمتهم وأسرهم.. ويؤكد ذلك الحوار الذى دار حول نوعية دعم حكومة الثورة للملك المعزول وشعبه الذى بدأ ثورة من أجل الملك والاستقلال ..

أستطيع هنا ضرب أمثلة عديدة تشير إلى موقف المثقف فى «صوت العرب» من القضايا العربية أو موقف المثقف العربى (المصرى) من القضايا العربية سواء بالإشارة إلى مواقف عديدة تمثلت فى ثورة المغرب أو أحداث المملكة العربية السعودية..

هل صحيح كما قال إيجلاند فى «جبال من رمال» إن أمريكا كانت هى صاحبة التأثير القوى فى الخمسينيات من القرن الماضى؟

- إذا اعتبرنا بمقاييس الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى - أن صوت العرب كان أقوى جهاز إعلامى مؤثر فى المنطقة العربية - كمسئول - أجد أن من الطبيعى أن الولايات المتحدة اليوم، وهى تحاول إعادة كتابة تاريخ، المنطقة، وفق ما يحقق مخططاتها الإمبريالية أن تحسب لنفسها أى نجاحات حققها النضال العربى فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى من خلال مفهومها الشخصى وتفكيرها فيما يمكن أن تراه لمصلحة هذه المنطقة، ابتداء من مساندة ثورة مصر ١٩٥٢ إلى تأمين الجلاء البريطانى عنها ١٩٥٦ وإيقاف العدوان الثلاثى وإلغاء معظم آثاره فى ١٩٥٧.. إلى أن يجئ إدعاؤها أن جهاز الإعلام الرئيسى - صوت العرب - حسب قول إيجلاند فى كتابه.. هذا تفكير قائم على أساس نفس المخطط السابق للأمريكيين.

لكن ولم يحدث هذا إطلاقا.. أن قدمت الولايات المتحدة الأمريكية أى نوع من المعاونة الفنية أو المالية أو الهندسية أو البشرية لجهاز صوت العرب أو لجهاز إعلامى مصرى.. وأى إنسان يمضى فى المخطط يستطيع أن يزعم هذا..

وهذا معناه أنه إذا كان عبد الناصر عمل خيرا إحنا اللى عملناه، إحنا لا أخذنا (التوجه السوفيتى) أو (التوجه الأمريكى).. والدليل على هذا ببساطة أن فى ١٩٥٩ قامت أجهزة الإعلام البريطانية لتبحث الإجابة عن سؤال: لماذا كان صوت العرب ناجحا؟..

وهذه الدراسة موجودة ضمن الوثائق البريطانية التى تنشر (وأنا أرجو ممن يهتم بهذا الموضوع أن يهتم بهذه الدراسة)..

بالطبع فإن السياسات العالمية - كما تعرف ونعرف عن رجال الإعلام - تؤكد لنا إن الإجابة عن علاقة أمريكية بجهاز الإعلام الناصرى هى نوع من الكذب.. والكذب الرخيص الذى لا يستند إلى أى شىء جدى.. بل أذكر إنهم فى فترة التحدى المصرى الأمريكى - فترة أيزنهاور وكيندى -بعثوا ببعثة هنا، أذكر إن المسئولين جاءوا لنا حينئذ بهؤلاء - ١٦ خبيرا - اجتمعوا معنا فى صوت العرب ٢٤ ساعة كاملة (قالوا لنا إنهم من مجلة «لايف» وقال لنا جهاز المخابرات المصرى حينئذ لا تفيدوهم واعتبروهم مخابرات وعاملوهم على أنهم من «لايف» فى الظاهر فقط..).

وبالفعل عملوا صفحة غلاف للرئيس من صوت العرب وثمانى صفحات داخل العدد وكتبوا داخل العدد قائلين إن المسئولين فى صوت العرب أجلسونا فى أماكن بعيدا عن صوت العرب، ونحن متأكدون إن هناك مخابرات هم الذين يديروا العملية.

هذا ما نشر فى لايف عام ١٩٥٤، ونستطيع العثور عليها من المخابرات المصرية، خصوصا أننى بعد مارس ٥٤ جاءنى هنا وترجمتها.

كان هذا الوقت ذروة مشروع أيزنهاور، وكان الرئيس ساكتا عن المشروع مجاملة لدور أيزنهاور فى خروج إسرائيل بعد الاحتلال.

لم يحدث فى يوم من الأيام أن توقفت الحملة على الإمبريالية فى صوت العرب.

بمعنى الرد على هذا القول أن سياسة صوت العرب العنيفة ضد أمريكا جزء من حملة التواطؤ من الجانبين (مصر وأمريكا) فى هذا الوقت..؟ وأن الحملة المتواصلة ليست ذريعة للبراءة؟

- إطلاقا.

لم يحدث فى لحظة من اللحظات أن كان هناك نوع من المحاباة من صوت العرب للولايات المتحدة الأمريكية على الإطلاق.

كل ما يحدث أن الهجوم مباشر أو غير مباشر.

بمناسبة الهجوم، هل كان من القيادة؟

- طبعا.. لكن لم يحدث فى يوم ما هذا التواطؤ، أنت كثورة لك خط، خطك ضد السياسة الغربية - عادة — واضح. عبد الناصر طيلة حياته ظل هدفه الأقصى ضد السياسة الغربية، بحكم أن هذه السياسة لها أهداف معارضة للتيارات السياسية والاجتماعية والفكرية التى يتبناها.

هل كان تعاون صوت العرب مع السلطة له علاقة بتعامل هذه السلطة مع أمريكا؟

- بالإضافة إلى ما سبق، فإننى أضيف - أن القواعد التى كانت تلتزمها - فى السياسة الخارجية - كانت محكومة بما يمكن أن تسميه، علميا بالهدف الأقصى، لو أحببنا أن نبسط الهدف الأقصى لعبد الناصر، لوجدناه، بعيدا عن الفكر العربى.. وما إلى ذلك. كان دائما هدفنا الرئيسى تقليص نفوذ الكبار فى المنطقة وفى العالم.. هذا أولا، ثم تقليص نفوذهم فى تحديد مصير الصغار ثانيا..

تقليص دور المتقدمين - الأغنياء - فى تحديد دور المتخلفين - الفقراء - والساعين إلى الاغتناء.

هذا هو الخط الرئيسى، وداخله خطوط واعية أخرى (كالحياد، وباندونج..إلخ..) قطعا فى الخمسينيات من القرن الماضى لما تبلورت الفكرة بهدف أقصى لسياسة ٢٣ يونيو كانت تبدو مستحيلة.. بالمنظور الواقعى..

فنجد أنفسنا مضطرين بقبول أهداف محدودة، بشرط أن تكون محطات فى طريق الهدف الأقصى مثل التنمية، لما أعمل مشروع تنمية أو سدا عاليا.. إلخ.. أوصله فى النهاية إلى نوع من الاكتفاء الذاتى أو اكتفى به.. هذا بالنسبة للسد العالى، أما بالنسبة للحديد والصلب المفروض أن أصل بعد عدة سنوات (غرفة الاحتراق) وصولا إلى دخول عالم الصناعة.

الصناعة الحقيقية تقوم على صناعة غرفة الاحتراق، فالحاكم - أو الحزب - الذى يفكر فى تنمية الصناعة الثقيلة، لو لديه جزء من إمكاناته أو ليس لديه - غالبا ما كان يفكر على أساس أن يدخل (نادى الصناعة) الحقيقية (ليس البيبسى كولا أو الزبادى)..

هذا هو الهدف المرحلى وصولا إلى الهدف الأقصى على ضوء هذا المفهوم الواضح المحدد فى ضوء السياسة (الناصرية) حينئذ، فكانت حملاتنا فى صوت العرب تمضى على هذا الاساس، يمضى أمامى خط يدعو إلى:

١) تقليص نفوذ الكبار.

٢) تحقيق تنمية مرتبطة بالسياسة المصرية والعربية.

فأنا أدعو، منذ فترة كبيرة إلى تأميم الصناعة المحلية (ومن بينها البترول)، علما بأن مصر وقتها لم تكن لتملك ثروة بترولية وإنما الذى يملكها فى العالم العربى هى السعودية والعراق مثلا، إذن، أنا هنا أدعو إلى أسلوب من أساليب التنمية.. أدعو لامتلاك ثروات..

فقد كان البترول العربى فى هذا الوقت يباع بـ ٦٠ سنتا والأجنبى يباع بـ ١٦ دولار، فالمفروض أنت كمواطن عربى فى خارج مصر تتنبه لهذا...

وبعيدا عن المفهوم الاشتراكى.. لما أدعو إلى التعليم.. معروف أن التعليم أساس التنمية، بغير صناع مهرة ومهندسين وعلماء لن أستطيع القيام بذلك..

هذا كله أسمه تحقيق الأهداف المرحلية وصولا إلى الهدف الأصلى..

لم أرى أن موقف أمريكا يتبلور فى رفض تمويل السد العالى، الكثيرون يقولون إن السبب كان عمل مصر لصفقات أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا والانفتاح على المعسكر الشرقى.

طبعا .. مصر اليوم منفتحة على العالم الغربى وسلمت نفسها (بالكلية) للغرب:

ماذا صنع لها العالم الغربى فى مجال التنمية؟

الإجابة: لا شىء، لأنه لا يريد أن يصنع. لأن هذا ضد الهدف (الأقصى) الخاص به، الذى يتعارض مع الأهداف (الأقصى) الخاصة بى أنا..

إذن، الخط الإعلامى الذى كان يتبنى مع السياسة الخارجية خبرته، كان يتعارض فى الكليات والجزئيات مع الخط الخارجى. من أين كان يأتى إذن التعاون!!

كنت تتعاون مع السلطة لتحقيق الهدف (الأقصى) الخاص بنا.. إذن كان التعاون بين (صوت العرب) والسلطة تعاونا كاملا؟

- دعنى أضيف شيئا مهما هنا..

إن الهدف الأقصى متحدد.. ليس بينى وبين السلطة اختلاف قط، كل ما يحدث أن السلطة أحيانا تقول إن الحملة فى الفترة الجديدة الآتية نتيجة لظروف الجلاء من مصر - على سبيل المثال - لا نريدها مباشرة.

نريد أن نقول إن الولايات المتحدة كذا، أو نقول إن الآن ما يجب كذا، ونقول يا عرب خذوا بترولكم..

بعد ثورة ٢٣ يوليو هل كنت تأخذ تعليماتكم مباشرة من عبد الناصر؟ أو ممن؟

- كأفراد أو كهيئات.. نبدأ أولا كأفراد، إن صوت العرب بعد إنشاءها خضعت أولا للإشراف من زكريا محيى الدين مباشرة، فقد كان محمد نجيب رئيس الدولة، لكن كان بعيدا عن تفاصيل تلك النشاطات.

كان زكريا محيى الدين مسئولا عن المخابرات، وكلف من مجلس قيادة الثورة بأن يكون مسئولا عن المخابرات، ولما بدأ إنشاء صوت العرب، كان زكريا محيى الدين متابعا لهذا الجهاز، وظللنا فى صوت العرب تابعين له فترة طويلة.

نحن فنيا وإداريا تبع الإذاعة، لكن سياسيا (وأى مطالب لنا) تبع الدولة.

إلى متى كنتم تابعين للمخابرات؟

- حتى تولى صلاح سالم وزارة الإرشاد القومى عام ١٩٥٤ ظللنا نحو سنة أو أكثر، حتى رحل صلاح سالم.. كان صلاح سالم مكلفا أيضا من مجلس الثورة بالإشراف علينا، كان لنا أيضا مكان متميز، من الناحية التوجيهية، لم يكن لنا دخل لما يحدث فى البرامج الأخرى فى نفس المبنى..

كنا فى عالم آخر غير العالم الإذاعى.. ظللنا أكثر من سنة نتبع صلاح سالم فى عام ١٩٥٥ حتى خرج صلاح سالم.

جاء فتحى رضوان (كان وزيرا) وانسلخت علاقتنا التوجيهية إلى أن عدنا مرة أخرى إلى المخابرات (كان صلاح سالم قد أخذنا إلى المخابرات بتوجيه علوى وبوضعه إذا كان فى وقت من الأوقات الرجل الأول بعد عبد الناصر..).

وعندما اختلفوا، جاء فتحى رضوان، فأصبحنا تبع المخابرات.. واستلم على صبرى مدير مكتب الرئيس عبد الناصر فأصبحنا نتلقى التوجيهات من على صبرى (لفترة قصيرة جدا من الزمن)..

أى من رئاسة الجمهورية أو من رئاسة الوزراء - فقد كان على صبرى مسئولا عن رئاسة الوزراء..

حتى أصبح عبد الناصر رئيس الجمهورية بالاستفتاء.. ظللنا نتلقى التعليمات منه، ومن مكتبه، حتى أصبح حاتم وزير إعلام..

وأصبح هناك ازدواجية لأول مرة:

- بين حاتم مرة.

- والرئاسة ثانية.

كان التوجه السياسى الخاص بنا قليل جدا.. انت رحت تسأل - منذ قليل - هل كان عبد الناصر يدخل فى تفاصيل، طبعا، كان ذلك.. لكن ليست تفاصيل تفصيلية، وإنما هى تفاصيل رجل متابع..

يمكن فى الجرائد كان رجلا يتابع إحساسا منه بأن فى الجرائد كان هناك عناكب (جمع عنكبوت) فيتابعها أكثر، لكن بالنسبة إلينا كان مطمئنا..

إن تقارير المخابرات التى فاتت.. ردود الفعل.. إلخ تؤكد هذا.. وما هنا، متابعة التفاصيل ليست مهمة، لماذا؟ لأن عبد الناصر كان قارئا جيدا.. فى يوم من الأيام، إذا وقع فى يده تقرير أو ملخص مقال أو رأى فى جورنال، لم يكن لديه أى مانع ليضع خطا أحمر على مكان بعينه وموقع عليه ليس التقرير أو الجورنال نفسه.

كان يطمئن إلينا.. وهناك أمثلة كثيرة فى هذا.

أذكر هنا أن حدثت أزمة (صلاح سالم قابل نور السعيد.. فصلاح سالم قال له إن العرب كلها ضد الحزب، وأنت هتدخلنا فى مشاكل، ظل يناقش هذا الرجل المحنك فترة طويلة حتى جاء لفظ «صوت العرب» على لسانه.. قال له إن أحمد سعيد الذى يمثل صوت العرب ده موظف عندكم يقول ما تقولونه، وأضاف نورى السعيد، فأين فكرى أباظة، وطه حسين والعقاد ومحمد عوض محمد... أين كان المفكرين المصريين..؟).

جاء صلاح سالم وأبلغنى بضرورة أن نأت بهم.. نأت بأولئك المثقفين، وأنا كإنسان كثير الوعى بما يحدث وبالشخصيات المثقفة هنا قلت له:

- يا أفندم إحنا نجيبهم فى أحاديث فقط لا فى تعليقات.. فأجاب:

- لماذا؟

- لأن - أجبت - هناك جبهة اسمها الجماهير العربية، أعرف كيف أحركها، تخرج مظاهرة فى بيروت أو عمان.. إلخ ضد هذا الحزب أو ذاك، أطلق عليها «اليقظة الشعبية».. هذه محتاجة إلى نوعية خاصة فى أسلوب التفكير، أسلوب الكتابة، أسلوب الأداء. أما المثقف..

- لا يهم.. قال صلاح سالم مصرا - لابد أن يأت هؤلاء الكتاب..

أجبت بالموافقة وأنا أسمع منه:

قال: لابد أن تأتى بهذا المثقف، أو لماذا لا تأتى بثلاثة من المثقفين أو أكثر فى الأسبوع لتفرض ما تراه.

قلت حاضر. ظللت ألح على المثقفين لمدة أسبوع، أطلب أحاديث، تعليقات..

جبت طه حسين كان (مزرجن).. العقاد كان (مزرجن) جدا لدرجة إننى هددته.. قلت له إنى هأبلغ، فكرى باشا، محمد عوض محمد، أحمد بهاء الدين.. جبت له ١٤ متحدثا أول أسبوع.. لقيت المخابرات تتصل بى وتقول لى: ماذا حدث، المنطقة نامت، أين المثقف؟ أين أنت؟.

فى أى عام حدث هذا؟

- كان فى عام ١٩٥٥.. أوائل ١٩٥٥ تحديدا..

لماذا ذكرت طه حسين والعقاد...؟

- لأنهما من المطلوبين حينئذ.. ربما لاتجاهاتهما الغربية..

العقاد له مكانة كنت أتعرف عليها من المخابرات الإنجليزية أيام الحرب العالمية.. ومعروف تاريخه، أما طه حسين فلا أستطيع أن أقول إن موقفه هذا (المزرجن) كان رأيه..

وأستطيع أن اؤكد أن كل هؤلاء المثقفين كانوا يتعاونوا - بدون تردد - كل منهم كان يتعاون معنا.

مثلا طه حسين، كان يذهب إلى جميع الندوات التى طُلب فيها بعد الثورة، ويقدم الخطب.. خطب يحيى فيها الثورة، ويعدد إنجازاتها بدون تردد.. ولا يعارض الثورة.

طه حسين لم يعارض الثورة، بل اؤكد، أن لا أحد من المثقفين عارض الثورة فى أى شىء خاصة فى الخمسينيات من القرن الماضى، وهى شهادة أنقلها عن خبرتى فى تلك الفترة.

لم يكن هناك من يعارض غير التنظيمات (الإخوانية/ واليسارية) فقط...

كان عندنا أفكار ماركسية موجودة فى صوت العرب، وكان عندنا أيضا أفكار إخوانية موجودة..

وأذكر قول محمود أمين العالم حينئذ، حين راحو يناقشون ماذا يفعلون مع عبد الناصر بعد قرارات يوليو الاشتراكية، قال لهم عبارة:

«عبد الناصر حرث لكم الأرض، ألا يكفيه هذه الثورة».

هذه جملته المشهورة التى أخذوا بها قرار التنظيمات.. كان يعارض بناء على مواقف قيادية، ومواقف منه هو، مثلا من لعن أبو خاشوا خرشوف فى يوم من الأيام، ومثلا لما عملوا تمرد حطهم فى المعتقلات جميعا.. إنما لما قالوا له احنا تحت أمره حطهم فى مناصب.

أريد أن أضيف هنا إن التبعية كانت كاملة من الناحية العامة، وجميع وسائل الإعلام (صحافة، إذاعة، تليفزيون، نشر.. إلخ) تمضى فى هذا الخط. ونذكر فى هذا فيلم محمود مرسى لثروت أباظة رفض عبد الناصر ما تردد من الرمز المختلق، وقال لابد من عرضه.. اعرضوه بلا كلام فارغ – هكذا صاح فيهم عبد الناصر– وعرض كاملا بالفعل..

وبعد أريد أن ألفت النظر هنا إلى شىء مهم.. هو بالنسبة لصوت العرب خاصة.. هى أزمات حدثت فى مصر، سوف أعود – إلى الوراء – بك ببعضها لأذكر أن ليس كل المثقفين كانوا منتمين، بالنسبة لصوت العرب مثلا:

١) أزمة محمد نجيب وعبد الناصر.. طلبو منى التدخل.. طلبت ألا أتدخل بينهما.. إلى أن استقرت الأمور.. طلبت أن يتركونى إلى أن تستقر الأمور ولا أوجه قرارا لا أطلع مظاهرات.. عايز خبرتى أديك خبرتى فى البرنامج العام، لكن لا أعطيها لك فى صوت العرب.

وبالفعل التقيت بصلاح سالم وقال لى لا تتدخل.. وحصل..

٢) أزمة الإخوان المسلمين.. جميع أجهزة الإعلام، بما فيها جميع الجرائد، كانت تهاجم الإخوان ضد الرئيس.. إحنا لم نتكلم بسبب أنى أنا أقنعتهم قبل ثلاثة أيام بالضبط، وحين سألونى لماذا لا تشارك فى الهجوم، قلت أرى عبد الناصر، جلست إليه، قلت له:

– يا سيادة الرئيس الإخوان منتشرون فى البلاد العربية، دعنى أتصرف؟

أعطى عبد الناصر تعليمات ألا أتدخل.. كنا بتعليمات من عبد الناصر خارج هذه الأزمة..

٣) قرارات يوليو الاشتراكية.. هذه دلالة على أنك معاه فى الخندق - نعم، وخاضع أيضا.. لكن هناك فرقا بين خضوع الخوف .. وخضوع الانتماء..

أنا منتمى لقرارات يوليو الاشتراكية، لكن منتمى معها بأسلوبى وأعبر عنها بأسلوبى وبطريقتى. ولما اختلفنا استقلت قبل أن أقال..

نأتى إلى سياسة عبد الناصر فى المجال العالمى.. لقد اصطدم عبد الناصر بالغرب.. كيف ترى كان تعامله مع هذا الصدام؟

- عاش عبد الناصر - مثل كل أبناء جيلنا - عصر استعمار لبلاده.. وكانت بريطانيا تمثل هذا الاستعمار.. ثم أدرك من اطلاعاته (وعبد الناصر كان لا يتوقف عن الإطلاع سواء ثقافيا أو سياسيا أو كمسئول عن شعب، والتعرف على التقارير عن مشاكله بما فيها الأسعار الرسمية للخضراوات) أن الغرب بشكل عام له تحالفاته المعادية لشعوب إفريقيا وآسيا.. وأن الاتحاد السوفيتى رغم عالمية النظرية الماركسية وأفكار لينين وستالين له أيضا أطماعه فى الغير.. أو على الأقل سياساته المبنية على الفكر الماركسى عامة..

ومن هنا، كان عبد الناصر منكفئا على مصريته واستقلالها كجزء من عالم رئيسى يتحرك فيه بالضرورة.. إفريقيا وعربيا وإسلاميا..

ما ورد فى «فلسفة الثورة». وبعد رفض عبد الناصر للتحالف مع الغرب رغم انسحاب بريطانيا وجلائها عن قاعدة قناة السويس حجر الزاوية فى سياساتها العالمية كلها، خاصة منذ وجد - حسب رؤيته فى هذا الزمان - مصلحة مصر والعرب فى نبذ الأحلاف والتكتلات العالمية المتصارعة شرقا وغربا وآمن مع نهرو وتيتو بالحياد الإيجابى وعدم الانحياز وهى السياسة العالمية التى لعبت أكبر الأدوار عالميا فى تحقيق استقلال كثير من الشعوب المستعمرة (بفتحة على الميم)..

ولم تكن رؤية عبد الناصر سوى نتاج لما قد تثقف به ذاتيا من معارف حول الصراعات العالمية.. تنفيذيا وأحيانا فكريا أيضا على الأمر والتنفيذ وفق الأمر من غير نقص أو زيادة.. وهذا

الأمر فى طبيعته فوقى وحتمى.. ثم إن عبد الناصر بهذا التكوين السلوكى وجد فى التحرك العسكرى نجاحا سريعا وسهلا وضع الجيش - وبمجموعة من ضباط شبان فى الثلاثين من أعمارهم - على قمة السلطة بأمرها ونهيها.. بل وتابع عبد الناصر تحركه بممارسات تحكمها العسكرية بضبطها وأسلوبها الفوقى ونجاحاتها السهلة مما جعله وهو يتعامل مع الجيوش والشعوب العربية يرحب بضباط الشعوب العربية أكثر مما يرحب بالسياسيين..

فهو وهم أبناء مدرسة واحدة من جهة.. ثم هو وهم أقدر على تنفيذ الثورات أو الانقلابات أيا كان مسماها بالسرعة والسهولة واليسر بما يجعلها ربما المفضلة عنده عن التنظيمات الشعبية والخلايا الثورية الجماهيرية، وكل ما هو ثابت تاريخيا من عمل متصل معقد يتهدده الفشل المرة تلو المرة أو تنال منه التضحيات الجسام ويستغرق معها من الجهد والزمن ما يعطل كثيرا تحقيق الأهداف..

وعلى هذا النحو، من طبيعة احتمالات اختلافات مبادىء عبد الناصر مع مبادىء بعض المثقفين أو حتى تنفيذ أسلوب سياساتها..ومن خصوصية التكوين السلوكى العسكرى لعبد الناصر واقتناعه الخاص بسهولة إحداث العسكر للتغيير المطلوب، شهد عصره الكثير من اختلافاته مع المثقفين..

وهذه الاختلافات أمور واردة فى جميع الثورات، بل وفى جميع المجتمعات مهما كبرت وعمت مساحة الحريات فيها وحرص الحكام على رعايتها واحترامها..

بمناسبة التثقيف كان لعبد الناصر العديد من المواقف الإيجابية والسلبية الكثيرة مع المثقفين.. فكيف رأيت ذلك فى موقع يكاد يكون مرآة للفكر بمعناه الجماهيرى العريض، وبحكم مكانك فى «صوت العرب» بشأن علاقة عبد الناصر بالمثقفين؟

- للإجابة عن هذا السؤال لابد من أن نتعرف على التكوين الشخصى لجمال عبد الناصر، سواء خلال ما يؤمن به من أفكار مثل المبادئ وأهدافها وسياسات تحقيقها.. أو من حيث أسلوب تنفيذها والتعامل معها ومع من يعاونه ومن يشاركه فى تحقيقها..

فأولا.. سبق أن عرفنا ما يؤمن به من مبادىء وما يراه لها من أهداف من حرية للشعوب

واسترداد لثرواتها وتجمع عربى وحدوى يرعى مصالح أمة الضاد والتزام بالجماهير وحقوقها فى حياة كريمة ومستقبل عزيز..

إنها مبادئ يحاولها أى نظام أو حاكم مؤسسة كان أو أفرادا..

من هذه المبادئ والأهداف وأيضا السياسات يجىء اتفاقه أو اختلافه مع الغير من الأفراد المؤهلين لقيادة الشعوب، وهم القطاع العريض من المثقفين على اختلاف تخصصاتهم ومداركهم وإسهاماتهم فى المجتمع وحراك نضاله وصناعة مستقبله..

وثانيا.. أثرت التربية العسكرية مع الممارسة اليومية بوحدات القوات المسلحة فى عبد الناصر شأنه فى ذلك شأن أى ضابط جيش.. أو – حتى – ضابط شرطة..

نقترب منك أنت فى «صوت العرب»..تذكر مضابط مجلس الأمة وهيئته البرلمانية يوم ٢٥ فبراير١٩٦٥ عن يوميات كنت تذيعها فجر أيام رمضان مع وقت السحور تناولت فيها موضوعات برؤى كان الأمير – على حد قولك بالنص..- ليس موافقا عليها فيها، ومع ذلك لم يطلب ايقاف هذه الرؤى والاجتهادات لهذه الموضوعات قائلا إنه رفض أن يفرض عليك أو يقول لك اتكلم وسط المربع الذى حدده حتى لا يموت «صوت العرب» وتضيع قيمة هذا الصوت العروبة..ما رأيك الآن..؟

لقد كانت هذه الأحاديث اليومية تتناول موضوعين رئيسيين من منظور إسلامى.. لا يمكن أن تذاع فى ليالى رمضان فقط، ولكن لأن ثمة مفاهيم كان بعض الإخوان من اليساريين الشيوعيين قد بدأوا بعد مصالحتهم مع عبد الناصر فى تولى بعض المناصب فى مجالات الإعلام والثقافة والفنون.. ومن هنا انطلقوا من خلالها يروجون للفكر الماركسى بكثافة مستغلين أيامها حرص عبد الناصر على علاقته بالاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى..

لقد استشعرت الخطر الأكبر على الفكر القومى وارتباط عامة ملايين الجماهير العربية بعبد الناصر كزعيم شعبى لها لا يعرف الانتماء للفكر الشيوعى الماركسى اللينينى ولا حتى الماوى الصينى؛ وقد انبريت أتصدى لهذا التيار الجارف بعرض يومى لرؤية المال والملكية والإنفاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية وآراء ومواقف الصحابة الراشدين مثل عمر بن الخطاب

والأئمة العظام مثل أبو حنيفة وابن تيمية.. ثم تعرضت للحكم فى الفكر الإسلامى بهدف طرح رؤية واعية لهذا التثقيف.. ثم تدرجت إلى ممارسات أشهر الحكام المسلمين مثل العُمرين (ابن الخطاب وابن عبد العزيز) وانتهيت فى كل حلقة عن الحكم إلى ما يجب أن يكون عليه الحكام من تجرد وتطهر..

وأذكر أن هذه الحلقات عن الحكم والحكام حدثنى فيها أنور السادات حينما كان رئيسا يومها لمجلس الأمة الذى كنت عضوا فيه؛ وروى لى يومها أنه خاطب الرئيس، جمال عبد الناصر بشأنها.. وإنه أجاب يومها – وقبل خطابه عنها فى مجلس الأمة – بأن يترك أحمد سعيد يعبر عما يقتنع به حتى يحس أن عنده فرصة ينطلق (هذا مازلت أذكره..) وأذكر أنا أن حدثنى – بشكل شخصى – الكثير من الشيوعيين ضده «عايزين يمنعوه».. حتى على صبرى طلب منعه.. يعنى «بيلشفوا القرارات الاشتراكية.. أحمد سعيد بيردها للإسلام»، وعموما أذكر جيدا أننى قلتها أكثر من مرة أن صوت العرب لا يحاسب على ما يذيعه، لكن فقط على «اللى بيحققه».. هكذا رددت كثيرا..

هل كانت هذه الأحاديث اليومية عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام ونظم الحكم وسلوكيات الحكام هى كل الخلافات فى الرؤى بين عبد الناصر وصوت العرب؟

- يمكن القول إن المواقف التى تباينت فيها الرؤى والآراء كثيرة وبعضها متصل بالحرفية الإذاعية واستخدامها إعلاميا وسياسيا.. وهو ما حدث وأذعناه فى عديد من المواقف والأحداث، لعل أهمها أيام محاولات بريطانيا ضم الأردن إلى حلف بغداد..

والأمثلة الآتية هنا يمكن أن تضيف وهناك أمثلة أخرى كثيرة تؤكد ذلك.

ألم يغضب عبد الناصر يوما على صوت العرب وعليك كمسئول..فى محاولة لإعادة استلهام الشهادة الحية اليوم..؟

بالطبع غضب.. وأستطيع أن أذكر حادثتين:

الحادثة الأولى.. واجهنى الرئيس صراحة وبعبارات فيها رفض قاطع وغضب واضح استخدمه فى بداية عبارة مثيرة إذ قال لى عبر التليفون بالحرف الواحد:

- هو أنا لما أصدر أمرا بمنع مش تنفذ المنع وخاصة فى كل ما يتعلق بسياسة البلد.. أليس كذلك؟

وأذكر أن هذا إثر صدور تعليمات للإذاعة والصحافة بمنع أى خبر أو تعليق عن منظمة فتح الفلسطينية فترة نشأتها الأولى وذلك لشبهة لحقت بها عن التزامها بجماعة الإخوان المسلمين ووجود نظام عريض من الشعب الفلسطينى على رأسه أحمد الشقيرى ضد فتح وقيامها من رحم المنظمة الحديثة التكوين.. ولكن حدث بعد ذلك بأيام أن قامت «فتح» بأول عملية فدائية فى الجولان قتلت فيها عددا من الجنود الإسرائيليين فى نفس الوقت الذى استشهد فيه أثناء العملية الفدائية كامل أفرادها الخمسة.. واتصل بى مكتب فتح فى دمشق يبلغنى بالنبأ.. وقررت على الفور إذاعته لأسباب عدة لعل أهمها أنها عملية فلسطينية أولى منذ زمان بعيد، وأن خمسة شهداء لقوا ربهم خلالها مما يدعو صوت العرب إلى الحديث عنها وعنهم وعن نضالهم ودوره فى إذكاء روح المقاومة والكفاح، وهو هدف رئيسى لصوت العرب بشكل عام.. فضلا عن أن إسرائيل بإذاعتها وصحافتها سوف ترد النبأ وتسعى للانتقام، بالإضافة إلى ما ستذيعه عنها الإذاعات الأخرى خاصة، والبريطانية على وجه أخص، مما يفرض على صوت العرب عدم تجاهل النبأ.. بل والإصرار على إذاعته ودون استشارة، حيث إن التعليمات صريحة وهى تعليمات رئاسية يحتاج تعديلها إلى وجود جرأة فى عرضها على جمال عبد الناصر..

وهو ما دفعنى إلى الانفراد بالقرار بحكم خوفى من مرور الوقت وفضح تخلف صوت العرب عن المبادرة بإذاعة النبأ الكبير والمهم..

وكان أن قررت الإذاعة على مسئوليتى الخاصة، بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى فوجئت بالأخ سامى شرف يتصل بى - تليفونيا - مشفقا مما أتيت، ليصل لى بعدها مباشرة صوت الرئيس عبد الناصر فى استنكار شديد عبر حوار مازلت أذكر كلماته حتى اليوم، جاء صوت الرئيس غاضبا فى استنكار شديد قولى:

- سيادتك دى عملية كبيرة وهاتذيعها إسرائيل ولندن، وربما أذيعت بالفعل.

ويجىء صوت الرئيس حادا: ولو.. كان لازم تعرض النبأ؛ وتأخذ إذن.

أرد: عنصر الزمن مهم يا أفندم.. وبعدين يا أفندم دا سقط فيها جنود إسرائيليين بين قتلى وجرحى.. ده غير سيادتك استشهد فيها خمسة فلسطينيين..

ويصمت عبد الناصر لفترة أسمع فيها على الأثير صوت تنهيدة طويلة قال بعدها: يعنى أنت شايف إن ده فيه مصلحة؟

وحين أضيف أن إذاعة الخبر لابد أن يكون عند مستوى الحدث افاجأ بصوت الرئيس يقول:

- خلاص.. براءة.. مرة وعدت.

- أنا كنت ناوى أذيعه ثانى فى نشرة كفاح العرب الساعة ٨ مساء.. دول خمسة شهداء يا سيادة الرئيس..

ويجيبنى صوت عبد الناصر إلى ما طلبت مما جعلنى أرجو المزيد متسائلا:

- ولو جاءنى خبر عملية فدائية ثانية!؟

ويسعدنى صوت عبد الناصر:

- اللى تشوف فيه ضرورة ومصلحة ويحتاج لسرعة.. وحسابك زى ما أنت عارف على النتائج..

كان هذا ما حدث منه غاضبا.

هذه هى الحادثة الأولى، أما الحادثة الثانية فقد وقعت فى صيف ١٩٦٧ عقب هزيمة يونيو.. وقد كان موحيا أكثر منه رافضا أو غاضبا..

لقد وجدت عقب النكسة بكل مرارتها القاسية، خاصة أن البلاغات الحربية الرسمية التى أذعناها أيام الحرب الأولى كانت مخالفة للحقيقة فى ميادين القتال وأفقدت - لا صوت العرب فقط - ولكن مصر وعبد الناصر معها.. الكثير من المصداقية..

كان من الضرورى التأكيد على أن الأسلم فى التعامل مع ملايين المتلقين المجروحة أحلامهم وكرامتهم أن نستمر فى الإذاعة بنغمة فيها إصرار على النضال بما يعكس- فى أعماق الجماهير - إيمانا بعدم الاستسلام للهزيمة..

ولكن، يبدو أن حسابات إعادة التسليح وتدريب الجيش فرض عليه فى خطاب ٢٦ يوليو ١٩٦٧ أن يتحدث طوال أيام عن استرداد ما تم احتلاله فى حرب يونيو بما يفرض إعادة الحياة بإيقاع مجرد من نغمة النضال بكل ما يمكن أن تؤدى إليه من توتر جماهيرى يأخذ على عبد الناصر أى تباطؤ فى معركة التحرير..

فقد فوجئت به وسط خطابه السنوى يوم ٢٦ يوليو يعرج على القول.. بأن المعركة ممتدة.. وقد يكون فى تعجلها خطر.

وقد سألت الدكتور القيسونى (وكان نائبا لرئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية) وقد كان فى لندن أيام الحرب العالمية الثانية وطوربيدات الألمان تدك معالم العاصمة البريطانية إذ كان البريطانيون أيامها يواصلون حياتهم العادية أم يعيشون فى أجواء الحرب وشحنها بالأناشيد والنغمة القتالية، فأجابنى: بأنهم كانوا يمضون فى حياتهم دون هذا..

وهنا كان على أن أفهم أنه يريد - بطريق الإيحاء - إصدار أمر يشق عليه بإيقاف الخطاب الإعلامى للإذاعة بنبرته النضالية التى كان عليها..

غير أنى يومها وجدت أن من المصلحة ألا يحدث استرخاء فى الخطاب الإعلامى، خاصة أن إسرائيل ومعها لندن وواشنطن، بدأت حملة تدعو لليأس بهدف الوصول إلى استسلام مصر صلحا مع إسرائيل.

بل إن الأنباء توالت عن إيفاد إسرائيل لموشى ديان إلى يوغوسلافيا عارضا على تيتو أن يحمل إلى صديقه عبد الناصر مشروع إعلان مصر إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل وإعلان حقها فى عبور سفنها لا فى خليج العقبة فقط وإنما أيضا فى قناة السويس مقابل انسحاب عسكرى إسرائيلى من سيناء وسط قيود عسكرية معينة لا تسمح لمصر تحت رقابة دولية مستمرة بحشد قوات لها فى سيناء يمكن أن تهدد أمن إسرائيل..

وهو ما تم الاتفاق عليه فى «كامب ديفيد» وقبله السادات رغم ما قدمته القوات المسلحة من نصر بالعبور فى حرب أكتوبر ٧٣.

وماذا كان نتيجة استمرارك فى الخطاب الحاشد الداعى للنضال..؟

أستطيع الإجابة عبر واقعتين..

الواقعة الأولى أن الرئيس كان متأثرا بتقرير معين عن توتر الجماهير عندما روى حكاية لندن والقيسونى أيام الحرب العالمية الثانية.. فقد فوجئت به بعد ذلك يرفع شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» وليصبح توجيها رئاسيا عاما للإعلام..

أما الواقعة الثانية.. فقد فوجئت بالفريق مدكور أبو العز - وكان قد استدعى من منصب محافظ أسوان ليتولى إعادة بناء القوات الجوية إثر هزيمة ٦٧ - يطلب منى أن أضع مشروع خطة إعادة البناء النفسى للقوات الجوية من طيارين ومساعدين ومهندسين والتى كانت قد انهارت بسبب ما تردد بين الشعب عن مسئوليتهم عن الهزيمة. وفور اعتماده لهذه الخطة.. بدأت زيارات لوحدات القواعد الجوية أحاضر وأحاور بهدف إعادة ثقتهم بأنفسهم وبمسئوليتهم عن المعركة القادمة..

أما تقييمنا لأدائنا الإعلامى - فى رصد هذه العلاقة بين الثقافة والثورة - فهو ما أسهبت فيه الفترة الأخيرة كثيرا، بل وأذكر ما كتبته للإذاعة بعد ستة أيام من الهزيمة فى صوت العرب مساء ١٢ يوليو ١٩٦٧ ونشر بعد ذلك..

١٥

أمين هويدى

هل كان المقابل لحل التنظيم الشيوعى فى السجن أن يدخل أصحابه «التنظيم الطليعى»..؟

- لا أظن.. لسبب بسيط، هو، أنه لم يكن التنظيم الشيوعى تنظيما واحدا، بل كان هناك عدة تنظيمات مختلفة متفرقة، متناحرة، ولم يكونوا يشكلوا فى يوم من الأيام أى خط حقيقى على سير الدولة.

وللأسف الشديد أن الذى بدأ الصدام كان هو التنظيم الشيوعى، لأنه شكك فى الثورة من اليوم الأول، وكان هو البادئ فى هذا التشكيك، واستمر فى هذا التشكيك حتى بعد كسر احتكار السلاح وحتى بعد العدوان الثلاثى. ظل التشكيك قائما وظل العمل السرى قائما، وبرز هذا أقوى ما برز أيام الوحدة، حينما قام الحزب الشيوعى فى سوريا يعارض الوحدة بكل ثقله وبكل قوته. وكلنا يذكر خالد بكداش وغيره مما فعلوه فى ذلك الوقت، وكلنا نذكر ما فعله الشيوعيون فى عهد عبد الكريم قاسم.. كلنا نذكر هذه العلاقات.. كان هذا يعنى أنه لا توجد سلطه تواجه هذا كله بمجرد الخضوع والاستسلام.

كل واحد جى يقول لك موقف الإخوان المسلمين من السلطة وموقف الشيوعيين من السلطة فى تعبير اتهام السلطة السائدة فى ذلك الوقت اتهامات ظالمة، هذا موقف غير واعى أو محايد

ولابد أن اسأل هنا:

لماذا قبل الشيوعيون أن يحلوا أنفسهم؟

أنا أسألك أنت الآن؟

أنا غير شيوعى، ثم إننى لم أكن مثلك فى هذا الوقت مسئولا؟

صمت أمين هويدى غاضبا. رحت أجيب لأكمل السؤال:

ألم يقولوا إنهم «انضغط» عليهم لحل النظام الطليعى؟

- لا، وحتى ولو كانوا فى السجن وانضغط عليهم، كما قالوا: لماذا قبلوا هذا إذن؟..

- قبلوا لأن وجودهم فى السجون استمر قرابة خمس سنوات.

- انتهى الأمر، إذن يتحملون مسئوليتهم التاريخية.

أعود لاستكمال السؤال معك بهدوء؛ هل سعت تنظيمات ثورة يوليو فى هذا الوقت لاحتواء المثقفين واستقطابهم وإغرائهم فى «هيئة التحرير»؟

- أنا اربأ بالمثقف الحقيقى أن يُحتوى، فهذا إهدار للمثقف والعقلية المثقفة، وإهدار لمكانة هذا الرمز فى المجتمع لأننا كنا نعلم أن الرأى العام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- الرأى العام: القائد/ المفكر/ المقود.

- القائد: هو كما أعتقد يمثل نصف بالمئة فى المجتمع.

- المفكر: هو النخبة.. هو الذى يستطيع أن يستوعب القضايا ويعيد تحليلها ويعيد فرزها بشكل علمى من جديد، أما المقود - وهو القسم الثالث - فهو يمضى وراء هذا كله..

وواجب المفكر والمثقف هنا.. أن يكون هو البوصلة للتنوير أو الوصلة بين الرأى العام المقود.

العقول، هى التى تأخذ الكلام وترى مزاياه وعيوبه.

وواجب المثقفين أن يكونوا البوصلة بين الرأى العام القائد والرأى العام المقود.

المفروض أن هذه الطبقة التى تمثل الفكر تحتذى، أسمح لى هنا أن أتذكر الانتهازية، وإهدار قيمة ما تملك، وتنكر وظيفتها الاجتماعية..

إن واجب المثقف أن يعمل على تكوين رأى فى مشاكل مجتمعة، وأن يظل هذا المثقف بعيدا عن دائرة التطبيق، ماذا يعنى هذا؟ معناه: إنه يعيش فى برج عالى، فعليه أن يقترب من السلطة ويقفز عليها لتنفيذ ما يفكر فيه، وعليه من آن لآخر أن يعود إلى مكتبه ليشحن بطاريته.. إلخ.

فالغريب جدا أن يكون توفيق الحكيم رجل غير رأيه، غريب لهذا المفكر أن يقول بلا حياء أو خجل ما لم يقله من قبل..

الآن أن وعيه (كان غائبا) حين صمت طويلا على مكاسبه فى الفترة الناصرية ثم يعود إلى فكره الذى حضر فى السبعينيات من القرن الماضى ليقول كلاما مغايرا أو موافقا مع نظام السبعينيات من القرن الماضى أو مغايرا لنظام الفترة الناصرية الذى كان فيها مكرما ورائدا..

هذا هو المثقف الآن - بغض النظر عن انتمائه إلى اليساريين أو الليبراليين أو الثوريين- ومادمت تدون فى هذه الفترة عن العلاقة بين النخبة والسلطة عليك أن تعود إلى الفترة الناصرية لترى كيف يسجل أصحاب هذه الفترة من المثقفين، أو علماء الدين - سيان، أرجوك أن ترجع إلى الكثير من هذا: الفتاوى الدينية والكتب والصحف.. إلى آخر هذه الثقافة التى تمثل شاهدا عليهم.

تستطيع إذا عدت للفترة الناصرية ثم الفترة الساداتية أن تضع يدك على كثير من مواقف المثقفين والرواد فى الفكر وقد عرفتهم وأنا مسئول فى هذه الفترة، وعرفتهم كشاهد أيضا.. هل تريد المزيد؟ إذن ارجع - على سبيل المثال - لكتابات الحكيم ثم إلى كتابات مصطفى أمين ماذا كان يكتب فى الفترة الناصرية ثم ماذا راح يكتب فى الفترة الساداتية ثم هذه الأيام فى نهايات القرن العشرين.

خلال هذا كله نعيد طرح السؤال:

من هو المثقف؟

هل هو الرجل الذى يتساقط فى كل نظام؟

هل هو الرجل الذى يقرأ ويكتب فى كل المجالات ولكل مسئول حتى إذا تغير العصر عاد للمالك الجديد لنفس الدور.. القراءة والكتابة لمن يريد، يعجبنى هذا المثقف فى مسرحية تعرض الآن «القاتل خارج السجن».. أن المثقف - هو يوسف هنا — أستاذ الجامعة الذى أصبح شاهد ملك.. المثقفون يا سيدى وأنت تعمل عليهم أطروحتك لسنوات — كما أعلم — سوف يصيبونك بالمرارة... كثير المرارة والحزن لهؤلاء الذين يحملون سمة المثقف ويعملون لمصلحتهم الذاتية القاصرة دون اهتمام بالواجب، فقط الواجب ينصرف إلى الانتهازية.. أليس هذا هو المثقف الآن..؟

عدت اسأل أمين هويدى وهو يعود لسؤالى من جديد.

أنا اسألك — نفس السؤال الذى بدأت به — هذا هو المثقف الانتهازى، نعرفه، لكن هناك بالقطع المثقف الجاد الواعى الذى يدفع ثمنا كبير لرأيه ومواقفه ولا يتردد فى هذا، هذا المثقف الذى انتمى بوعى كامل إلى التنظيمات التى أتيحت له؛ تنظيمات الثورة أقصد..

- أعرف، والإجابة أن النظام لكى يحتوى شخصا ما لابد أن يسقطه فى غيبوبة، يجرده من فكره، وأنا أتحدث هنا عن المثقف الآخر، الواعى وليس السلبى، الغائب الذى يتم إغراءه — كان والآن - بالمنصب والمال و..

أقل لك، وقد عاصرت الفترة الناصرية والساداتية حتى الآن فى ثمانينيات القرن العشرين.. هذا المثقف لم تسع الثورة لإغرائه بالمنصب أو المال، بل كان هو الذى يسعى إلى ذلك..

أستطيع أن أقول لك إن الفترة الناصرية لم تسع لإغراء هذا المثقف..

لم يحدث على الإطلاق؟

لسبب بسيط، أن الفترة الناصرية كانت تعمل فى مجال الفكر بشكل راديكالى واع..

كانت الفترة هى فترة إجماع على القيم الاشتراكية وعلى قيمة الوحدة العربية وعلى قيم عديدة كالحرية والاشتراكية.. كان فكر الثورة واعيا واضحا، فقط كان الخلاف فى التطبيق.

كان الخلاف فى اتجاهات العديد من المثقفين للإفادة من مكاسب الثورة.. كان الخلاف مع الثورة فقط فى التطبيق وهو ما يمكن أن نختلف فيه مع الثورة..

لنصل إذن إلى سؤال آخر، واسألك كشاهد.. هل كان عبد الناصر يجهل عمليات التعذيب فى السجون لبعض المثقفين «الإخوان، اليسار، الليبراليين، القضاة، أساتذة الجامعة..»؟

- يُسأل عبد الناصر، ومع ذلك فنحن ضد أية سلطة ترتكب جرما ضد مواطن فما بالك بالمثقف فى هذا الوقت..

بل أسألك أنت كشاهد ومسئول فى هذه الفترة؟

- بل نسأل أنفسنا، النظام كى يحتوى موقفا أو اتجاها لابد أن يقدم من المغريات: المركز أو المال، أستطيع أن أقول لك إن عبد الناصر مبرئا تماما من ذلك.. (تجاه النظام والمثقف) أى أنه يغريه بالمراكز أو يغريه بالمال أو.. أو.. إلخ.

لم يحدث إطلاقا فعل هذه المحاولات.

لم يحدث إطلاقا..

كانت الثورة لها مجالها، مجال الفكر ومجال التطبيق لم أرى إجماع على فكر كما رأيته على فكر هذه الثورة طيلة الخمسينيات والستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضى.. كما رأيت فى مصر دافع كافة البلاد العربية، من قبلت عن ما قالته الثورة عن الحرية، والاشتراكية، والوحدة.. إلخ، كان الخلاف موجودا فى التطبيق، هنا حصل أخطاء وحصل بعض الفشل، وبعض النجاح..

البعض قال هذا ونشر هذا، وارجع للجان والكتب والتنظيمات وإلى الصحف، النقابات، المسرح، التجمعات، الجماعات السياسية، الاتحاد الاشتراكى.. والجامعة.. إلخ كان موجود هذا.

ولماذا لم يشارك المثقفون فى صنع القرار السياسى فى عصر عبد الناصر؟

- والسؤال هنا فى رأيى، هو: كيف يصنع القرار.

إذن أعود للسؤال بشكل آخر، لماذا استحوذ العسكريون على أغلب مناطق صنع القرار.. العسكريين لا المدنيون؟

- أريد أن أتمهل هنا إذن، أن افرق علميا بين ثلاثة مصطلحات:

العسكرى

والعسكرة (العسكرتارية)

والحكم العسكرى

والعسكرى هو مواطن عادى كالأستاذ الجامعى، كالمحامى.. ثقافته عالية جدا فى اتجاه خاص، وفى تخصص عسكرى عامل، ويعمل بأدق الآلات المعقدة.. الأمور كلها تحت يديه ويعمل بها..

تماما كالدكتور الذى يرتدى بلطيه الأبيض.

إن اكبر خطأ تقع فيها الحركة الوطنية هى أن تعزل جزء من مواطنيها بحجة أن هؤلاء عسكر، لا يفهمون. من هم العسكر؟ إن هؤلاء يتأججون وطنية تماما مثلهم مثل غيرهم.

لماذا يعزل مثل هذا المواطن.

هذا هو «العسكرى» أما المثل الآخر «العسكرة».. يسهل أن يقوم به مدنى أو عسكرى، مثلا، إن أحمد عرابى العسكرى، هبط راكبا حصانه فى ميدان عابدين ليطلب من الخديوى الدستور، والحكومة الوطنية.. إلخ.

ومع هذا، يمكن أن يتحول هذا العسكرى الوطنى إلى عسكرى آخر، لا يرتدى الملابس العسكرية، لكنه يقوم بأفعال عنيفة مثل الحكم العرفى الذى كان يقوم به رجل مثل محمود محمود أو إسماعيل صدقى أو مصطفى النحاس.. إلخ.

أما النموذج الثالث، الحكم العسكرى، فهو الحكم الذى نراه فى إسرائيل اليوم، المجتمع العسكرى العنيف الذى يساوى مجتمع «اسبرطة»، هل تذكر مجتمع «اسبرطة»؟.

إننى أستطيع أن أتحدث عن وطنية نظام (وعسكريون) أيضا ولا يجب أن أصفهم بالعسكرية فقط مثل (جروميكو) أو (ديجول) مثلا..إلخ.

أمين هويدى (ملاحظات بعد التسجيل)

- لم يجىء قرار عبد الناصر، مهما قيل عنه قرارا فرديا أبدا، وإنما كان قراره دائما بمشورة من حوله سواء أكان مجلس قيادة الثورة فى البداية أو اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى فيما بعد.

وأذكر أنه أثناء الأزمة مع الاتحاد السوفيتى، حين كان يتهيأ عبد الناصر إلى اللقاء مع (جروميكو) سعى أولا إلى اللقاء مع أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى.. وقال لمن سأله من أعضائها ماذا يفعل؟ تناقش طويلا وتحدث كثيرا، وكنت شاهدا على ذلك، بعدها راح بعد الإفادة من الحوار يقابل جروميكو بعنف مستفيدا من حواره مع أعضاء اللجنة المصرية.

- لم تكن علاقة عبد الناصر بأمريكا - كما قال كوبلاند فى «لعبة الأمم»، علاقة تعاون، ولا حتى تعامل بشكل مهين، وإنما كانت علاقة اتصال بغرض تحقيق أكبر كسب لمصر.

فى بداية الثورة، كان لابد وأن يتم هذا الاتصال مع أمريكا فى مفاوضاته مع الإنجليز ليساعده الأمريكان؛ وبعد ذلك كانت علاقة عبد الناصر مع الأمريكان تتحدد حول مصلحة مصر بالاتفاق على صفقة الأسلحة التشيكية أو السد العالى.. وما إلى ذلك.

- أنا كأمين هويدى، وقد كنت رئيسا لجهاز المخابرات، فتحت قنوات الاتصال مع أمريكا ثلاث مرات، واستطعت أن أنفذ أكبر عمليات مصر نجاحا، وهى تدمير وإغراق مراكب كثيرة ومقارات كثيرة فى بلاد لا تعرف.

سألته: من يستخدم من: الموساد أم المخابرات الأمريكية؟

أجاب بسرعة:

- بل المخابرات الأمريكية، كلاهما - أى الموساد والمخابرات الأمريكية - يتفقان فى التكتيك ويختلفان فى الاستراتيجية ويختلفان فى الإيديولوجية أيضا..

فأمريكا تمثل الرأسمالية.

وإسرائيل تمثل الصهيونية.

- تم التسجيل بحضور الزميل محمد عبد الهادى..

١٦

وحيد رأفت

كان لابد أن نجلس إليه، نستمع إلى صمته الطويل الموحى الحزين، وشهادته التى سجلت بين هذه «المصادر الحية» أو الشهادات الحية فى السنوات الأخيرة..

جاء فى محاضر جلسات مجلس الوزراء (بند ٥٣/ ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ لحفظه ١٣):

«قبول استقالة السيد الدكتور وحيد رأفت مستشار الرأى بوزارة الخارجية والعدل من وظيفته على تسوية حالته..»

لماذا؟

- استقالتى فى ٨، ٩ سبتمبر المقبولة فى ١٦ سبتمبر كانت لأسباب داخلية تماما فى مجلس الدولة. كان يرأس المجلس عبد الرازق السنهورى وكان فايق سليمان حافظ (أصبح حينئذ وزيرا للداخلية فى بداية الثورة واستمر السنهورى رئيسا لمجلس الدولة حتى حادث مارس ١٩٥٤..

صلتى بذلك كان بسبب التنظيم الداخلى لمجلس الدولة، لأنى كنت من المستشارين الأول الذين عينوا فى أول فبراير لمجلس الدولة عام ١٩٤٦ (أول تأسيس) بعد نقلى من وظيفتى قاضيا بالمحاكم بعد أن شغلت وظيفة أستاذ القانون العام بكلية الحقوق مدة طويلة منذ عودتى من

البعثة فى فرنسا ١٩٣٠ حتى ١٩٤٢، لكن حين تركت الجامعة ١٩٤٢ كنت أستاذا للقانون - رئيس القسم الذى يشمل الإدارى والدستورى - وذلك كان لقبا علميا..

نقلت إلى المحاكم المختلطة بعد ذلك بناء على إرادتى - قبل أحداث فبراير ١٩٤٢ - وذلك لخلاف بينى وبين العميد حينئذ وهو د. على مبروك، إذ وجدت أنه من الصعب الاستمرار رغم ميلى الشديد للتدريس فى الجامعة، فقبلت أن أعمل فى القضاء المختلط، خاصة أنى درسته بفرنسا.. ومع هذا استمررت فى وظيفة قاض، خاصة فى المحاكم المختلطة بالإسكندرية (٤٢/ ١٩٤٦) حينما كان مجلس الدولة يرأسه كامل باشا مرسى، وقد كان كامل مرسى عميدا لكلية الحقوق - وأستاذى - ومن هنا، يعرف مقدار تخصصى فى القانون العام، ويعرف أننى فى تدريسى للقانون العام تناولت مجلس الدولة الفرنسى بكثير من الإسهاب. ومذكراتى فى الكتب تشير إلى هذا، وألقيت محاضرة بجمعية الإحصاء والتشريع العامة فى ١٩٤٣ - على ما أذكر أطالب فيها بإنشاء القضاء الإدارى المصرى وهذا ما أشرت إليه فى المؤلف الأخير. يعنى، كنت أول من نادى بإنشاء قضاء إدارى فى مصر مثل نظيره فى فرنسا وكذلك مجلس الدولة، واعتبرت أن هذا مفخرة كبيرة لأن نضيف إلى قضاء التفويض قضاء الإلغاء ليسمح للقضاء الإدارى بإبقاء القوانين الإدارية، وكان هذا أمل كبير لنا حينئذ..

وكأستاذ قانون عام، وكشخص من أنصار هذا المجلس قبل إنشائه، كان من الطبيعى جدا أن أُختار مستشارا فى هذا المجلس، مع عديدين، ولم يبق منهم إلا زكى عبد المتعال. عينت بقسم التشريع بمجلس الدولة (عبده محرم رئيس قسم التشريع ثم أنا ثم د. زكى عبد المتعال الذى أصبح فيما بعد وزير المالية فى ١٩٥٠، عدا أننا كنا زملاء فى هذا المجلس، واكتسبنا خبرة فى قسم التشريع، وكانت تقدم إلى هذا القسم التشريعات التى تقدم للحكومة قبل عرضها على مجلس البرلمان والنواب والشيوخ.

ولكنى بعد هذا كنت تواقا إلى أن أنتقل من قسم التشريع إلى قسم الرأى، ولما خلا المكان، مكان مستشار الرأى بوزارة الخارجية والعدل بقسم الرأى، رحبت بهذا وكان هناك مرشحان اثنان (أبو العينين سالم وأنا) وكان تنافسنا على هذا المنصب. ولما كان أبو العينين سالم مستشارا للرأى لوزارة الداخلية، وكنت أنا اكتسب خبرة كبيرة رأوا الاحتفاظ له بمنصبه

بوزارة الداخلية، وعلى هذا استقر الرأى لاختيارى أنا لأكون مستشار الرأى بوزارة الخارجية والعدل. والحقيقة أن هذا القسم أدى خدمات كبيرة فيما يتعلق بوزارة الخارجية فى أثناء حرب فلسطين.. إذ كنا نتكلم ليلا ونهارا، فكنا أول مرة نعمل تبعا لحرب دخلناها لأول مرة لحسابنا الخاص، فحدثت مشاكل كثيرة خاصة ..

فى هذه الأثناء تعاملت فى هذا المنصب مع وزراء كثيرين منهم النقراشى باشا وخشبة وحسونة.. وعلى هذا كان اتصالى بالخارجية أكثر من اتصالى بمجلس الدولة، مع أنى كنت مستشارا للرأى بوزارة الخارجية داخل مجلس الدولة، لأنه لم يكن هناك مستشار قانونى لوزارة الخارجية فى ذلك الوقت إلا بلجيكى يعمل بعقد، لا أذكر اسمه بالضبط، ولم يكن عندهم بعد إدارة قانونية بالمعنى الكامل. وعلى هذا، كانت أشغال الخارجية مجالا لإدارة الرأى بالخارجية والعدل؛ فكان كل أسرار الخارجية عند هذه الإدارة وحملات مفصلة بوزارة الخارجية لدرجة أنى صاحبت خشبة (باشا) فى الهدنة الأولى بعد الحرب فى فلسطين مايو ١٩٤٨.. حينما طلبت الهدنة الأولى.. ويمكن بالمناسبة أن أقول إن أنا اللى طلبت إعلان أسباب دخول الحرب فى ذلك الوقت، وكان النقراشى (باشا) رئيسا للوزارة، وأبلغت هذا للسنهورى (كان رئيسا لمجلس الدولة)، فقال لى (الحق قابل النقراشى باشا) ذهبت قلت له يا باشا يارئيس الحكومة، الدولة كلها حين تدخل الحرب تقوم بإعلان عن الحرب والأسباب..

- حتى بونابرت لما جه مصر.. - قال: عد هذا البيان، أعددته بسرعة وذهبت به بسرعة إلى وزارة الخارجية وكتبت ولاحظت أننى كنت كاتب عن «دير ياسين» وأشياء مثل هذا القبيل حذفها بقلمه قائلا:

- لا نريد أن نظهر أنفسنا بهذا الضعف.

وصدر (بيان) أسباب دخول مصر الحرب ضد العصابات الصهيونية فى فلسطين ١٩٤٨.

على كل حال إذن، بقيت مستشارا لوزارة الخارجية، وكانت وزارة الخارجية محتاجة إلىّ فى هذا، ومصر كانت فى أزمة: حرب فلسطين وغيرها، ومن حسن الحظ أننى درست هذه المسائل أثناء وجودى بفرنسا، لأن رسالتى فى فرنسا كانت عن القانون الدولى وحكاية الحروب وما إلى ذلك.

ولذلك كنت مفيدا حينئذ.. لدرجة أنه قد ذكروا لى أنهم سوف يعينونى وكيلا للوزارة لشئون السودان. على كل حال، حصل تعديل فى تنظيم مجلس الدولة، كان هناك نوعان من المستشارين: مستشار محكمة القضاء الإدارى، ومستشار الفتوى والتشريع، وكلاهما على مستوى واحد وبدرجة واحدة، فى سنة ١٩٥٠ يمثلان قانون مجلس الدول، بل فى ١٩٥٢ فى سبيل التعيين للتمييز بين مستشارى المحكمة ومستشارى الرأى والتشريع.

خلى بالك أنا كنت ممن شملتهم إقالة المستشارين، وترتب على هذا أن من كان بعدى، وكان نائبا يصبح بعد ذلك مستشارا لأن بعضهم انتقد المحاكم - القضاء الإدارى - وعمل فيها، أما أنا فلم أنس هذا الخط لمجرد رغبة الخارجية ببقائى مستشارا للخارجية ورغبتي الشخصية، فأنا لا أميل للعمل بمحكمة القضاء الإدارى رغم أن تخصصى القانون الإدارى فقد كنت أفضل أن أكون مستشارا لوزارة الخارجية والعدل.

وعلى ذلك لم يكن هذا ذنبى، لكن أن يكون هذا التغيير الجديد يجعل من كانوا بعدى كأنهم على رأس القائمة وأنا فى وسطها..

لم اعبأ بهذا إطلاقا، لكن مسألة الكرامة لم تسمح قط لى بأن أكون فى درجة تلى هؤلاء، بل إننى اؤدى خدمتى كما يجب.. ولذلك حينما يؤشر هذه العملية كان الرأى فى الجلسة لسليمان حافظ فى الجمعية وكان العامة ومقره (كل) مستشارى الجمعية العامة نحو ٢٥ أو ٣٦ مستشارا وصوتنا على ذلك وبعضنا قال بكل صراحة لا يصح اعتبار مستشارى المحكمة بدرجة (النقض ومستشار الرأى والتشريع بدرجة الاستئناف) لذلك قلت إذا تقرر هذا المشروع، فأنا مستقيل فورا، ولذلك، أثناء الجمعية العمومية، وبعد أن اقروا هذا المشروع: إننى لا أقبل هذا إطلاقا، الناحية المالية لا تهمنى لكن ناحية الكرامة لا أفرط فيها أبدا، فكنت أنا وأبو العينين سالم زميلى.. نحن الاثنان اللذين رفضا هذا التمييز.. رفضناه وخرجنا من المجلس بناء على عدم رضانا على هذا القانون، لأن هذا يحط من كرامتنا، لأن من كان بعدنا بدرجة نائب أصبح مستشارا، ومستشارا أعلى، إنما كان هذا البث مباشرا.

وأذكر أن على ماهر أسف لهذا، وطلب أن أقابل محمد نجيب - القائد الأعلى للقوات المسلحة حينئذ - فذهبنا لنقدم استقالتنا له، فقبل الاستقالة على سبيل المجاملة، كان هذا أول لقاء مع

نجيب حينئذ وأذكر إنه كان يشتكى من كثرة العمل، فكان لا ينام إلا بالحقن وأنا قلت له إننى مسئول أيضا حتى أننى لم ألاحظ التغيير فى القاهرة..

وعلى كل حال، لم تكن هناك فكرة معاداة الثورة، وإنما هو سبب خاص، وهو خلاف لمسه حكاية تاريخ الدرجة، فأنا الشخص الوحيد الذى رفض التشريع فى هذا.. إذ أذكر فى هذا أننا اجتمعنا لتقسيم الرأى بناء على طلب من على ماهر (أغسطس ١٩٥٤) وعرض علينا الفتوى (كان الدستور المصرى لا ينص على حالة استقالة الملك، فقط كان ينص على حالة وفاة الملك «يجتمع البرلمان حتى ولو كان منحلا، ولم يذكر الدستور الاستقالة مثلا».

واحتكم رجال الثورة فى هذا إلى مجلس الرأى.. بعضهم أراد أن يشبه - بطريق القياس - حول تنازل الملك عن خلف العرش بالخلاف.. إلخ هذه الحكاية..

على ماهر كان معارضا وكان يكره الوفد، وعودة المجلس كان يعنى عودة البرلمان الوفدى..

أما عبد الناصر فكان عنده شك فى تفسير الدستور.

وتم الاحتكام للمجلس.. ولأول مرة يحضر السنهورى مع سليمان حافظ الاجتماع لخطورته.. وعرض علينا السؤال هل تقاس حالة الوفاة على حالة التنازل عن العرش أم لابد من ترشيح جديد.. إلخ..

عند التصويت كنت أنا الوحيد المعارض.

حذرت من التغيير الآتى، حذرت صراحة من تغلغل العسكريين فى الحكم ومُثبت هذا فى محضرهم.. وإننى الأن، كحكيم عسكرى.. قلت هذا..

كان بينى وبين سليمان حافظ سوء تفاهم (كان نائبا للمجلس) ومن هنا كان النقاش حاميا فى هذه الفترة.. وبينما قرر سليمان حافظ أن نرفض النقاش وأن نقوم بتشريع سريع بما هو معروف..

أليس غريبا أن يوافق السنهورى على هذا؟

- السنهورى كان له أغراض سياسية، مع احترامى له كان هو سعديا، واستمر سعديا، وحتى

بعض الإخوة من أعضاء المجلس طعنوا فى رئاسته لمحكمة القضاء الإدارى ومجلس الدولة لكونه حزبيا، وذلك عام ١٩٥٠.

فبعد عام ١٩٥٠ بعد أن عاد الوفد إلى الحكم بدأ فى زحزحة السنهورى. كان السنهورى رجل قانون جبارا.. انتهز الآخرون الفرصة وحاولوا زحزحته، خاصة عندما جاء زكى عبد المتعال الذى كان وزيرا وطلب أن يتنحى عن المجلس لكونه سعديا، ولأن هذا المجلس - كما يقولون - يقتضى أن يكون رئيسه غير منتمى لأى حزب..

وعرض السنهورى الأمر علينا ورفضنا هذا التدخل من جانب الوزارة الوفدية، وأثبتنا هذا فى محضر موجود.. إلخ.

مع هذا، فإن موقعة عام ١٩٥٢ بعد الثورة أثناء النظر فى قضية الوصاية على العرش ودعوة المجلس المحلول أو عدم دعوته.. إلخ - كان موقفه متأثرا بالسياسة، فقد كان يحمل هذه الضغينة، هذا التجريح الذى حاول الوفد أن ينال به منه قبل ذلك الوقت..

وعلى هذا كان يحمل بعض الضغينة على الوفد ويؤيده فى ذلك سليمان حافظ.

أم أن السنهورى فى هذا كان يريد التقرب من رجال الثورة؟

- لا أظن أن هذا كان واردا..

فالسنهورى كان رجلا لا يتقرب لأحد قط، إنه رجل جاد وله كرامته لا يذلها إطلاقا، لكنه متأثر كإنسان وكشخص من كيفية المعاملة التى عومل بها عام ١٩٥٠.

إذ ترك هذا داخله مرارة، وهو بطبيعة الحال كان متحاملا من هذا الموقف، لكن شجع هذا أكثر سليمان حافظ الذى كان يكره الوفد، وعبر صراحة.. قالها وأنا شاهد عليها:

- لا نريد زينب الوكيل لا نريد أن نعود لعهدها..

وأنا شاهد على هذه الكلمة، حاول أن يجرح النحاس وحتى أكثر من هذا، أذكر أنه قال «أن

تكتب شكوى تقول إنه إذا حاول مجلس النواب أن يجتمع فيفضل القوة»، ثرت على ذلك قلت: قوة، ها تتكلم عن القوة، هذه عصبية، إحنا ها ندى رأينا قانونيا».

وأذكر بعد ذلك - رحمه الله - أنه تذكر هذا فيما بعد، بعد أن أبعد عن السلطة حضر إلى مكتبى وقال:

- والله يا فلان إنت كنت على حق..

إذن: فقد ثرت لكرامتى واضطررت تحت إلحاح ابن خالى «على الشمس» أن يقرضنى ألف جنيه حينئذ لأعمل فى المحاماة.. وساعدونى على الاستمرار.

سوف نمضى قليلا إلى الأمام قبل أن أعود إلى هذه الفترة ثانية : لماذا اعتقلت فى معتقل «القلعة» ثم تم تحديد إقامتك بين عامى ٥٧ / ٥٨ (نوفمبر، ديسمبر ٥٧، يناير ٥٨)..؟

- الاعتقال كان بسبب الخلاف، فأنا كتبت الكثير من المقالات، بعضها نشر وبعضها الآخر لم ينشر.. مثلا لو رحت إلى ملفى بجريدة الأهرام، وبالتحديد وقت أن كتب السيد صبرى فى بداية الثورة فرد ما سمى (بفقه الثورة)، كان لى رأى حينئذ، حينما طالبت بإنشاء جمعية دستورية من أجل الدستور، وكان لى مواقف متحفظة خاصة فى دفاعى عن الديمقراطية.

كان البعض ينشر والبعض الآخر لا ينشر..

واعتبرونى معارضا، حتى أنهم قالوا حين غضبوا على السيد صبرى إن هذا يعارضه برفضه أما هذا فإنه يكره الثورة (يقصدون شخصى)..

والسبب المباشر لاعتقالى، أننى كتبت مقالة قبل هذا الاعتقال بأسبوع، احذر فيها من تدخل الاتحاد السوفيتى فى الشئون المصرية والتغلغل فيه.. إننا بهذا نكون فتحنا باب إفريقيا كله للتغلغل السوفيتى، وإن هؤلاء سيأتون فى شكل خبراء ثم فى شكل جواسيس وهو ما حصل فعلا..

حذرت من هذا وكنت شديدا وعنيفا فى التخوف من فتح الباب للاتحاد السوفيتى، خاصة أننا كنا قد وقعنا معاهدة تجارة وما إلى ذلك..

هذا المقال وأنا اكتبه شعرت بأنه سيكون له ما بعده، شعور داخلى غريب، وعلى هذا، بعد أن عرفت كعادتى أن الأهرام لن تنشره، أرسلت به إلى ثلاث أو أربع جرائد لينشر فى إحداها.

ومع ذلك لم تنشره أية جريد.

وبعد يومين تقريبا إذا برجل بوليس يدق على الباب فى مكتبى بشارع شريف، شعرت بأن هناك حركة غير عادية، أظن أنه كان فى ٢٧ نوفمبر ٥٧ أو أواخر نوفمبر.. شعرت بحركة فى مدخل المكتب كان احد هناك يتجسس علىّ، شعور غريب..

ثم وأنا راكب القطار وراجع، حين وصلت لمحطة المعادى وجدت أن هناك ثلاثة من الشرطة موزعين على ثلاثة طرق، شرطى على كل مدخل، كأنها مروحة، عجبت من هذه الظاهرة غريبة.

ثم ما كدت أفتح الباب حتى رن التليفون - يسألون هل رجع الدكتور وحيد، ثم ما كدت أضع التليفون وجدت أحدهم يقف على الباب.

المهم، ما كدت أدخل حتى دق الباب، وظل يسألنى ضابط (بأدب)، وقبل أن يعيد سؤاله قلت له:

- عن ماذا تبحث؟

قال: نبحث عن المقال..

تعجبت..

قلت إبحث ما شئت.. عندنا ملفات كثيرة منذ كنت مستشارا بوزارة الخارجية..

طلب المقال قلت له لا أعتقد أنه عندى..

قال، ربما فى المكتب..

قلت ربما تجد المسودة وربما لا غير- فقد أرسلت المقالة إلى الصحف طلب أن يذهب معى إلى المكتب (زيارة بسيطة)، وفى المكتب بشارع شريف وبعد أن استأذن زوجتى - كانت الساعة ١٠ مساء.. طلب المقالة مرة أخرى قلت لا أجدها.. طلب أن آتى معه لوزارة الداخلية لـ (سؤالى)

هناك فى وزارة الداخلية.. عجب أهل بيتى.. قبض على، وذهبت إلى سجن القلعة.. واعتقلت أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير.. وتظلمت كثيرا من حيث لا شكوى.

فى هذه الأثناء زارنى فى المعتقل صلاح دسوقى. أظن أنه كان مدير مكتب زكريا محيى الدين، قال الدسوقى: يمكن يفرجوا عنى.. قلت: سأمتنع عن الأكل..

لحسن الحظ كان الجو بردا جدا ومع هذا كنت منتظما فى أخد دش.. إلخ. وفى هذه الزيارة عرفت سر القبض على.

جاء صلاح دسوقى وسألته فأجاب:

– أنت ضد الثورة – أنت فاكر موقفك فى قضايا سابقة...، وقلت فيها إن الثورة انشأت هناك سجن الباستيل.

أذكر أثناء المرافعة التى كنت فيها: للأسف إن ثورة ٢٣ يوليو انشأت معتقلا آخر على شاطئ النيل، الباستيل خارج الوجه البحرى وخبط القاضى قائلا: اشطبوا هذه العبارة، إن ثورة ٢٣ يوليو كما صرح لم تنشأ باستيلا على ضفاف النيل، وشطبت بالفعل، وأخذت الأمور ببساطة.

– ظللت فى السجن حتى كانت هناك محاولة (لجر رجلى) فى قضية الأمير الذى مات فى السجن.

وقد حاولت أن أعرف من هو السبب وراء سجنى، قيل إنه محمد حسنين هيكل، وكتب هيكل عن هذا، والتقيت مع هيكل وسألته فأنكر..

ما تنامى إلىَّ أن هيكل قال لهم: أدوه درس..

لما سألوه عن مقالى، يظهر أنه قال لهم شدوا ودنه.

وفي هذه الأثناء.. جاءنى يقول لى إن مقالتك سمعناها نشرت فى إسرائيل والأردن، قلت لهم هل يعقل أننى أرسل بمقال خطير ضدى إلى الخارج؟ صحيح إننى أعرف أحمد أبو الفتح ولكن لا أعرف إذاعة مصر الحرة.

إذن التهمة كانت باطلة.

.. إذن، بعد فترة الحراسة والمراقبة والاعتقال أفرجوا عنى.

لم يعتقلنى أحد قبل هذا.. لكن يبدو أن السلطة عرفت أننى بعيد عن المشاكل لدرجة أنه بعد الاعتقال ١٩٦١ اعتقل كل أقاربى ولم أعتقل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

رغم أنه قبض على كل السياسيين حينئذ..

واعتقلت كما شرحت فيما بعد فى ٥٧ و ٦٩ ثم طلبت الخروج للعمل بالكويت، طلبنى الشيخ الصباح السالم الأمير الكويتى واتصلوا بعلى صبرى رئيس المجلس (وابن خالتى) فقال لهم خذوه وإن كان ده راجل عصبى.

وفعلا ظللت فى الخارج بين ٦٤ و ١٩٧٢.

نفهم من هذا أن الثورة لم تنس ثأرها قبل هذا، وأن سبب اعتقالك عام ٥٨ كان موقفك منها منذ بدايات الثورة.. أليس كذلك؟

- أعتقد هذا.. لا شك..

مواقفى فيما يتعلق من التغلغل السوفيتى معروفة..

هل تعتقد بوجود الحرية قبل ٥٢ وغيابها بعد٥٢ بالنسبة للمثقف؟

- أعتقد، أظن أنه كان هناك قدر كبير من الحرية رغم ما قيل فى عنف العسكرى الأسود فى عصر إبراهيم عبد الهادى، وإن كان فيه تجاوز، ولكنه لا يعتبر قليلا جدا إذا قورن بما جاء بعد ١٩٥٢.

كانت الحرية قبل الثورة تصل إلى درجة بعيدة، فقد كان العيب فى الذات الملكية جريمة عادية جدا، يقبض على صاحبها ثم يفرج عنه مباشرة، وكان كل واحد يتكلم بحرية، لكن هذه الحرية لا تجعله يشتم الملك مثلا، فقد كان الهجوم على الملك فى جميع الحالات هو مجرد جريمة قذف.

لكن كانت الحرية كاملة..

كمثقف، لم أكن أحس بأى قيد.

أكتب بحرية كاملة ما دمت أتناول مصالح عامة أو شئونا عامة ولا أخطئ فى أحد وهذا كنت أعتبره حرية مطلقة، لم أكن معارضا لأننى كنت موظفا فى الحكومة حينئذ ومع ذلك كنت أكتب آرائى باستمرار فى شئون خارجية، لدرجة أن وزير صلاح الدين لامنى لأننى -كمستشار لوزارة الخارجية- رأيى كان ينسب للوزارة فاقتنعت.

إذن كانت الحرية كاملة.

ولم تعد موجودة بعد ١٩٥٢؟

إن من أكبر عيوب عبد الناصر هو القضاء على الحريات، ويكفى أن رجاله كانوا يقولون إن القانون فى إجازة، وفعلا ارفع رأسك، لكن أى رأس يرتفع تقطع.. وأرى أن الهزيمة العسكرية كانت بسبب طريقة التعامل مع المثقفين.

العديد من المثقفين قاسوا الأمرين، فالمثقف لا يحيا إلا فى جو الحريات، ولذلك فالكثيرون هاجروا أو فروا إلى الخارج..

أحب أن أعود إلى السؤال الخاص بالسنهورى..

- د. السنهورى كان حجة القانون وأكثر أستاذ مدنى إذا قارناه بأى أستاذ آخر (عميد كلية الحقوق وكان أستاذا بها).. أنا اقدره وأعتبره حجة فى القانون المدنى.. ثم تعاونا فى أكثر من مرة فى عهد النقراشى.

- مثلا، قضية (السودنة) فى عام ١٩٤٧، مشروعات السودنة التى بدأت بها انجلترا، وكان النقراشى حريصا على أخذ رأى السنهورى قبل عرض القضية المصرية على مجلس الأمة.

كان عظيما فى القانون.

ولكن لم يسلم من أن نزعاته الداخلية كانت توحى بأنه ضد الحكومة، وأنه إذا اتخذ إجراء فلن يكون فى صالح حزب الوفد إطلاقا. فيما يتعلق بالفتوى التى صدرت أخيرا كان يتأثر فيها باعتقاده الشخصى وكرهه ردا على موقفه من الوفد، وهو ما ظهر فيما بعد.. لكن لم تكن بينى أنا - وحيد رأفت - والسنهورى أية علاقات سيئة، لكن كانت بينى وبين سليمان حافظ مثل هذه العلاقات السيئة، ولهذا فأنا تأثرت جدا بعملية ضرب السنهورى بمجلس الدولة فى مارس ١٩٥٤.

من وراء ضرب السنهورى ؟

- لاشك أنه صلاح سالم، وعرفت هذا من زميلى عبد الغنى المهلمى من تلامذة السنهورى برئاسة مجلس الدولة ومستشاريه المخلصين.. وكنا نضمه معنا بوزارة الخارجية، وكان من المعادين لى فى وزارة العدل والخارجية..) وأصبح مستشارا بعد خروجى من المجلس، وحضر فترة ضرب السنهورى.

هل كان السنهورى منحازا لنجيب؟

- لم يكن منحازا بمعنى الكلمة، هو كان يوحى بأنه مخلص لنجيب.. لماذا؟ لأنه كان يعتقد أن محمد نجيب مع الديمقراطية بينما كان عبد الناصر هو تأكيد للدكتاتورية.. هكذا كان يرى.

لكن كانت علاقته طيبة بالطرف الآخر والمناهض لمحمد نجيب؟

- فى الأول كانوا مؤمنين بالثورة كل هؤلاء المثقفين أنا كنت مستشارا شاهدا وكانوا يناقشون مشروع الإصلاح الزراعى بحجرة السنهورى وكان جمال سالم حاضرا مع السنهورى، وسليمان حافظ يتردد على الاثنين وأذكر أنه كان يقول دائما لسليمان حافظ: والله دول شبان ممتازين..

يتكلم عن مناقشات جمال سالم فيما يتعلق بالإصلاح الزراعى وكان قد عرض على السنهورى مناقشات بهذا الخصوص بصفته رئيس مجلس الدولة حيث القانون..

لهذا كانوا من المعجبين إعجابا كبيرا بهؤلاء الضباط، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون أن النظام السابق كان فيه الكثير من الفساد وهم لم يأتوا إلا لإصلاح هذا الفساد.

نحن شعرنا جميعا - بما فينا السنهورى طبعا - بهذا الإحساس لم يكن بيننا وبينهم أى شىء، إنما تطورت الأمور بشىء مختلف تماما، ثم بدأت تظهر التدخلات والاعتقالات لرجال السياسة القانونيين.

بمنزله بالمعادى فى ٢٨ يناير ١٩٨٧.

منافذ توزيع إصدارات مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

■ **القاهرة**

- ١٦٥ شارع محمد فريد — ت : ٢٣٩٠٤٤٩٩
- مكتبة الأوبرا – ميدان الأوبرا – العتبة — ت : ٢٥٩٠٦٢٧٢
- مكتبة الأهرام – أركاديا مول — ت : ٢٥٧٧٥٤٤٨

■ **الفنادق السياحية**

- شيراتون القاهرة ٨٨ — ت : ٢٧٧٠٤٥٧٤ – ٣٣٣٦٩٨٠٠
- جراند حياة القاهرة – داخلى ٦٣١٥ — ت : ٢٣٦٢١٧١٧ – ٢٣٦٤٨٢٣٠
- هيلتون رمسيس (السوق التجارى) — ت : ٢٧٧٠٤٦٤٦ – ٢٥٧٧٧٤٤٤
- سميراميس انتركونتيننتال — ت : ٢٧٩٢٢٥٣٧
- إنتركونتيننتال هليوبوليس مدينة نصر — ت : ٢٤٨٠٠١٠٠

■ **بنها**

- شارع الشهيد فريد ندى — ت : ٠١٣/٣٢٢٣٨٤٨

■ **الإسكندرية**

- طريق الزعيم جمال عبد الناصر — ت : ٠٣/٤٨٤٨٥٦٣

■ **الزقازيق**

- شارع ٢٣ يوليو – عمارة الأوقاف — ت : ٠٥٥/٢٣٠٦٦٥٧

■ **أسيوط**

- مبنى جامعة أسيوط — ت : ٠٨٨/٢٣٣١٠٦٥

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

هذا الكتاب

ما زالت قضية العلاقة بين ثورة ١٩٥٢ والمثقفين الذين اختلفت اتجاهاتهم إزاءها تثير جدلا لأن الكثير من الأسئلة المتعلقة بها لم تجد إجابات شافية بعد. ولا غرابة فى ذلك. فلم تحظ حركة سياسية أو اجتماعية فى تاريخ مصر الحديث بمثل الاهتمام الذى لقيته ثورة ١٩٥٢. ولم يكن هذا الاهتمام مقصورا على مصر. بل امتد خارجها إقليميا ودوليا. وتنفرد قضية العلاقة بين ثورة ١٩٥٢ والمثقفين بأن بعض هؤلاء اختلفت مواقفهم السياسية إزاء سياسات تبنتها عن اتجاهاتهم الفكرية. فهناك من أيد بعض سياساتها بالرغم من معارضته لها من حيث المبدأ. وقصة المثقفين مع ثورة ١٩٥٢ كبيرة ومعقدة. والكثير من أسئلتها ما زال مفتوحا. ولذلك فقد أحسن الدكتور مصطفى عبد الغنى عندما أعاد طرح موضوعها الذى أهتم به طويلا. بل تخصص فيه منذ أن أعد رسالته لنيل درجة الدكتوراه. وهو يقدم فى هذا الكتاب شهادات ١٦ من أبرز وأهم المثقفين الذين يغطون ألوان الطيف المصرى كلها اليسارية والليبرالية والقومية والإسلامية. والهدف هو أن تكون هذه الشهادات فرصة لنقاش عام جديد أكثر هدوءا وأوفر موضوعية حول ثورة ١٩٥٢ بمنأى عن الاستقطاب والترصد والتربص. وبأفق التطلع إلى المستقبل على أساس أن أحدا لا يمتلك الحقيقة المطلقة. وانطلاقا من أن التاريخ السياسى - الاجتماعى للمجتمعات الإنسانية حلقات متصلة تسلم كل منها للأخرى فى حركة متدفقة يرتبط فيها الحاضر بالماضى ويمهد للمستقبل.



الناشر : مركز الاهرام للنشر والترجمة والتوزيع
توزيع الاهرام
مطابع الاهرام التجارية -قليوب -مصر

